جورج إدوارد إفري

أسطورة المسيحية
بين الحـقـيقـة والخـيـال

ترجمة: عادل أسعد الميري



أسطورة المسيحية بين الحقيقة والخيال

جورج إدوارد إفري

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

أسطورة المسيحية بين الحقيقة والخيال

جورج إدوارد إفري

ترجمة: عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 20259 / 2014

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 977-765-011-3

.Afaq Bookshop & Publishing House - 4 Mohamed Mazloum st

intersected with Houda Shaarawy - CAIRO – EGYPT

Tel: +202-2392-6114

Fax: 00202-2392-5917

afaqbooks@yahoo.com :E-mail

www.afaqbooks.com

4 ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي – القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت: 23926114

فاكس: 23925917

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

إفري، جورج إدوارد.

أسطورة المسيحية بين الحقيقة والخيال: ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع – 2015

224 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 20259 / 2014

الترقيم الدولي 3 - 011 - 765 - 977 - 978

1 – دينية

أ - إفري، جورج إدوارد

ب - العنوان

مقدّمة المترجم

كنت أستغل اجازاتي الصيفية الطويلة نسبيا، في زيارة المتاحف الأوروبية، وكذلك كاتدرائيات القرون الوسطى، ويكفي أن أذكر هنا أسماء عدد من كاتدرائيات القرن الثالث عشر الموجودة في باريس، أو في حدود دائرة قطرها 150 كيلومتر مركزها باريس، فهناك في باريس الكنيسة المقدّسة في قلب جزيرة ما بين ضفتيّ نهر السين La Sainte Chapelle / سان دينيس Saint Denis / روان Rouen / آميان Amiens / رانس Reims / شارتر Chartre / أورليان Orleans، ثم أذكر أسماء ثلاثة متاحف باريسية طبعا أولا اللوفر Le Louvre بما فيه من أقسام مختلفة لفنون التصوير الزيتي الأوروبي في القرون المختلفة، ثم متحف كلوني Cluny للقرون الوسطى، ثم متحف الآثار الفرنسية الموجود في قصر شايو Chaillot.

لفتت انتباهي في تلك المتاحف والكاتدرائيات مناظر الكتب المقدّسة المصوّرة في لوحات الفنّانين العالميين، وكذلك على جدران الكاتدرائيات، وبالزجاج المعشّق في نوافذها، مثل مناظر ميلاد الطفل يسوع في حظيرة للبقر والأغنام في مدينة بيت لحم حيث لم يكن لهم أن يضعوا رؤوسهم في فندق لضيق ذات اليد، بين أبيه القديس يوسف النجّار وأمه مريم العذراء، ومجموعة من رعاة الأغنام، بالإضافة الى ملوك المجوس الذين جاؤوا من فارس للاحتفال بمولد الطفل المقدّس. ثم مناظر من حياة يسوع المسيح مثل معموديته في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان، ومناظر من الموعظة على الجبل، ومن بعض معجزاته مثل معجزة الخمس خبزات والسمكتين، ومعجزة اقامة أليعازر من الموت، ثم مناظر من العلامات الهامة في حياته، مثل منظر التجلّي مع موسى وايليا، ومناظر الصلب والقيامة والعُنْصُرة.

كانت أغلب المناقشات التي تدور بيني وبين أصدقائي أو زملاء تلك الزيارت من الأوروبيين، تؤدّي بنا الى الاحتداد، بسبب اصرار أغلبهم على اعتبار أن كل تلك المناظر هي من خرافات المسيحيين، إذ لم يعد هناك في أوروبا الكثير من المؤمنين، كما أن أغلب الكنائس لا تمتلىء بالزوّار الا خلال المواسم السياحية الصيفية، أما أثناء بقية العام، فيندر أن يزيد عدد روّاد الكنائس صباح الأحد خلال ساعات القدّاس، عن بضعة عشرات، لا يشغلون الا أقل من 10٪ من مقاعد الكنائس. كانت تلك المناقشات بيني وبين أصدقائي الأوروبيين، هي السبب المباشر في بداية البحث عن الحقيقة. وكان الكتاب الذي بين أيديكم الآن، هو أحد الطرق التي سلكتها الى معرفة الحقيقة. فرغم كوني مسيحيا مصريا أرثوذكسيا، الا أن البحث العلمي أدّي بي الى حقائق تاريخية، مختلفة عن الحقائق الايمانية التي تعلّمتها صبيا وشابا في دروس الأحد بالكنائس المصرية.

هناك مشكلتان بخصوص مسألة ترجمة هذا الكتاب، الأولى هي لو أن ديانتك الاسلام فستجد صعوبة في فهم الكثير من المسائل الايمانية والعقائدية واللاهوتية المتعلّقة بالمسيحية. يكفي جدا أن يحاول المرء قراءة العشر صفحات الأولى ليجد كلمات مثل: أسرار الكنيسة، وسر التناول، وحركة الاصلاح البروتستانتية، وطقس المعمودية، وعيد العُنْصُرة، والقديس بولس، والقديس بطرس، والعهد الجديد، وسفر أعمال الرسل.........الى آخره. أمّا لو أن ديانتك هي المسيحية فستكون مشكلتك هي

محاولة المؤلف التشكيك في كل ما آمنت به منذ طفولتك، خاصة فيما يتعلّق بطبيعة يسوع المسيح، وهل هو اله أو انسان، ومعجزات أنبياء العهدين القديم والجديد، ونبوءات العهد القديم عن يسوع المسيح.

معلومات مبدئية لا يمكن الاستغناء عنها

(من وضع المترجم)

ينقسم الكتاب المقدّس Bible لدى الطوائف المسيحية، الى عهد قديم وعهد جديد. وكلمة عهد لا تترجم هنا بمعنى عصر، بل هي أقرب الى التعاهد أو الاتفاق أو التعاقد أو الوصية أو الشهادة. العهد القديم Old Testament في جوهره هو الأسفار الخمسة الأولى من توراة موسى، التكوين والخروج والتثنية والعدد واللاوين. سفر التكوين يحكي قصة خلق العالم، وخروج آدم وحوّاء من الجنة، وقصة الأخوين هابيل وقائين (ويسمّى في القرآن قابيل)، وقصص الأنبياء من نوح الى ابراهيم ونسله، اسحق ويعقوب ويوسف، ودخول شعب اسرائيل الى مصر. أما سفر الخروج فيحكي قصة خروج شعب اسرائيل من مصر، والتيه في صحراء سيناء، والوصايا العشر التي تلقاها موسى على جبل قمة جبل سيناء. ثم تأتي أخبار ملوك بني اسرائيل، وأخبار نبوّات أنبياء بني اسرائيل، ومنهم صموئيل وداوود وسليمان وايليا وايليشع وحزقيال ودانيال وأيوب ويونان (ويسمّى في القرآن يونس).

أما العهد الجديد New Testament فهو الأناجيل الأربعة لمتّى ومرقُس ولوقا ويوحنا، التي تخبر بميلاد وحياة يسوع المسيح، وتهتمّ في الأساس بسنوات كرازته وبعثته، وهي الثلاث سنوات الأخيرة من عمره، الى أن صلب ودفن وقام من الأموات. بالإضافة الى سفر أعمال الرسل الذي يحكي قصة نمو الكنيسة وانتشار المسيحية، خلال السنوات منذ موت المسيح، وحتى ستينات القرن الأول للميلاد، وأحداث صلب القدّيسين بطرس وبولس في روما. ثم تأتي في الانجيل، الرسائل التي كتبها تلاميذ المسيح وحواريوه، الى شعوب العالم خلال القرن الأول الميلادي، لإبلاغهم بخبر وصول الايمان الجديد. ينتهي الانجيل بسفر رؤيا يوحنا عن علامات نهاية العالم.

لم تستمر بعثة المسيح لأكثر من ثلاث سنوات، بين عامه الثلاثين وعامه الثالث والثلاثين، ومن المعروف انه كان قد اختار في بداية تلك السنوات الثلاث، اثني عشر رجلا رسولا apostles، من كتبة الرسائل epistles، سمّوا فيما بعد الحواريون، لأنهم كانوا يجرون معه الحوار الدائم بغرض التعلّم منه، وبغرض سؤاله في كل ما يعنّ لهم من مسائل. هؤلاء معروفون للجميع بكل تفاصيل حياتهم، والمهن التي كانوا يمارسونها قبل اختيارهم حواريين أو رسلا، وكان عددٌ كبيرٌ منهم من بين صائدي الأسماك في بحيرة طبرية. الا أن يسوع المسيح قرب نهاية تلك السنوات الثلاث اختار سبعين آخرين، من بين التلاميذ disciples الذين كانوا يتبعونه منذ بعض الوقت، ليرسلهم في شكل ثنائيّات، الى القرى والمدن القريبة، لابلاغ الناس بأخبار بعثته ودعوته. هؤلاء غير معروفين كلهم. مرقس مثلا وهو أحد كتبة الأناجيل، لم يكن من بين الحواريين ولكنه كان من بين التلاميذ.

كان الخلاف الرئيسي بين كنيسة روما الكاثوليكية catholic وكنائس شرق حوض البحر المتوسط الأرثوذكسية orthodox، قد نشأ منذ القرن الرابع الميلادي، في المجامع المسكونية المتتالية (في نيقيا وأفسوس وخلقيدونيا) حول مسألة طبيعة المسيح، وهل كانت طبيعة واحدة (باللاتينية مونو فيزايت monophysite)، يختلط فيها العنصر الالهي بالعنصر البشري في طبيعة جديدة، وهو

مبدأ الكنيسة الأرثوذكسية، أم كان المسيح ذا طبيعتين لا تختلطان، احداهما بشرية تعرّضت للتعذيب والصلب، والأخرى الهية قامت من الأموات وصعدت الى السماء. ثم جاءت الكنيسة البروتستانتية Protestantism لتحتج على الكنيستين الأخريين.

الفصل الأول

المدخل

1- الفرق بين الأسطورة والخرافة

ان كلمة أسطورة myth [1] - انظر المعجم في نهاية الكتاب - تستعمل في وصف القصص الخيالية، ولكن التي يمكن تفسيرها، وتتعلق بالعجائب والمعجزات التي قام أرباب وأبطال الديانات البدائية بأدائها، خاصة أولئك الأرباب والأبطال الذين تتلى قصصهم في المناسبات العامة التي يحتفل بها معتنقو تلك الديانات، مثل مناسبات المهرجانات الاحتفالية.

وقد يمتد معنى الكلمة كذلك أحيانا الى وصف القصص التي تروى لإلقاء بعض الضوء على الألغاز التي لا يمكن تفسيرها، التي قد تكون مرتبطة بنفس أولئك الأرباب والأبطال، أو مرتبطة بشخصيات مبهمة ظهرت في تراث تلك الديانات البدائية. هذه الألغاز التي لا يمكن تفسيرها، تحوّلت مع الوقت في بعض الثقافات، الى ما نسمّيه حاليا خرافات [2]Legend.

مع التقدّم العلمي للبشرية، ظهر بعض التناقض بين الأسطورة من ناحية، وبين الواقع من ناحية أخرى، أو بين الشعر[3] الذي يتخذ من الأسطورة مادته من ناحية، وبين التاريخ الموثّق الذي يتخّذ من الواقع مادته من ناحية أخرى، ولا تكون نتيجة هذا التناقض بالضرورة في غير صالح الشعر.

كان افلاطون بشكل عام لا يتفق مع الشعراء، وانتهى في هذا الشأن الى كتابة النقد العنيف الذي يسخر فيه من الشعر، وهو النقد الذي كان مقبولا في زمنه خاصة فيما يتعلق بأسطورة إر Er، الذي كان قد ذهب الى عالم الموتى ثم عاد الى عالمنا ومعه التصوّر الخاص بالحساب الأخير. أما ارسطو فقد إتخّذ موقفا مختلفا من الشعر إذ قال في كتابه عن الشعر (إن الشعر قد يكون أحيانا أكثر فلسفة وجدّية من التاريخ).

ان الانتقاص من الأسطورة أو الاستخفاف بها في حضاراتنا الحالية، ينبع جزئيا من ارتباط الكلمة في الذهنية العامة للجنس البشري بالديانات البدائية، وبالتالي بعبادة الأوثان، التي نعترض عليها، وهو السبب الذي جعل المسيحيين الأوائل يفضّلون استعمال كلمات أخرى، مثل كلمة الأسرار المقدّسة[4] لوصف بعض ممارسات وطقوس الكنائس، أو كلمة المعجزات لوصف بعض أعمال يسوع المسيح، وهي أنواع الخبرات التي أدّت في الديانات الأخرى الى استعمال كلمة الأسطورة.

تزايد الاعتراض على استعمال كلمة أسطورة على زمن الاصلاح البروتستانتي[5] في القرن 16 الميلادي، ليس فقط بين المسيحيين من المصلحين البروتستانت، بل كذلك بين المسيحيين الكاثوليك، كرد فعل على حركة احياء الأساطير الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، التي حدثت في بدايات عصر النهضة الأوروبية، التي تزامنت مع حركات الاصلاح في الكنيسة.

وقد تفوّقت وتأكّدت هذه الحركة الاصلاحية الاعتراضية، على حركة احياء الأساطير الكلاسيكية، وكان ذلك قد حدث بفضل نفوذ وسطوة وألق الانجازات العلمية، التي بدأت مع عصر النهضة في القرن 16 الميلادي، ثم قادتنا الى زمننا الحالي الذي خلق أساطيره الخاصة به، مستعملين فيها المصطلحات العلمية، فالسيّارة والطائرة والراديو والتلفزيون ستكون في نظر قبائل الأمازون المعزولة عن العالم، بمثابة أساطير وخرافات وسحر وشعوذة. لذلك بدأنا نميل في قراءة وتفسير أساطير الديانات البدائية، على أنها كانت محاولات فاشلة لحلّ مشكلات علمية لم يتمكنوا في الأزمنة الماضية من أن يجدوا لها حلولا. أمّا المشكلات التي تقع في عوالم ما وراء الطبيعة metaphysical، فأغلبها لا يزال بلا أي حل علمي.

كان البروفيسور ايفانز بريتشارد قد أشار في بعض تعليقاته على نظريات ليفي برول، الخاصة بالعقلية البدائية primitive mentality، قائلا (إن كل العاملين في حقل علوم أصول السلالات البشرية الأنثروبولوجي، يتفقون على أن أولئك البشر الذين كانوا يعيشون تلك الحياة البدائية، كانوا ينفقون معظم وقتهم في الانشغال بمصالحهم العملية، من مسكن ومأكل وملبس ومشرب، بأسلوب مبني على التجريب والملاحظة، إما دون أدنى اشارة الى تدخلات ونفوذ وأفعال كائنات علويّة فائقة القدرة، أو فقط بالاشارة الى هذا النفوذ وتلك الأفعال، بطريقة توحي بأن تلك الكائنات العلويّة، إن وُجِدَت، لا تلعب الا دورا محدودا ثانويا في حيواتهم).

وفي المجال الخاص بامكانية اظهار الانسان لكفاءاته الخاصة، فان البدائيين المعاصرين modern savages[6] من ناحية، وبشر القرون الوسطى الأوروبية من ناحية أخرى، كانوا على نفس الدرجة من القدرة الابتكارية العلمية، التي يتمتع بها البشر المعاصرون المتحضّرون. ولكن الأمر الذي يؤخذ على أنه أمر مسلم به ومفروغ منه، هو الفرق بين هذه النوعية من العقلية الابتكارية العلمية، التي يتمتّع بها البشر في كل العصور، وبين نوعية العقلية الاستبطانية int، التي تسمح بنشأة الأسطورة، لأنها تسمح بقبول وجود قوى علوية قادرة على فعل كل شيء وأي شيء، دون محاولة عقلنة وجود تلك القوى، ودون أيّة مبررات مادية.

ان امتداد وتوسّع مجالات كفاءة الجنس البشري، ثم الزيادة المستمرة في التفاعل المتبادل بين نظريات المعرفة وبين الهندسة العملية، أدّى دون شك الى أن تلك الفروق الموجودة بين العقليتين العلمية الابتكارية من ناحية، والاستبطانية من ناحية أخرى، أصبحت أكثر تعقيدا، مما أصبحت معه مسألة رسم خط واضح يفصل بين الأسطورة والعلم، مسألة أكثر صعوبة، وصولا الى نقطة التقاء حرجة. سنرى لاحقا كيف أن هذا التفريق كان دائما مسألة صعبة.

2- الأسطورة في الديانة القَبَلية

إن أحد الأساليب الممكنة لمعالجة موضوع مصادر الأساطير، هو أن نأخذ في الاعتبار طريقة بناء المجتمعات البشرية، بالأخص مسألة العائلة الكبيرة الممتدّة داخل المجتمع البشري، فخلال الطور الزمني الطويل الذي عاش فيه الانسان على الصيد وأسلوب جمع الطعام، في مرحلة ما قبل التاريخ، كان ينبغي على هذه العائلة الممتدّة extended family أن تكون هي وحدة البناء الأساسية للمجتمع البشري[7]، وقد تكون أكبر أو أصغر عددا حسب الظروف.

لقد ظلّت هذه المسألة مهمة حتى يومنا هذا، ليس فقط بين أفراد قبائل البوشمان Bushmen أو قبائل سكان صحراوات أستراليا الأصليين Australian aborigines، ولكن كذلك في المجتمعات المتحضّرة المحافظة، مثل امبراطورية الصين القديمة. في مثل تلك المجتمعات، تكون المصطلحات المستعملة للدلالة على القرابة أو على صلة النسب، معقّدة ومبهمّة.

ففي بعض القبائل الأسترالية مثلا، التي احتفظت بأنظمتها القبلية، تظل احتمالات اقامة علاقات زواج ممكنة فقط في أضيق الحدود، أي في حدود قائمة أسماء محدّدة سلفا، ليس فقط قائمة أسماء أشخاص ممنوع الاقتران بهم، بل كذلك أسماء أشخاص موصوفين وموصى بهم كشركاء حياة. في مثل عالم القبائل ذاك، يكون الحافز قويا على تصنيف كل ما يُهمّ في الحياة البشرية، أو حتى بعض الأشياء التي لا تُهمّ، بمدلول علاقة هذه الأشياء بنا نحن البشر. حتى الآن نحن نستعمل مصطلحاتنا العلمية، لتصنيف النباتات والحيوانات، الى أجناس genera وأنواع species.

لقد وُجِد هذا الميل الى التصنيف والتقسيم، حتى في حالات بدائية جدا، وذلك وفقا لاكتشافات علماء الأنثروبولوجي، فقبائل هنود أمريكا، وكذلك قبائل البيجميز pygmies من أقزام أفريقيا، تعرف كل فئة منهم بدقة شديدة، كل أشكال الحياة النباتية flora والحيوانية fauna، في البيئة المحيطة بهم، بصرف النظر عن كون هذه المعلومات مفيدة أو غير مفيدة لهم، ولكن مع ذلك فان هذه المعرفة لا تتم بالأسلوب الذي نتبّعه نحن في عصرنا الحالي.

هم كانوا على دراية تامة بالعلاقات القائمة بين النباتات والحيوانات والبشر والقوى الطبيعية الأخرى في السماء وفي الأرض، مثل الأحجار وجداول المياه، والشمس والقمر والنجوم، الرياح التي تهبّ، والأرواح غير المرئية، التي تتحرك حولنا، لتبهجنا أو لتخيفنا وتسكن أجسادنا. إن القصص التي رويت لتصوير هذه العلاقات هي ما يمكننا تسميته أساطير.

إن الكثير من هذه القصص كان قد أعيدت روايته مرات عديدة بأشكال مختلفة. لقد اكتسبت تلك القصص سطوتها من خلال ذلك التكرار لحلقاتها المسلسلة عبر أجيال وأجيال، وهو التكرار الذي كان ضروريا حتى تصل تلك القصص الى الاكتمال. كلنا يعرف كيف أن الأطفال عندما نحكي لهم قصة قبل النوم، ونحذف منها أي جزء، يدركون على الفور وجود الحذف ويشعرون بالاستياء منه، وهي نفس المشاعر التي كانت تنتاب زملاءنا من بشر القبائل البدائية.

مع ذلك فإن الأحلام الجديدة لدى رجال ونساء من ذوي قدرات استبطانية خاصة تتولد عنها أساطير

جديدة. هذه القوى والقدرات الخاصة يمكن تنميتها عن عمد بواسطة رجال القبائل الروحانيين shamans[8] والسحرة من عرّافي القبائل، الذين عادة ما يدخلون في حالات من الوجد الشعوري والرِعدة trance، ثم يعودون من تلك الحالات بقصص خيالية لا تنتمي الى الماضي، ولا تنتمي الى المستقبل، بل تنتمي الى ما هو خارج الزمن. والقول الشائع هو (كما كانت الأمور في البداية، هكذا تكون الآن، وهكذا ستظل الى أبد الآبدين).

وكان ميرسيا إلياد Mircea Eliade[9] في تأكيده على التجربة الخاصة التي يمر بها الشامان الذي يستعد لدخول مهنة العرافة، ربّما قد مال الى التعميم، من واقع تجربته هو في الدراسة المكثفة التي قام بها للرجال الشامان في شعوب سيبيريا، ولكنه في كتابه (الأسطورة والحقيقة)، وضع اصبعه على شيء شديد البدائية، وفي نفس الوقت مهم للتطوّرات اللاحقة، ألا وهو الحاسة التي اختبرها بعض هؤلاء الشامان والعرّافين والأطباء السحرة، المتمثّلة في الانسحاب من الحياة الحالية، الى عالم آخر له مقياس زمني مختلف، حيث تكون الأساطير، أو بالأحرى العلاقات بين الأرباب والبشر، التي يتم التعبير عنها من خلال الأساطير.

الحقيقة هي أن هؤلاء الشامان لم يكونوا قادرين على التعبير عن تلك الخبرات بسهولة في حدود وسائل التعبير التي كانت متاحة لهم، وفي حدود المفردات القليلة للغاتهم البدائية، وبالتالي لا يكون التعبير الا باستعمال وسائل غير دقيقة، وغير ملائمة للتعبير عن المعاني الكاملة لتلك التجارب والخبرات، التي قد يكون قد عاشها واختبرها ذلك الشامان في تلك العوالم الأخرى المختلفة. وهكذا فإن قصصا عن أولئك الأرباب في تلك الأماكن السماوية، يمكن أن تُروَى وتُشرَح بأسلوب، يسمح بوجود فرق نوعي بين هذه القصص من حيث نوعية حقائقها، وبين القصص العادية الأخرى، التي تتعلق بمواضيع عن الصيد أو القتال، أو عن البشر والحيوانات بشكل عام.

هذا التمييز بين هذين النوعين من القصص لم يكن مقصودا بشكل متماسك ومستمر في أي مجتمع يمكن وصفه بالبدائي. في نفس الوقت فإنه من الخطأ الافتراض بأن الشعوب المحنّكة رفيعة الثقافة مثل المصريين القدماء أو البابليين أو الاغريق، تعاملوا مع أساطيرهم بشكل حرفي، حتى جاء وقت أدركوا فيه جوانب النقص والفجوات الموجودة بها والتي لا يمكن تفسيرها. على أية حال كان المصريون يدركون جيدا وجود هذه الفجوات، بل إنهم حتى كانوا يجدون قدرا من اللذة في وضع هذه الفجوات (المتناقضات) جنبا الى جنب، وهو ما يمكننا أن نراه في بعض أعمالهم الفنية.

أما الكهنة البابليون فقد غيّروا وطوّروا وأعادوا تشكيل طقوسهم وأساطيرهم وفقا لاحتياجات المتغيّرات السياسية المستجدّة، ليس بدافع الخداع، وذلك لأنه لا يمكن خداع أحد، بل بدافع من إدراكهم التام أن تلك الأساطير لم تكن الا قصصا رمزية، تهدف الى التعاون بين المجتمعات البشرية على الأرض وبين أرباب السماء. وقد استمر هذا التعاون ليس فقط عبر تغيّر المواسم والفصول المناخية، ولكن كذلك عبورا للمتغيّرات السياسية، إذ كانت تلك هي أحيانا في الواقع الوسيلة لاحداث التغيير السياسي[10]، عندما يقدّم الرب النصر العسكري لمدينة أثناء حربها مع غيرها من المدن، أو عندما يعطي الرب الهزيمة لنفس المدينة، لذلك كان من المفترض أنه عندما غزت بابل مدنا أخرى،

وأوقعت في الأسر آلهة تلك المدن، أصبح أولئك الآلهة أتباعا لمردوخ اله بابل المقدّس، الذين يُدْعَوْن الى حضور طقوس مراسم مردوخ، ثم يُحْمَلون معه في ركابه. الطريقة التي تمّ بها التعبير عن خضوع أولئك الأتباع لمردوخ بالطقوس والأناشيد، كانت حقا اختراعا بشريا، ولكنه اختراع يمكن أن يقال للشعوب إنه بايحاء إلهي مقدّس.

3- الأسطورة في ديانات العالم

ظهرت المشاكل المستجدّة عندما عرفت كل شعوب الأرض الحكايات المتعلقة بأرباب جيرانها من الشعوب الأخرى، ليس بمنطق الغزو، أي ليس بمنطق الشعوب المنتصرة في مواجهة الشعوب المنهزمة، ولكن بمنطق الشعوب التي تجاور بعضها بعضا، وتعيش كلها معا في نفس العالم، وأحيانا تكون هذه الشعوب واقعة تحت السيطرة السياسية لنفس الحكم، ولكنها تدين بديانات مختلفة، وتخضع لقوانين مختلفة.

هناك نوعان مختلفان للاستجابات المحتملة، يمكنهما التعايش معا في مثل هذه المواقف، وقد يحدث أحيانا أن يأتي النوع الأول من الاستجابات، ثم يتبعه النوع الثاني فورا في نفس التوقيت، حتى يبدو أحيانا كأنهما يحدثان معا، ولكن يمكن القول كذلك أن أحدهما مؤكّد الحدوث أكثر من الآخر.

النوع الأول من الاستجابات هو الاصرار على الطبيعة المقدّسة للأسطورة الخاصة بأنفسنا وبشعبنا وبقانوننا، والاصرار في ذات الوقت على أن كل ما عدا معتقداتنا هو باطل، يحطّ عليه الخزي والعار. أما النوع الثاني من الاستجابات فهو السماح بالقول بأن كل الحقائق ناقصة، وأنها ليست الا تمثيلا رمزيا لحقائق غامضة، وأن بعض تلك الحقائق يكون أكثر غموضا وتشوّشا من بعضها الآخر.

إن النوع الأول من أنواع المقاربات للموضوع، يتّسم بنوع من التمييز للشعب اليهودي، وبدرجة أقلّ بالاغريق وبالصينيين. هذه الشعوب هي التي كانت قد نظرت الى غيرها من الشعوب على أنهم من البرابرة المتوحّشين غير المتحضّرين. وهذا الكلام يقودنا الى ادراك وجود علاقة أقوى وأكثر وثوقا، بين الأساطير من جهة، وبين أحداث التاريخ من جهة أخرى. بين قصص الأرباب من جهة، وبين قصص الأسلاف والأبطال والملوك الأرضيين من جهة أخرى.

هكذا انتهى الأمر باندماج الأساطير الاغريقية مع أسفار البطولات الملحمية الاغريقية، وباندماج الأساطير الصينية مع تاريخ تأسيس الامبراطورية الصينية، وكذلك اندماج أساطير الشعب اليهودي مع التاريخ المقدّس للشعب اليهودي، ذلك التاريخ الذي يحتوي على حكايات ومرويّات شديدة الواقعية، تدور حول حيوات كائنات بشرية عادية، وفي أماكن محدّدة يمكن الاستدلال عليها.

أمّا النوع الثاني من المقاربات للموضوع، فيؤكّد على عدم اكتمال قدرة الأساطير على تفسير الألغاز، باعتبار الأساطير وعاءً للتعبير عن الألغاز وعن الأسرار غير المرئية، تلك الأسرار التي تمّ التعامل معها على أنها هي وحدها فقط المعبّرة عن الحقيقة، مما أدّى الى ظهور التفسيرات والتأويلات الفلسفية.

ففي الهند مثلا، هناك أشعار البطولات الملحميّة المسمّاة الأوبانيشاد[11] Upanishad، وهناك التعاويذ ذات القوّة السحريّة فيما يعرف باسم الفيدا Vedas.

وهناك كذلك في بلاد الاغريق القديمة الكتابات الاستعارية الرمزية المعروفة اصطلاحا باسم a، في أشعار هومير، كما في أشعار غيره من الشعراء الاغريق. وهناك كذلك الكتاب المقدّس للشعب اليهودي، في مجموعه أو في بعض أجزاء منه.

بواسطة بعض الاكتشافات الأثرية الحديثة تمّت تبرئة التاريخ الوارد في بعض أجزاء من الفيدا، ومع ذلك فان الهندوسية الهندية ليست مهتمّة بالتاريخ، بقدر اهتمامها بمعنى الأبدية، وهذا حقيقي أيضا فيما يتعلق بالبوذية. إذ كان دور الأسطورة في الديانتين الهندوسية المتطوّرة والبوذيّة المتأخّرة في الماهايانا Mahayana، هو أن تقدّم تصوّرا لما كان يمكن أن يصبح مستحيلا في هذا العالم، وبالتالي أن تفكّك ارتباطنا بوهم أن وجودنا الحالي هو وجود حقيقي.

من جهة أخرى كانت المسيحية قد تطوّرت عن اليهودية، كما فعلت البوذية وتطورّت عن الهندوسية. وكانت الديانة المسيحية دينا تاريخيا بأكثر مما كانت الديانة اليهودية، أو بأكثر مما كان الاسلام، ديانة العالم السماوية الثالثة، الذي كان له هو الآخر خلفيّات ذات صلة بالمسيحية وباليهودية. كان القانون السماوي في هذه الديانات الثلاث، قد أُعْطِيَ بوحي الهي، الى رجال ذوي معرفة وذوي قدرات نبوئيّة تنبؤية خاصة.

مع ملاحظة أنه اذا كان الكتاب المقدّس هو قلب الديانة اليهودية، فإن موت وقيامة يسوع المسيح من الأموات هو قلب الديانة المسيحية. فرغم أن هناك الكثير من الشك والجدل حول، امكانية اعتبار قيامة المسيح من الأموات حدثا تاريخيا واقعيا، سنعود اليه لاحقا في موقعه المناسب، الا أن حادثة موت المسيح تنتمي، بما لا يدع أي مجال للشك، الى سياق تاريخي خاص جدا ومحدّد. ففي حكم تيبيريوس قيصر Tiberius، حين كان بيلاطس البنطي حاكما على اقليم صغير هو اليهودية Judaea، ليس هناك أدنى شك في أنه كان قد تمّ اعدام يسوع الناصري صلبا خارج أسوار أورشليم

هذه الحادثة، هي ومجموعة أخرى من الحوادث الغريبة والمعقّدة التي تبعتها، والتي يطلق عليها المسيحيون أسماءً مثل، العودة الى الحياة بعد الموت، أو البعث resurrection، والصعود الى السماء أو ascension، وهما المناسبتان اللتان تسمّيان معا بالانجليزية Easter، ثم مناسبة حلول الروح القدس هابطا من السماء على الرسل الاثني عشر المتجمّعين سويا فيما يسمّى عيد العُنْصُرة [12] أو the coming of the holy spirit، أو في كلمة واحدة Whit Sun، هذه المجموعة من الحوادث، يحتفل بها المسيحيون، خلال أيام الجمعة والسبت والأحد، أسبوعا بعد أسبوع، وعاما بعد عام. لقد اكتسبت تلك الاحتفالات عبر القرون، صفة الأسطورة المنقطعة الصلة بالزمن الذي نعرفه، في أذهان وضمائر كل أولئك المؤمنين بها، كل أولئك الذين يعتقدون أن الرجل الذي صُلِبَ في ذلك الزمان، وفي ذلك المكان، أصبح حيًّا الى الأبد.

4- الأسطورة في الديانة المسيحية

وصلت الكنيسة المسيحية الى مرحلة النضج، بين أفراد متواضعين من مواطني شعوب فقيرة، في محال عملهم الصغيرة وفي ورش انتاجهم workshops الواقعة في الشوارع الخلفية، لمدن شرق حوض البحر المتوسط، وبين فلاحين وصيّادي سمك في قرى سوريا وهضبة الأناضول. في مثل هذه الأجواء المحيطة بالمسيحيين الأوائل، كان من الطبيعي تماما أن تكون قصة حياة يسوع المسيح، مولده وبعثته وموته وبعثه حيّا، قد رويت بنفس أساليب رواية أساطير الأرباب، مع قدر لا بأس به من إذكاء المشاعر، ومع تكثيف اللونين الأبيض والأسود. وبالتالي ليس هناك مسيحي واحد، سيشك في وجود حالات شفاء للمرضى، ليس فقط المرضى الذين تسكنهم الأرواح الشرّيرة، المذكورين في بشارات الأناجيل الأربعة the gospel، بل أيضا بعض أولئك الذين كانوا فاقدي البصر أو مقعدين أو مشلولين، وكذلك بعض أولئك الذين وجدهم الناس أمواتا بشكل ما. لكن من الممكن أن تكون هذه المعجزات قد بولغ فيها.

هناك كذلك بعض القصص الرمزية التي تسمّيها الأناجيل الأمثال parables، وكان يسوع المسيح يحكيها للجموع، على أنها ما كان ينبغي له أن يحدث في المستقبل، من الجائز أن يكون قد تمّ تحويرها حتى تصبح قصص عجائب ومعجزات قد وقعت بالفعل. إن قصة ولادته من عذراء، وكذلك قصة عودته الى الحياة بعد موته، ينبغي أن تعالجا بعد أن توضع في الاعتبار مسألة تعدّد وجهات النظر تلك.

فمن المهم لنا أن ندرك، أنه بالنسبة لأولئك الذين كانوا في ذلك الوقت يعتقدون بوجود للأرواح سابق pr على اتحادها بالجسد، كانت هناك دائما مشكلة بخصوص مسألة العلاقة بين هذا الاعتقاد، وبين أن تحمل امرأة طفلا. سنرى لاحقا أن الكل كان يؤمن بهذا الاعتقاد، سواء من اليهود أو من غيرهم. كان السؤال الذي يطرح نفسه على الجميع هو (ما هو الدور الذي يلعبه اللقاء الجنسي في اكراه روح موجودة أصلا على أن تولد عبر جسد؟). وحيث إنه لا يوجد إكراه، بل توجد رغبة في مواجهة أخطار الفناء التي تتعرّض لها الحياة البشرية، فإن مسألة ولادة البشر عن طريق أمّهات عذراوات، يمكن اعتبارها أكثر طبيعية.

يعتقد الكثيرون أن افلاطون قد ولد هو الآخر بنفس الطريقة، أي دون زرع بشر، ويعتقد الكثيرون أن كواسر السماء قد شوهدت وهي تحوم بين الأرض والسماء، لتتغذى على اللحم البشري المولود دون جماع copulation. على أي الأحوال كان الاعلان الأول للرسل يوم العنصرة، هو عن مشاركتهم جميعا في حضور حدث عودة المسيح الى الحياة، بعد أن كانوا قد شاركوا جميعا من قبل، في حادثة موته، وبالتالي عن امكانية المتوفّى أن يعود الى الحياة في نفس الجسد الذي مات به ثم قام به من الأموات.

لكل ذلك كان من المهم اصرار الرسل في اعلانهم لشهاداتهم على أن جسد المسيح بعد قيامته من الأموات، كان جسدا مرئيا ملموسا لهم جميعا، وأن هذا الجسد لم يكن مجرّد ظهور في شكل رؤيا نورانية، وإنما كان جسدا حقيقيا، قامت عليه فيما بعد فكرة تحوّل الانسان في الشكل عند بعثه تمهيدا

لاتحاده مع الله. يؤدّي المزيد من المتابعة للنتائج الضمنية لمثل هذه الحجة في مثل هذا الجدل، الى الاصرار كذلك بنفس القدر من الاهتمام، على أن يسوع المسيح كان حقا قد ولد جسديا، وعلى أنه كان حقا قد مات بالجسد على الصليب، وعلى أن حياته ومماته كانا أكثر من مجرّد ظهور كائن الهي في شكل بشري، ولكن هو بالأحرى تجسد حقيقي في روح وجسد بشريين.

ثم عندما تحقّق الميلاد عن طريق العذراء، كان التأكيد على حقيقة الميلاد الجسدي، هو بنفس أهمية التأكيد على عذرية مريم. وفي الطقس الروماني، أي طقس الكنيسة البابوية في الفاتيكان/ روما، الخاص بالمعمودية المسيحية[13]، لا تزال الأسئلة التي تسأل حاليا للراغب في الحصول على المعمودية المسيحية، هي نفس الأسئلة التي كانت توجّه اليه في القرن الثالث الميلادي. مثل: هل تؤمن بيسوع المسيح كابن وحيد للرب الاله؟ الذي ولد في الجسد وجاء الى هذا العالم ليتعذّب من أجلنا؟ هنا لدينا التأكيد على الحقيقة التاريخية ليسوع المسيح، فهو الكائن البشري الذي وُلِدَ بداخله ابن الربّ، في لحمه وفي دمه، ثم مات بالجسد، ثم عاد من جديد الى الحياة.

إن أوضح شاهد على عدم خلو الأناجيل من عنصر الأسطورة، هي قصّة محاولة إغواء السيد المسيح، في البريّة الصحراوية، على يد ابليس. وهي القصة التي من المحتمل أن تكون قد رُوِيَت على لسان يسوع المسيح نفسه، أو أن يكون قد تمّ تأليفها لاحقا وصياغتها باضافة بعض العناصر الى بعضها الآخر، من بين كل تلك القصص التي كان يسوع يحكيها لحوارييه، عن التجارب التي كان قد تعرّض لها، وذلك حيث إن نظام ترتيب هذه التجارب والاغواءات، يختلف بين المصادر المختلفة، فهو في انجيل متّى مختلف عنه في انجيل لوقا.

لكن هذا لا يمنع من أن يكون كلاهما قد حصلا على معلوماتهما من نفس المصدر، إذ يبدو هذا بوضوح، وهو نفس المصدر الذي حصل منه القديس مرقس - الذي لم يكن من بين حواريي المسيح - على معلوماته التي لم يشر اليها الا بشكل مختصر. من المؤكّد أنه كان قد تمّ تصوير تجربة الاغواء تلك على أنها رؤيا، تضمّنت بداخلها عددا من الشياطين والملائكة والحيوانات، وهم المادة الخام المألوفة لأية أسطورة[14].

أمّا قصّة التجلّي[15] Transfiguration فهي قصة مختلفة، إذ تقع عند الحد الفاصل بين الواقع والخيال، وقد رُوِيَت على أنها رؤيا شاهدها ثلاثة من الحواريين (الرسل apostles)، وهم مستيقظون، رأوا فيها شخصيات دينية تاريخية بمجدها وبهائها تتحاور مع المسيح، ثم سمع الحواريون الثلاثة صوت الرب قادما من السماء. في الحالتين، في قصة التجلّي هذه، كما في قصة محاولة ابليس إغواء المسيح، هناك ملمح مشترك مميّز، هو حدوث اقتحام مفاجىء من عناصر لازمنية الى داخل عناصر زمنية، بنفس الطريقة التي تنشأ بها عادة الأساطير الجديدة.

رغم أن قصة التجلّي تتعلّق بشخصيّة تاريخيّة[16] تتكلّم مع شخصيّتين تاريخيّتين، إذ فجأةً تحدّث اليهم صوت الربّ. إن هذه القصة تعبّر خير تعبير عن الصفة الرئيسية المميّزة للأساطير المسيحية، وهي أن ما يمكن اعتباره في تلك الأساطير المسيحية، تجربة أبدية لازمنية، أي اعتباره حدثا خارج اطار الزمن، وهي هنا تجربة أن يتحدّث صوت الربّ، يمكن في نفس الوقت اعتباره تجربة تاريخية زمنية، لأن المجتمعين هم شخصيات معروفة تاريخيا، لكن التاريخ الذي تمّ الاحتفاء به هو فقط التاريخ الداخل في اطار الأسطورة.

من الجائز في قصّة التجلّي أن اختيار النبييّن موسى وايليا لتمثيل النبوّة والناموس[17] في هذا اللقاء بينهما وبين المسيح، هو نتيجة للغموض المحيط بحادثي اختفائهما الملغز في العصور القديمة، إذ إن ان قد اختفى في الضباب المحيط بأحد الرؤوس الجبلية، وهي رأس فسجة [18]Pisgah، أمّا ايليا فقد صعد الى السماء في عجلة حربية من نار[19]. بحيث إن أحدا لم يعرف موضع قبر أيٍ منهما.

من جهة أخرى هناك الكثير من الأحداث والمعلومات، في الأناجيل الأربعة، وفي سفر أعمال الرسل[20]، التي يمكن اعتبارها منقطعة الصلة تماما بكل ما هو رمزي أو أسطوري، وهي مثيرة للاهتمام فقط لارتباطها بيسوع المسيح وبحوارييه الاثني عشر. ولكن مع ذلك ليس من الضروري أن تكون لهذه الأحداث والمعلومات ما يكفي من الواقعية التاريخية، مما قد يسمح بامكانية الاعتماد عليها كحقائق تاريخية، فالأكثر أهمية فيما نحن بصدده، هي أحداث ظهور المسيح بعد بعثه من الموت.

من بين تلك الأحداث المثيرة للاهتمام، ما وقع من أفعال وأقوال خلال العشاء الأخير[21] الذي شارك فيه المسيح حوارييه الاثني عشر، ليلة القبض عليه وقتله.

بشكل عام هناك مصدران لمعلوماتنا، المصدر الأول هو سفر أعمال الرسل، والمصدر الثاني هو رسائل القدّيس بولس. فهناك بعض الدلائل في سفر أعمال الرسل، تعود الى زمن سابق على العشاء الأخير، وتثبت صحّة هذه الوقائع. تأتينا هذه الدلائل من قصة القدّيس بولس[22]، ومن تفاصيل علاقته بالحواريين في أورشليم الموجودة داخل سفر أعمال الرسل.

الا أن هناك دلائل أخرى تأتينا من رسائل القدّيس بولس[23] نفسه، قد تغلّف بعض تلك الأحداث بالشك، إذ يبدو أنه كان هناك بعض التنافر بين الوقائع طبقا لأحد المصدرين مع الوقائع طبقا للمصدر الآخر، حاول المسؤولون لاحقا في البداية تخفيف حدّتها، ثم عندما لم يتمكنوا من ذلك قرروا حذف بعض الأجزاء من أحد المصدرين. يمكن تفسير ذلك على ضوء ما عُرِف لاحقا من طبع سافر منحاز، لبعض مؤرّخي الكنيسة، الذين كانوا يكرهون أن يعطوا الفرصة لحدوث بعض الفضائح، طالما كان في امكانهم تجنّبها.

5- نصوص الكتاب المقدّس والخرافة

حتى نهاية القرن الأول الميلادي، لم تكن المجموعة الكاملة لأسفار التوراة (العهد القديم)، قد حُدِدَّت بعد بواسطة كهنة المعابد اليهودية، في شكلها التي هي عليه الآن. لهذا السبب، ولأسباب أخرى، استعملت الكنيسة في زمنها المبكّر نسخة التوراة المعروفة باسم النسخة السبعينية[[24]] septuagint،

وهي النسخة اليونانية للعهد القديم، التي كانت مستعملة في الكثير من المعابد اليهودية في الشتات[[25]] dispersion / diaspora، وهي المعابد التي جاء منها الكثيرون من أعضاء الكنائس الأولى.

فيما بعد أي في حوالي القرن الرابع أو الخامس الميلاديين، استعمل القدّيس جيروم النص العبري القديم في ترجمته الجديدة للتوراة الى اللاتينية، مع ملاحظة أن الأسفار التي كانت قد حُذِفَت عند ترجمة نصّ التوراة من العبرية الى اليونانية، في ما عُرِف باسم الترجمة السبعينية، هذه الأسفار ظلّت باقية في نصّ التوراة الذي تعتنقه الكنائس الكاثوليكية الرومانية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية [[26]]، رغم أن الكنائس البروتستانتية الاصلاحية تعتبر هذه الأسفار المحذوفة أسفارا محرّفة apocryphal مشكوك في صحتها وأصالتها، والكلمة يونانية قديمة وتعني (مخفيّة).

كان نظام أسفار العهد الجديد (ما يعرف باسم قانون العهد الجديد. والكلمة باللاتينية canon) هو كذلك بطيء النمو. فعند منتصف القرن الثاني الميلادي كان قد أصبح من الواضح تفوّق الأناجيل الأربعة لمتى ومرقص ولوقا ويوحنا، على ما عداها من الأناجيل. وكذلك كانت هناك مجموعة من الرسائل التي كتبها القدّيس بولس ولاقت قبولا عاما. الا أن هناك بعض الأجزاء الأخرى من العهد الجديد احتاجت الى المزيد من الوقت، للحصول على الاعتراف بأحقيتها في أن تجد لها مكانا بين أسفار العهد الجديد، مثل بعض الرسائل الأخرى التي ألحقت فيما بعد بنهاية العهد الجديد، كالرسالة الى العبرانيين. بالاضافة كذلك الى سفر رؤيا القدّيس يوحنا. كما أن هناك أسفارا أخرى أضيفت الى نسخ الكتاب المقدّس في القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

كانت الأسباب معقّدة، تلك التي تمّ من أجلها قبول أو رفض الحاق أسفار معيّنة بكتاب العهد الجديد. الحقيقة ذات الصلة الوثيقة بموضوعنا، هي أن كتب الأسفار المرفوضة، في العهدين القديم والحديث، كانت تحتوي على قدر كبير مما يمكن تسميته رؤى، أي مواد مرويّة على أنها رؤى، بالاضافة الى الكثير من القصص التي تبدو مبالغا فيها. لكني لا أعتقد أن هذا كان هو السبب الرئيسي للرفض واللاستبعاد.

فسفر النبي دانيال (وهو سفر رؤيا) مثلا أو على الأقل في جزء منه، كان ضمن الأسفار المشتمل عليها العهد القديم، في كل من النسختين العبرية القديمة، واليونانية السبعينية. في حين أن غيره من الأسفار من نفس نوع أسفار الرؤى، قد تركت خارج العهد القديم، رغم أنها توصف مثله بأنها

apocalyptic، أي أسفار متعلّقة بالأخبار الخاصة بالأشياء المخفيّة التي ستحدث عند نهاية العالم.

في غالب الظن، أن من قام بتجميع الأسفار في العهد القديم، اعتقد فعلا أن النبي دانيال قد شاهد هذه الرؤى، في أزمنة ملوك كان من الممكن في ذلك الوقت التأكّد من وجودهم، مثل كوروش وداريوس وهما من ملوك فارس، في حين أن بقية الرؤى الأخرى كانت تُعْزى الى مؤلفين قدامى جدا الى درجة يستحيل معها التأكد من وجودهم وبالتالي التأكد من كلامهم.

وبنفس الطريقة فإن سفر الرؤيا للقديس يوحنا، دخل ضمن أسفار العهد الجديد، وذلك لأن الكنائس الآسيوية، قد اتفقت على أن صاحب هذه الرؤيا هو القدّيس يوحنا الرسول نفسه، وهو من التلاميذ المبكّرين ليسوع المسيح، وأحد الاثني عشر، أو أن تكون لأحد التلاميذ المبكّرين الآخرين الحاملين لنفس الاسم[[27]]. في حين أن هناك سفر رؤيا آخر للقدّيس بطرس[[28]]، وكذلك هناك رسالتان أوليان له، ثار بشأنها الكثير من الشك حول مدى صحة كونها من كتابات القديس بطرس، أو أنها كتابات متأخّرة زمنيا عن الزمن الذي عاش هو فيه.

في النهاية تمّ قبول رسالتيه وضمهما الى العهد الجديد، ورفض سفر الرؤيا الذي يحمل اسمه، رغم أن بعض النقّاد المحدثين يرون إمكانية ربط سفر الرؤيا ذاك بالرسالة الثانية لبطرس. من المؤكد الآن أن الرسالتين قد كتبتا في زمن لاحق على زمن بطرس، ورغم أن الرسالة الأولى كانت قد قبلت بسهولة على أنها أصلية، في ذلك الزمن المبكّر، الا أن الآراء حولها في الزمن الحالي تعتبر متضاربة.

الشيء المهم هو أن الكنيسة في زمنها الأول، كان أكثر اهتمامها منصبّا على الشهادات المرويّة على لسان رائيها، عن الحياة المبكّرة ليسوع المسيح وعن موته. وعن مراحل التكوين الأولى التي عاشتها الكنيسة بقوة الروح القدس، ولكن هذا الاتجاه قد يقودنا الى تجربة تجسّدت في أسطورة، إذ كانت الكنيسة معنيّة جدا بما كان على المسيح أن يقوله بخصوص النهاية القادمة لهذا العالم، ومع ذلك فلقد تم التسليم بحقيقة أن هذا الموضوع يستعمل في مفرداته لغة رمزية غامضة، مثل تلك اللغة التي استعملت في كتابة أسفار أنبياء العهد القديم، وفي كتابة أسفار الرؤى الخاصة بنهاية العالم، وهي الكتابة التي تدور حول أحداث التاريخ المعاصر لأسفار أنبياء العهد القديم، وحول الكوارث التي ستقع في مستقبل الأيام.

في العالم الغربي، استمرّ هذا النوع من النبوءات، طوال تاريخ الكنيسة حتى العصور الوسطى، وفي العالم الشرقي، حتى وقت قريب من عصرنا الحديث، وقد تمّ الحكم على صحة أو عدم صحة هذه النبوءات، عن طريق مقارنتها بالأحداث التي سجّلتها غيرها من أسفار الكتاب المقدّس بعهديه. ثمّ حدث في العالم الغربي قرب نهاية العصور الوسطى، أن اتسعّت الهوّة بين ما هو مكتوب في أسفار الكتاب المقدّس من جهة، وبين الأساطير والخرافات من جهة أخرى، بسبب أن القواعد الخاصة بأساليب المناظرة والجدل حول مسائل العقيدة، حسب نظام ومعتقدات المدرسة السكولاستية scholastic[[29]]،
كانت قد أعلت من شأن أهمية التأكيد، على أولويّة المغزى الواقعي أو التاريخي، لا المعنى الرمزي

الغامض، لأية فقرة من فقرات الكتاب المقدّس التي قد يشار اليها، لتدعيم أحد البراهين الجدلية.

كان الكتاب المقدّس كله في ذلك الوقت يعامل على أنه قابل للتفسيرات المختلفة، بواسطة العلماء حسب تقاليد مدارس الاسكندرية، بالأساليب التي سبق تطبيقها على الأساطير المصرية والاغريقية، ثم على العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدّس. ان التفسير الباطني الرمزي لنصوص الكتاب المقدّس، بمعانيه الروحية غير البادية للحواس أو المدركة بالعقل، مثلما كان الحال في التفسير الباطني الرمزي لنصوص الفيدا، في نصوص الأوبانيشاد، لا تعطي الا القليل من الاعتبار للمعنى الواقعي الحرفي، وغالبا ما حدث أن أدّت هذه التفسيرات الباطنية الرمزية، الى امتداد مجال الأسطورة، الى حيث وجدت الأسطورة نفسها في غير موضعها. ومع ذلك فإن هذه التفسيرات الرمزية الباطنية أدّت كذلك على الأقل الى منع اليهود والمسيحيين من تحويل كل أساطيرهم الى واقع تاريخيّ حرفيّ.

بعد ألف عام، أي في القرن الرابع عشر الميلادي، بدأت هذه التفسيرات الرمزية الباطنية في فقدان سمعتها الطيبة، وقد حدث هذا الى حد بعيد بسبب صعوبة القدرة، في الجدل الدائر بالأسلوب المدرسي السكولاستي، حول نقطة محدّدة في العقيدة، صعوبة القدرة على اختيار التفسير الرمزي الباطني المناسب لنصّ، من بين مجموعة من التفسيرات الرمزية الباطنية المتنافسة حول نفس النصّ. ومع ذلك ظلّ المعنى الروحاني مهما، وظلّ يلوّن محاولات الاقتراب من تفسير النصوص المقدّسة، حتى بعد حركة الاصلاح في القرن السادس عشر، التي تحوّل معها الاختلاف الى واقع معاش، واشتدّت حدّة النزاعات.

لم يكن عصر الاصلاح بل بالأحرى عصر النهضة، هو صاحب التأثير المدمّر على النمو الخصب والانتشار لما يمكننا تسميته الأساطير الثانوية المساعدة، التي تعمل على انتشار بعض الموضوعات الثانوية، مثل موضوع حياة مريم، أو حيوات بعض القدّيسين، أو التاريخ الأسطوري لبعض البقايا المقدّسة[30] relics،
ليسوع المسيح ولصليبه وقد قام عصر النهضة بوضع الخط الفاصل للكنيسة البروتستانتية، فيما يتعلق بالكتاب المقدّس وحده، بين التقليد الرسولي[31] apostolic
من ناحية، وبين الأساطير التي لا يمكن الاعتماد عليها، سواء من بين أساطير العصر الكلاسيكي (اليوناني الروماني)، أو من بين أساطير العصر المسيحي من ناحية أخرى.

6- نصوص الكتاب المقدّس والتاريـخ

يَظْهَر الوضع الجديد بوضوح في القرن السابع عشر، بعدما سقطت مصداقية العديد من الأساطير الكتابية، التي كان يُنْطر اليها سابقا على أنها جزء من التاريخ غير القابل للتشكيك فيه. ففي بريطانيا كان هناك تاريخا أسطوريا شائعا، عن بروتوس[32] القادم من طروادة، الذي جاء بالبحر ليرسو بمركبه عند توتنس Totnus، وعن سلسلة طويلة من الملوك البريطانيين من بين ذريّته، بما فيهم سيمبلاين Cymbeline ولير Lear لم يعد لهم وجود في التاريخ، وقد لحق بهم بعد ذلك الملك أرثر Arthur وفرسانه وذهبوا خلفهم الى عالم الأشباح. كل هؤلاء كانوا يعتبرون من بين الحقائق التاريخية، ثم أصبحوا الآن من بين الأساطير.

كانت لدى الشاعر الانجليزي ميلتون[33] نيّة أن يكتب عن كل هؤلاء ملاحم بطوليّة، ثم كتب بدلا منها ملحمة أخرى عن قصة خلق البشر والسقوط في الخطيئة، عن آدم وحوّاء والحيّة، وعن الشيطان في صراعه مع المسيح. لقد كان ميلتون شاعرا جيدا الى درجة أنه، كان لا يمكن أن تغيب عنه القيمة الشعرية للكثير من هذه المادة القصصية، وقد عالجها بما للشاعر من قدرة ابتكاريّة، وحريّة تصرّف تخصّ الشعراء. وبالرغم من ذلك فقد اعتقد ميلتون طويلا في صدق مادته القصصية تلك، عن الملك أرثر والملكة جينفر، وعن الكأس المقدّس[34] the holy grail والمائدة المستديرة وفرسانها، ولكن بشكل مختلف.

كان أوشر Ussher رئيس أساقفة أرماج Armagh، أحد معاصري الشاعر ميلتون والأكبر منه سنّا، قد زوّد النسخة الرسمية للكتاب المقدّس، المخطوطة التي لا تزال موجودة في بريطانيا، بتواريخ يمكن أن ترى على هوامش النصوص. وذلك لأن الكتاب المقدّس كان - ولو لمدة قصيرة - معتبرا مصدرا للمعلومات التاريخية، موثوقا فيه ومتفوّقا على ما كل عداه من مصادر التاريخ، في كل أنواع الحقائق، ومُجازا من قبل كلٍ من كنيسة روما الكاثوليكية وكنائس الاصلاح البروتستانتية.

لكن الكتاب المقدّس ظلّ كذلك يعتبر أسطوريا، وذلك عندما كانت تصعب المصالحة بين اختلاف تفاصيل الأحداث نفسها في أجزائه المختلفة، ففي سفر صموئيل الأول، وفي أسفار البشارة في الأناجيل الأربعة، كان من الطبيعي أن تحدث اختلافات لا يمكن تجنّبها، مثل تنوّع الوجوه والمباني والألوان في تصوير المناظر[35].

هذا الوضع ما كان له أن يدوم طويلا، إذ وقعت الكتب المقدّسة في يد نقّاد التاريخ، وكان تطوّر علوم نقد التاريخ هو النتيجة الحتمية، التي أدّى اليها ذلك الاحساس بالانتشاء المزيّف والفخر بالكتابات المقدّسة، والاعتقاد الجازم بأنها الى جانب كونها كتابات مقدّسة، فهي كذلك كتابات واقعية وتاريخية. والأدهى هو أن الاهتمام بالتاريخ كان على حساب الاهتمام بالجوانب الأخلاقية والصوفية لنفس الكتابات. حدث هذا في الغرب، أما في الشرق، فلم يحدث شيء شبيه ولذلك تأخّر الصدام.

لم يحدث نقد لتاريخ الكتاب المقدّس، أو نقد للكتاب المقدّس كمصدر للمعلومات التاريخية، في الكنائس

الشرقية الا بداية من القرن الثامن عشر. كان اللاهوت الصوفي في أديرة جبل آتوس باليونان[36]، خلال القرن الثامن عشر، وهي الأديرة التي تقع في شرق أوروبا، أكثر حيويّة ونشاطا من كل الأديرة الأخرى الواقعة في غرب أوروبا، وذلك لأن أديرة آتوس، كانت المكان الذي تمّ فيه تجميع وتراكم أهم مجموعات علم اللاهوت الديري monastic theology، أي علم اللاهوت الخاص بالأديرة. وقد أدّى انتشار أساليب المدارس الغربية السكولاستية المدرسية، الى جلب أسئلة سكولاستية مدرسية الى أديرة شرق أوروبا. كان يمكن مقاومة هذا الاتجاه، بظهور الدعوات التي نادت بالرجوع الى التقليد القديم، الخاص بالتفسيرات الصوفية.

كان تهديد مبادىء العقيدة وأساساتها، أكثر قوة ومباشرة في العالم المسيحي البروتستانتي، وذلك لأن السيطرة على تلك الكنائس البروتستانتية الاصلاحية، كانت أصعب بكثير من السيطرة على الكنائس الخاضعة لسلطة الكنيسة الكاثوليكية في روما. خلال القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الدعوة البروتستانتية قد بدأت في الاهتمام بالنصوص الكتابية الخاصة بالمسائل التاريخية، أكثر من الاهتمام بغيرها من النصوص، عندها بدأ الناقد التاريخي في ازاحة الناقد السكولاستي الذي كان حتى ذلك الوقت الوسيط في المسائل العقائدية. وقد حدث هذا ليس فقط بين رجال الكنيسة البروتستانتية، ولكن أيضا بين رجال الكنيسة الكاثوليكية في روما، التي تأثرت وسائلها الدفاعية، بالنظرة الجديدة الناتجة عن الصراع الجدلي البروتستانتي.

7- الأساطير ووسائل التعبير عنها

الآن أصبح الجميع يعترفون بمسألة وجود أساطير في الكتاب المقدّس. ومن المحتمل أن كل أتباع كنيسة روما الكاثوليكية، بالاضافة الى أغلبية أتباع الكنيسة البروتستانتية، سيقبلون الفكرة التي تقول بأن طريقة عرض موضوع الخلق في الاصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، هي في قالب أسطوري، وذلك رغم أن البعض سيظل معلّقا أهمية كبيرة، على فكرة انتساب الجنس البشري كله، الى زوجين من الأسلاف. كما أن أغلب المسيحيين سيكونون مستعدّين للاعتراف بأن قصة إغواء حوّاء، هي أقرب الى الأسطورة المتأثّرة بمواد أسطورية أخرى أقدم زمنيا. إن الاعتقاد بأن الانسان هو كائن ساقط لا محالة في الخطيئة، لا يعتمد بأي حال من الأحوال، على حقيقة وقائع قصة إغواء حوّاء. قد تصرّ القلّة على التمسّك بالحقيقة الحرفيّة لأية فقرة من الفقرات، الواردة في سفر رؤيا القديس يوحنا[37]، رغم أن مسيحيي كل العصور المسيحية التاريخية، كانوا قد أدركوا أن قيمة هذا الكتاب هي فقط قيمة رمزية، وقد يسمح الجميع بالاقرار بأن أي وصف للنزول الى الجحيم، سيكون بالضرورة وصفا أسطوريا.

ولو أزلنا كل الأساطير من الكتاب المقدس، لأصبح كتابا فقيرا في محتوى نصوصه، بل سيحدث في مواضع عدّة أن تؤدّي هذه الازالة، الى القضاء التام على معاني الفقرات التاريخية، والتي نفهم أنها ليست تاريخية بالمعنى المتعارف عليه بيننا الآن، وإنّما هذه الفقرات هي جزء من الأسطورة، تعمل على دعمها وتكملة أجزائها.

أما اذا أبقينا على هذه الأساطير فإنه يجب علينا أن نترجمها، ثم نشرحها ونفسّرها لمن يقرأ حتى يفهمها، وذلك لأنه دون شرح وتفسير معاني الأساطير لن يتمكن أحد من فهمها. إن كتابي هذا الذي أؤلفه الآن، مع غيره من كتب علم مقارنة الأساطير، يمكن أن تساهم في تحقيق هذا الهدف.

لقد كتبت عن موضوعات الخلق والفيضان ونهاية التاريخ، كما يمكن رؤيتها خلال الكتاب المقدّس، وأيضا كتبت عن قصص السقوط في الخطيئة. بعد ذلك اتخذت طريقا غربيا عبر متاهة من الأساطير والخرافات، تربط بين قبر آدم وموت المسيح ثم بعثه الى الحياة من جديد. هناك حلقات في التاريخ العبري تعاملت معها كنيسة العصور الوسطى على أنها خرافات، مثل عبودية شعب اسرائيل في مصر، وعبور البحر الأحمر، والأزمات في حياة كل من داوود وسليمان، ولكن في الوقت الحالي من الصعب أن نضع تلك القصص في الاعتبار الا في ضوء النقد التاريخي، الذي يمكنه أن يميّز في تلك القصص، بين ما هو تاريخي، وما هو أسطوري. إنه تمرين ذو قيمة، وله أهمّية دينية لأولئك الذين يعتقدون في الأساس التاريخي للأسطورة المسيحية، حتى لو أن أهمية انشاء أصالة تاريخية لبعض التفاصيل غالبا ما تكون مبالغا فيها. لكن هذا الموضوع ليس مكانه هنا في كتاب عن الأساطير.

في المواضع التي تتشابك فيها الأسطورة مع التاريخ، فإن أي شخص يعالج النصوص في جانبها الأسطوري، سيكون عُرضَة لأن يُتَّهم باختزال الحقائق التاريخية في النصوص، لصالح الجانب الأسطوري، وهذا يحدث بالأخص في العهد الجديد، وخاصة في الأناجيل، أكثر من أي جزء آخر.

لهذا فقد أعطيتُ مساحة أكبر للأناجيل المشكوك في صحّتها، والتي تدخل ضمن الأسفار المسماة الأبوكريفا[38] apocryphal.
إن الأساطير ذاتها يمكن أن تكون مصدرا للتاريخ، مثلما هو الحال في اسرائيل، وفي الهند، وفي أفريقيا، وفي البحار الجنوبية، لكن على أولئك الذين يستعملون الأساطير كمصدر للتاريخ، أن يلاحظوا خواص الأساطير.

وهكذا فإن الأناجيل في المسيحية، تمثّل الأحداث والوقائع المتعلّقة بتاريخ تأسيس الكنائس المسيحية، وهي الأحداث التي يُحتفل بها سنويا، في الطقوس الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بروما، وفي الكنائس الأرثوذكسية، وقد يُحتفل بها أسبوعيا في بعض الكنائس. بالاضافة الى ذلك هناك الاحتفالات بالطقوس الالهية، مثل القداس الأسبوعي أو طقس سر التناول من قربان الجسد والدم المقدّسين المرتبط بالقدّاس.

إن الأجزاء التي تقرأ من الكتاب المقدّس في تلك المناسبات، هي الشهادة التي تقدّمها نصوص الأناجيل، على أن يسوع المسيح شاركنا ذات يوم في حياتنا البشرية، ثم أخذ هذه الشركة معه الى عالم آخر، وهو ما يُروى على أنه قصة درامية، الجميع فيها ضالعون من خلال ممارسة فعل من أفعال الأسرار الكنسية السبعة، مثل سر التناول من القربان المقدّس، الذي يشارك به المؤمنون في موت المسيح، ثم في بعثه الى الحياة من جديد.

نفس هذه الاعتبارات يمكن أن تطبّق على حيوات العديد من القديسين، الذين نشاركهم في فعل استشهادهم، في مناسبات احياء ذكرى هذا الاستشهاد. وهكذا فإن أساطير الخلق تتعلّق ببداية لم تصل بعد الى النهاية الخاصة بها، فهي ما زالت تتحرك نحو نهاية ما. هذا هو كذلك موضوع الأساطير الأخرى، الموضوع المتعلق ببداية عالمنا ثم بنهاية عالمنا، وموضوع نهاية حيواتنا الشخصية كلنا على هذه الأرض.

الفصل الثاني

الخلق والطوفان والسقوط في الخطيئة

الكثير من أساطير البدايات الأولى في كل الحضارات يرتبط بالطقوس الموسمية، مثل تلك المتعلقة بالاحتفال ببداية عام جديد، أو المتعلقة بتحديد الأيام التي يصحّ فيها أو التي لا يصح فيها، القيام بالأشياء المعتاد القيام بها، مثل بداية الموسم الزراعي أو موسم الحصاد لأحد المحاصيل. نحن نعرف مثلا أن الأسطورة البابلية الخاصة بالخلق، تتلى كجزء من الاحتفال بمهرجان العام الجديد، حيث يتم الاحتفاء بخلق العالم، وبتأسيس المدنية والامبراطورية البابلية، بواسطة طقوس تخلّد ذكرى انتصار الرب مردوخ Marduk، على الكائن المسخ تيامات Tiamat، وإطلاق سراح مردوخ من سجنه داخل الزيجورات[39] Ziggurat، وهو جبل بابل المقدّس، وزواجه من الربّة عشتار Ishtar، في سرير عرس على قمّة الجبل. تتقرّر المصائر وتتحدّد، ويتم كذلك تثبيت تقويم زمني لبقية العام، وفقا لترتيب تمثيل كل الأرباب في موكب، أرباب المدن الخاضعة للامبراطورية، وأرباب المهن التي تمارس فيها، وأرباب قوى الطبيعة، بالصور التي تعبّر عن كل ربّ منهم.

إن السؤال موضع النقاش هو (الى أي مدى كان هذا النموذج متّبعا في سوريا ومصر وبلاد الرافدين؟). إن أولئك الذين كانوا يتمسّكون بفكرة وجود نموذج واحد، للأساطير والطقوس في كل الحضارات القديمة، هوجموا وانتقدوا بشدة لجهلهم بالفروق الموجودة مثلا بين حضارة شعب اسرائيل الكتابية من جهة، وبين حضارتي مصر القديمة وبلاد الرافدين من جهة أخرى، وهما الحضارتان اللتان كانت الاحتفالات الموسمية فيهما، ترتبط بالأحرى بالتجديد الدوري للقوى الملكية الحاكمة، حيث يتقمّص الملك شخصية أحد الأرباب.

كذلك هوجموا لعدم اعطائهم التقدير الكافي للعناصر الغريبة المميّزة لديانة شعب اسرائيل. فرغم أنه ليست لدينا أية وسيلة للتأكد من أن أساطير خلق الأرض والسموات والبشر والكائنات، الموجودة في الاصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، كانت قد تليت ولو مرة واحدة، في الاحتفالات بالعام العبري الجديد، في معبد الملك سليمان بأورشليم. لكن واحدة على الأقل من تلك الأساطير كانت تتلى عشية عيد الفصح اليهودي[40]، وهو أقدم الأعياد اليهودية الشرقية، والذي سيصبح كذلك فيما بعد عند انتشار المسيحية، أقدم أعياد الكنيسة المسيحية الشرقية، وكلا العيدين يرتبط بالصوم الكبير في الديانتين اليهودية والمسيحية. أثناء الصوم الكبير، كانت قصة فيضان سيدنا نوح، والبداية الجديدة للعالم، بعد كارثة الفيضان تلك الضخمة، تقرأ بترتيبها التتابعي التي وردت به في اصحاحات سفر التكوين في التوراة. وكان من المعتاد كذلك في آخر أيّام الصوم الكبير، أن تعاد قراءة القصة بأكملها، ليلة الاحتفال بعيد الفصح.

إن قصة إعادة خلق العالم للمرة الثانية بعد الفيضان، التي تأتي في الاصحاح الثاني من سفر التكوين،

في شكلها الحالي، تبدو أقدم زمنيا من قصة خلق العالم للمرة الأولى، التي تأتي في الاصحاح الأول من سفر التكوين. من الجائز جدا أن هاتين القصتين لم تكونا أبدا ضمن النصوص اليهودية الأصلية، وأن تلاوتهما لم تكن أبدا ضمن الطقوس اليهودية التقليدية، وذلك لأنهما تحتويان على مادة قصصية، تنتمي بالأحرى الى نوع من الأساطير، ترتبط بشعوب زراعية، شعوب أقدم زمنيا بكثير من الشعب اليهودي، شعوب كانت تقدّس خصوبة التربة الزراعية، وترتبط بشكل وثيق بالطقوس التي تتوجّه الى أرباب الأرض والسماء، بتضرّعات تتعلق بإسقاط المطر وبإنماء الزرع، في حين أن البيئة الصحراوية للشعب اليهودي، كانت بيئة جرداء لا نبات فيها ولا ماء، باستثناء الأمطار الموسمية في السهول الساحلية.

1- قصة خلق العالم للمرّة الثانية

إن قصة خلق العالم التي نجدها في الاصحاح الثاني من سفر التكوين، في الأعداد من رقم 4 الى رقم 25، تبدأ بالعبارة التالية (في اليوم الذي صنع فيه الرب السموات والأرض)، ولا يقدّم لنا النصّ أي وصف لعملية صنع السموات والأرض، وإنما يزيد المسألة غموضا بدمج القصتين معا، قصة خلق السموات، مع قصة خلق الأرض. كانت الأرض جافة وجامدة ودون ورقة عشب واحدة، ثم من تحت الأرض جاء ضباب الى أعلى الأرض، ثم تحول الى ماء، ثم أصبح كل شيء طريّا رطبا. حدث كل ذلك قبل أن يصنع الرب الانسان، وهو أول شيء حيّ يخلقه الرب من تراب الأرض المتحوّل الى طين لزج غروي طفلي صلصالي. ثم شكّل الرب الانسان، ثم نفخ في فتحتي منخار هذا الانسان أنفاس الحياة. لاحقا حدث في المسيحية بعض التحوير في هذه القصة، ففي واحدة من صلوات سر القربان المقدّس، المعروف في اليونانية باسم الافخارستيا، تقال هذه العبارات (الخبز والنبيذ هما جسد ودم يسوع المسيح، اللذان يقدّمان قربانا الى الرب)، وذلك حسب التقليد المقدّس المتبّع في الكنيسة حتى الآن، والذي بدأه يسوع المسيح في العشاء الأخير ليلة خميس العهد. وليس هناك أي ذكر كما ترون للتراب والطين والصلصال.

لدينا كتاب من القرن السابع الميلادي، عُثِر عليه في دير ريشنو Reichenau، هو في الغالب نص لصلوات الشكر التي تتلى أثناء خدمة القدّاس، يقول (في فوضى البدايات المضطربة والظلام الأبدي، الذي كانت كل الأشياء تطفو فوق مياهه، صنعت يداك أشكالا رائعة من عناصر مدهشة، ارتبك لها العالم الذي كان لا يزال صغير السن، وتعجّبت لها الأرض الخام، ففي وجود الشمس والقمر، وكل هذا الفضاء الفارغ الشاسع، كيف يمكن أن يظل كل هذا بلا مخلوقات تسكنه، لذلك أخذت يداك الطين اللزج الغروي الطفلي، وصنعت منه أشكالا، ثم نفختَ فيها من روحك المقدّسة، فدبّت في أجسامها الحركة) (إن دواخل هذه الخليقة أيها الرب ليس لنا أن نختبرها، فأنت فقط من يعرف صنعة يديك، وكيف تتحرك الأعضاء البشرية، وكيف يندفع الدم في الأوردة، وكيف تبدأ الأعصاب في العمل، وكيف نمت العظام وتقوّت. أنت وحدك من يعرف لماذا كان لنا أن نأخذ منك كل هذه العطايا، ونحن تعساء حقراء بهذا الشكل الذي نحن عليه. لقد صنعتنا على مثالك، ومن كتل الطين تحوّلنا الى كائنات بشرية، ولكننا ننسى استحقاقات بركتك، ولذلك استحققنا الموت، واستحققنا أن نعود من جديد الى باطن الأرض التي خلقتنا من طينها، وهكذا نحن نبكي بعد أن أفقدتنا الخطايا راحتنا الأبدية).

وفي كتاب صلوات من اسبانيا يعود الى زمن لاحق نجد (لقد صنعت الانسان بكرم وسخاء، فيداك المجيدتان تحوّلان الطين الى بشر، وتعطي لكل وجه بشري شكلا متميّزا مختلفا، ثم تعطي لكل جسم أطرافه الأربعة، ومن أنفاسك المقدّسة تنفخ الروح في الأجسام، فتدبّ فيها الحياة، وتعطي العقل الذي هو قبس من حكمتك. وفي نفس تلك التربة الطينية الناعمة، التي صنع منها البشر، زرع الرب حديقة من أشجار الفاكهة، وأجلس فيها الانسان الأول، ليكون مسؤولا عن الزرع والسقي).

في مثل هذه النسخ من القصص المبكرة يأتي أولا خلق الانسان، ثم تأتي الحيوانات والطيور الى الوجود في مرحلة لاحقة. نص آخر يقول (كل تلك الكائنات الأخرى من نباتات وحيوانات وطيور، جيء بها لاحقا الى الانسان واحدا واحدا، ليعطي لكل من هذه الكائنات اسما يناديه به، ولكن دائما ما

تكفّل الرب بالانبات والاثمار والانجاب، ولم يكن على أي من تلك الكائنات أن يبحث لنفسه عن ذرّية بل كانت ذرّيته تأتيه وحدها دون عناء).

ونص آخر يقول (ثم وجد الرب أن الانسان يشعر بالوحدة، فقرر أن يصنع له مساعدا في مهامه، وشريكا في حياته، وأن يكون هذا المساعد الشريك من لحم الانسان وعظمه، فأخذ ضلعا من صدره وهو نائم).

هذه الفكرة كانت جديدة في حينها، أن يأخذ الرب جزءا من جسم خليقته المذكّرة، ليصنع منه النسخة الأولى من خليقته المؤنّثة. ما كان سائدا في حضارات سابقة على التاريخ اليهودي، هو أن يكون نس هرمافروديت [41] hermaphrodite، يهب الحياة لأول ذكر ولأول أنثى من إفرازاته هو. ولم تكن هناك في أية حضارة سابقةعلى الديانة اليهودية، فكرة أن يخلق أحد الأرباب كائنا جديدا من لا شيء، وبالتالي كان على الرب أن يصنع آدم من الطين.

كذلك كانت فكرة سيادة الانسان على كل ما عداه من كائنات، من وحوش الحقل الى طيور السماء، هي فكرة قديمة في تاريخ تطوّر الفكر البشري، في بحثه الدائم عن إجابات على أسئلته المتعلقة بكل ما هو غامض في هذا الكون، في عصور لم يكن فيها للانجازات العلمية أي وجود. كما أن فكرة أن يطلق الانسان الأسماء على غيره من الكائنات، هي كذلك فكرة سبق أن توصلت اليها حضارات أكثر قدما، وتعني أن يأخذ الانسان هذه الكائنات الى عالمه هو.

2- الطوفان وسفينة سيدنا نوح

لأول وهلة قد تبدو قصة سفينة سيّدنا نوح مختلفة عن السياق العام لنصوص سفر التكوين الأقدم زمنيا، لكنها في الحقيقة قريبة الشبه من قصة خلق الانسان، لأنها قصة رمزية عن كارثة ضخمة، تؤدّي الى نهاية عصر كان قد عمّ فيه الفساد، يأتي بعده عصر جديد، مع بداية جديدة معقود عليها الأمل. إن العالم بكل كائناته الحيّة، كان مقدّرا له أن ينتهي تماما بالتدمير الكلّي، وهو ما يمكن أن يحدث لعالمنا الحالي في أي وقت، منذ ظهرت تكنولوجيا التفجيرات النووية، لكن سيدنا نوح كان أسعد حظا من انسان العصر الحالي، لأن الرب كان قد أنذره مقدّما، وقبل الكارثة بمدة كافية جدا، حتى يتمكن من بناء سفينته الضخمة، التي وسعته هو وزوجته وأبناءه وزوجاتهم وعائلات زوجاتهم. نحن لم نعرف أبدا العدد الكلي للبشر الذين كانوا على سطح تلك السفينة، ولم نعرف أبدا العدد الكلي للكائنات الأخرى التي كانت على سطح نفس السفينة، ولكن كان هناك على الأقل الذكر والأنثى من نفس النوع، حتى يتمكنا لاحقا من التكاثر، بدلا من أن يكون نوعهم في نهاية الطوفان مهدّدا بالاندثار.

كان مقدّرا للمئات من الكائنات الحية من كل صنف ونوع، مثل الطيور بكل أصنافها، والحشرات التي تعدّ أصنافها حاليا بالآلاف، والزواحف والحيّات والسحالي والعقارب، ناهيك عن حيوانات لم يكن من السهل أبدا أن تبقى في هدوء وسلام مع الانسان، أو على الأقل حتى مع بعضها بعضا، كان مقدّرا لكل هؤلاء، أن تكتب لهم النجاة من الطوفان، بدخولهم الى السفينة التي صنعها سيدنا نوح نفسه لهذا الغرض، وحمّل بداخلها التموين الكافي، من كميّات الطعام والشراب لزوم استهلاك هذه المئات من الكائنات، لمدة من الزمن غير محدّدة على الاطلاق. مع ملاحظة أن سيّدنا نوح قد وضع كذلك على ظهر سفينته تلك كل أشياء ومقتنيات شعب اسرائيل المقدّسة، ومنها مثلا كما سنعرف لاحقا في أحد فصول هذا الكتاب، جثمان سيّدنا آدم أبو البشرية.

من الأمثلة الدالة على الاستمرارية في الديانة اليهودية، أن الكلمات المستعملة في النص التوراتي في وصف سفينة سيدنا نوح، هي نفس الكلمات التي تستعملها التوراة لاحقا، بعد فترة زمنية لا تقل بأي حال من الأحوال عن ألف عام أو ألفين، في وصف السلّة التي وضع فيها الطفل الرضيع نبي الله سيدنا موسى، لانقاذه من فرعون مصر، الذي أراد قتل أبكار الشعب اليهودي، فتطفو به السلّة فوق مياه النيل، قبل أن تقوم ابنة نفس الفرعون بإنقاذه من الغرق في مياه النيل.

ثم هناك مثل آخر ففي معبد الملك سليمان في أورشليم، كانت توجد بحيرة مياه برونزية، أقيمت حولها تماثيل معدنية لإثني عشر ثورا، يقف كل منها فوق منصّة، وكل تلك الثيران تنظر الى الخارج، من المحتمل جدا أنها تمثّل نماذج المخلوقات، التي قامت بحمل المنصّة الطائرة، التي وصفتها رؤيا النبي حزقيال قائلة إنها من البللور وتشبه قبّة السماء، في الاصحاح الثاني من سفر النبي حزقيال وفي العدد 22 منه. ليس من الصعب تخيّل منصة ذات سطح جاف، ترمز الى سطح الأرض، يمكن لمياه تلك البحيرة البرونزية أن تغمرها بالمياه، كما كان يحدث أحيانا في بحيرة معبد الملك سليمان. هل كان ذلك احتفالا بذكرى الخلق الثاني للأرض بعد طوفان سيّدنا نوح؟

في الحقيقة فإن طقوسا كثيرة في حضارات قديمة ارتبطت بالمياه. ولكن هل كانت هناك طقوس دينية قديمة متصلة بصلوات الاستسقاء، في محاولة لإسقاط المطر بعد طول فترات الجفاف؟ طقوس يقوم فيها رجل بشري بلعب دور الرب جالسا على عرشه، يتوسّل اليه الآخرون؟ هل كان هناك طقس أثناء ارتفاع مياه البحر في الأجواء العاصفة، يتمّ فيه تحميل كائنات حيّة من حيوانات وبشر على ظهر سفينة، أو يجوز أنها كانت نماذج تماثيل لأشكال آدمية وحيوانية، احتفالا بفناء البشر الفاسدين الضالين بالطوفان، وباعادة خلق العالم بشكل أفضل؟ هل كان الاحتفال في تلك الحالة هو بسيادة الانسان على الطبيعة وعلى كل الكائنات؟

هناك هذا النص بعد قصة الطوفان (إن الخوف والخشية منك سيظلان في قلب كل وحش من وحوش البراري، وفي قلب كل طير من طيور السماء، وفي قلب كل سمكة من أسماك البحار، وفي قلب كل ما يزحف ويدبّ على الأرض، كل الكائنات سُلِّمَت اليك في يديك).

ثم نص آخر يقول (كل تلك الأشياء الحيّة من نبات وحيوان، ستكون غذاءً للانسان، ولكن لا يجوز له أن يأكل الدم مع اللحم، فالدم وهو مادة الحياة، يجب أن يُراق على الأرض، حتى يصبح أكل اللحم حلالا، وهذا هو العهد بين الرب والانسان).

لن يحدث أبدا بعد ذلك أن يقضي الطوفان على الجنس البشري، ولن تتوقف الأرض عن تلقّي البذور وتقديم الحصاد، بين مواسم الصيف الساخن والشتاء البارد، لقد أعطى الرب علامة عهده مع شعب اسرائيل، في بريق الشمس بألوان الطيف السبعة بعد المطر، في التزامه بتقديم الأجواء المناسبة لنمو وحصاد كل محصول حقلي، وفي التزامه بتقديم أمطار فصل الخريف في نهاية كل فصل صيف طويل جاف. إن انتخاب الانسان كخليقة الرب المفضّلة، والمميّزة عن غيرها من المخلوقات، هي حسب الأعراف الاسرائيلية الخطوة التي ستمهّد لاحقا، لانتخاب شعب اسرائيل وحده بين كل شعوب الأرض، شعبا مختارا للرب، ومميّزا من بين كل شعوب الأرض.

3- قصّة خلق العالم للمرّة الأولى

لإن قصة خلق العالم والكائنات الحيّة، في الاصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، وهو أول أسفار التوراة، هي قصة مكتوبة بأسلوب منمّق ومعتنى به، ومزوّدة بالكثير من التفاصيل، فمن المحتمل جدا أنها كانت قد وُضِعَت في شكلها النهائي الحالي، أثناء وجود الشعب اليهودي في منفاه في بابل، أو بعد عودة الشعب اليهودي من منفاه في بابل، المتعارف على تسميته بالسبي البابلي[42]، في وقت غير محدّد بدقة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد. لقد استمرت تلك الاقامة القسرية في بابل ما يقرب من الثلاثة قرون.

ورغم تأثر الأدب العبري بالكثير من الأساطير البابلية (43)، التي تتحدّث عن عشرات الآلهة والأرباب، الذين يقوم كل منهم ومنهنّ بمهمة محددة في مجمّع الآلهة البابلي Pantheon، الا أن اليهود الذين وضعوا النص النهائي لهذين الاصحاحين الأولين من سفر التكوين، أصرّوا على أن ربّهم الأوحد قام وحده بخلق الكون بكل ما فيه من كائنات. صحيح أنه قد ظلّت في الممارسات الطقسية، الكثير من البقايا والزوائد التي تعود الى فترات وثنية سابقة، وظلّ أغلبها يمارس حتى بعد أن تمّ تجديد معبد الملك سليمان[43].

في أورشليم، بعد العودة من السبي البابلي، وظل بعضها يمارس حتى القرون الأولى من الميلاد.

في عدد 6 من الاصحاح الأول أو في الآية رقم 6 (ثم أمر الله: «ليكن جَلَد يحجز بين مياه ومياه») وفي الآية رقم 7 (فخلق الله الجلد، وفرق بين المياه التي تحملها السحب، والمياه التي تغمر الأرض). وفي الآية رقم 9 (ثم أمر الله: «لتتجمّع المياه التي تحت السماء الى موضع واحد، ولتظهر اليابسة»).

إن ترتيب الآيات بهذه الطريقة، يعمل على تأكيد اعتماد كل شيء على إرادة الله وحدها، لقد حرّك المياه عندما لم يكن لهذه المياه شكلا محددا. ثم إن الترتيب مهم لأنه يشير الى التقدّم من حالة فوضى تامة، بلا أشكال محددة، الى حالة منظمة من أشكال الانقسامات الثنائية، مثل الضوء والظلام، البر والبحر، السماء والأرض، الشمس والقمر، نباتات العشب والأشجار، الأسماك والزواحف، الطيور والحيوانات، وفي النهاية الرجل والمرأة. هذه هي عملية منظمة للنمو والتطور.

رغم أن ترتيب وقوع الأحداث بهذا الشكل، يختلف عن الترتيب الذي يدلنا عليه حاليا العلم الحديث، علم نشوء وارتقاء الكائنات الحيّة.

في أواخر القرن الرابع الميلادي، في مدينة أنطاكية السورية، الواقعة قريبا من الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط، التي كانت تتبع في ذلك الوقت السلطة السياسية والدينية في بيزنطة، عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية، قام المجمع الرسولي للمدينة بوضع مواد دستور المدينة، وهي مستوحاة من مواد عملية خلق العالم، كما جاءت في اصحاحات سفر التكوين في التوراة اليهودية، وكذلك كما جاءت في نص طقس صلاة الشكر على القرابين المقدّسة، وهذا الدستور

يحتوي بالتالي على مواد، كانت بعض نصوصها هكذا:

(كيف يمكن لأي انسان أن يصف البحر؟ فالمدّ يأتي غاضبا من الأعماق، ولكن انحسار المدّ يبدأ عند الرمال بأمر من الرب، فتتكسر الأمواج، ويمتلىء باطن المياه بالأسماك الصغيرة والكبيرة، وتطفو على سطحها السفن في رحلاتها).

وكذلك (بكلمتك نمت نباتات الأرض وترعرعت خضراء مرحة نشيطة، بكل أنواع الزهور والأشجار).

وكذلك (النجوم التي يديرها الرب في مساراتها، ولم تنحرف أبدا عن طرقها المحدّدة لها، ولكن فقط بأمرك أنت فهي تشرق وتغرب، وتظهر وتختفي، لتصبح علامات يستدل بها الانسان على تتابع الفصول والأعوام).

وكذلك (ببعد نظرك وحكمتك، أعطيت التموين اليومي اللازم لمأكل ومشرب وملبس كل أنواع الحيوانات).

ثم (وفي نهاية عملية الخلق، قادتك حكمتك الى صنع الانسان، الحيوان الأعقل، مواطن العالم، قائلا «فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا»، كعالَم صغير هو وحده، داخل عالم أكبر، صنعت جسده من العناصر الأربعة الأولى، وصانعا مسبّقا روحه من روحك، واهبا إيّاه حواسه الخمسة، وكذلك مانحا إيّاه الذكاء الذي يسمح له بأن يكون ربّان السفينة، القادر على توجيه دفّتها).

في القرن الأول الميلادي عاش الفيلسوف فيلون، وهو يهودي سكندري جمع بين الثقافة اليهودية الرابانية Rabanic (ثقافة قدامى حاخامات اليهود) التقليدية، وبين الفلسفة الافلاطونية اليونانية الحديثة، وقد ميّز بوضوح بين الانسان السماوي المخلوق في البداية على صورة الله، مثل آدم وحواء وأولادهم، والأنبياء وذريتهم حتى سيّدنا نوح، وبين الانسان الأرضي المخلوق من الطين، على شاكلة كل البشر المخلوقين بعد الطوفان.

إن الرجل السماوي هو مجرد فكرة سماوية بالمعنى الافلاطوني، لكنه هو النوع الحقيقي، هو النموذج الأصلي، وطبيعته النقيّة غير قابلة للافساد. أما الانسان الفاني، فهو ذلك المصنوع من طين، القابل بسهولة للافساد، رغم وجود النفس الالهي داخله. كان أبونا آدم متفوّقا على كل من تبعه من سلالته، فيما يتعلق بالحالة الجسمانية، مثل طول قامته، وقوة أطرافه وعضلات جسمه، وجمال وجهه، بالاضافة الى كونه خاليا من الأمراض والآلام والأحزان. أما فيما يتعلق بقدرات الادراك الحسّي والذهني، فلا شك أنها هي الأخرى كانت غير عادية، ومتفوّقة بمراحل على مثيلاتها لدى الانسان الحالي الفاني. ولو لم يكن آدم قد عرف الخطيئة عبر عصيان أمر الله، لكان مقدّرا له أن يعيش طويلا جدا، يجوز حتى أنه كان مقدّرا له الخلود. كان فيلون يعتقد أن الخلود لم يكن فقط من نصيب الروح، بل كذلك من نصيب الجسد. السؤال هو كيف أن افلاطونيا مثله كان يعتقد أن خلود الجسد هو شيء مرغوب فيه؟

4- الانسان في المبتدأ

النص الذي جاء في سفر حزقيال النبي، في الاصحاح 28 الآيات من 13 الى 15، يبدو كما لو كان قد جاء هنا للإشارة الى الانسان السماوي. هذا النص هو جزء من نبوءة ضد ملك مدينة صور. النص يقول (كنتَ في جنة الله عدن، حجابك من كل حجر كريم،...... وأقمتك على جبل الله المقدّس، وتمشّيت بين حجارة النار، كنت كاملا في طرقك منذ يوم خلقت الى أن وُجِدَ فيك إثمٌ).

هذا الجزء من التوراة كان قد كتب قرونا قبل نصوص فيلون. لكن هناك سفر آخر من أسفار التوراة الأبوكريفا (غير المعترف بها)، واسمه (كتاب أسرار أخنوخ)، ويُعتقد حاليا أنه من إنتاج اليهودية السكندرية، في فترة ما قبيل ظهور المسيحية، أي ربّما في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد. لم يصلنا من هذا الكتاب الا نسخة واحدة فقط، في لغة سلافية من شرق أوروبا. هذه النسخة تقول (صُنِعَ الانسان من سبعة عناصر، فلحم جسده من تراب الأرض، ودمه من ندى الصباح الباكر، وعيناه من ضوء الشمس المتوهّج، وعظامه من الأحجار الجبلية، وشعره من عشب الأرض، وعقله من الملائكة والسحب، وروحه من الريح ومن روح الله).

ثم في فقرة أخرى (كانت لديه قوة التحمّل، وكانت لديه حلاوة الأفكار، وكان بمثابة ملاك من بين الملائكة، وكان وحده حاكما لكل الأرض، وأعطاه الله الارادة الحرة، وأراه كلا من طريقي الخير والشر، الضوء والظلام).

وقع هذا الانسان في الخطيئة بسبب جهله بامكانيات الشرّ الموجودة في الكون، ثم قيل إن سبب وقوع الانسان في الخطيئة هي المرأة التي خلقاها الله له، وزوّجه إيّاها فأغوته ليطاوعها بعد أن خدعها الشيطان، وقد حدّد الله عقاب الموت لهذه الخطيئة، وليس من المفروض أن تتضمّن النصوص المقدّسة ما يفهم منه أن الله يلعن الانسان، لأن الانسان مخلوق على صورة الله، ولكن الله يلعن الشر الذي أغوى الانسان، ويلعن الخطيئة التي نتجت عن غواية الشر، ويلعن تبعات هذه الخطيئة.

عبر الاصحاحات الأولى لسفر التكوين هناك بعض الحقائق التي ينبغي ألا يفوتنا التوقّف عندها.

الأولى هي أن الانسان عند خلقه كان بلا نقيصة، مقدّرا له الخلود مثل خالقه.

الثانية هي أنه كان خاضعا بشكل تام وتلقائي للسيطرة الالهية، في مكان سماوي هو جنّة عدن، حتى لو أن هذه الجنة لم تكن في السماء وإنما كانت على الأرض.

الثالثة هي أن الانسان كان سهل الانقياد، حوّاء للشيطان، ثم آدم لحوّاء، وهو ما جعل الانسان عرضة للتلف والانحطاط والتفسّخ، ثم الى الاثم والخطيئة.

الرابعة هي أن الله قد وضع أمام الانسان كلا من الخير والشر، ووضع فيه القدرة على أن يختار بينهما.

حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر الميلادي، كان هناك جدل لاهوتي كبير حول مسألة (قدرة الانسان على الاختيار بين الخير والشر)، كانت تغلب على الانسان السذاجة عندما يضع في موضع

التساؤل مسائل تبدو نتائج الاختيار فيها متشابهة أو عديمة الأهمية من نوع أن يتساءل الانسان (هل أبدأ هذا الصباح بحرث الجزء الشرقي من حقلي أم بحرث الجزء الغربي منه؟)، أو (الى أية جهة نذهب للنزهة على الأقدام، الى شمال المدينة أم الى جنوبها؟). توصّل البعض الى فكرة أن الحرية التي كان الانسان ينعم بها في جنة عدن، فقدها الى الأبد ولن تكون له أبدا بعد ذلك. ولكن ظهرت فكرة أخرى تقول (إن سقوط الانسان في الخطيئة كان بإرادة الله، الذي من المؤكد أنه يسيطر تماما على إرادة الشيطان، والا لتخلص منه).

5- سقوط آدم وحوّاء في الخطيئة

السؤال الذي تطرحه التوراة في أسفارها هو (هل هناك حقا حرية اختيار؟)، الاجابة هي (لا). السؤال بشكل آخر هو (هل كل شيء في هذا العالم وفي هذه الحياة محدّد سلفا وبالتالي هو حتمي الوقوع؟)، الاجابة هي (نعم).

مثلا ليس هناك في الاصحاح الثالث من سفر التكوين بكتاب التوراة ما يؤكد وجود حرية الاختيار. التوراة تؤكد لنا أن كل شيء في هذا العالم وفي هذه الحياة محدّد سلفا وبالتالي تؤكد لنا حتمية وقوع الأشياء تماما كما أراد لها الله أن تقع. ولكن هناك براهين وحججا أخرى تساق في تفاصيل قصة خلق الانسان، تتعلق في الأساس بجنس المخلوق. ففي قصة من قصص خلق الانسان، يتم منذ البداية خلقه في شكل ذكر وأنثى، ثم تأتي نسخة أخرى من نفس القصة لتقول لنا إن الرب قد خلق آدم أولا، ثم خلق حوّاء من ضلع آدم، ثم أخذ من لحم آدم ليغلف به هذا الضلع.

هناك نسخ أخرى فيها تفاصيل مختلفة تروى عن جنة عدن، ففي بعض النسخ نجد أنه توجد بالجنة شجرتان، الأولى تسمى شجرة الحياة، والثانية تسمى شجرة معرفة الخير من الشر. وما الخطأ في أن يعرف الانسان الخير من الشر، أليس هذا أفضل له من الوقوع في الشر لأنه لم يعرفه، ولأنه لم يحتط له. من بين هاتين الشجرتين تقول القصة (إن الله أشار على آدم وحوّاء بأن شجرة معرفة الخير من الشر هي شجرة محرّمة، كما لو كانت شجرة سامة، وقال لهما «لأنه في اليوم الذي تأكلان فيه منها موتا تموتان»)[44].

في بعض النسخ قيل هذا التحريم الى آدم قبل أن تخلق حوّاء، لكنها أصبحت على علم به لاحقا من آدم، لكن دون أن يعرف آدم كيف يشرح لحواء السبب في التحريم. إذن كان التهديد بالموت مشروطا بالأكل من الشجرة، ولكنهما لم يتمكنا كلاهما من معرفة السبب إذ لم يجرؤا على سؤال الله (لماذا الأكل من هذه الشجرة يتسبب في موت الآكلين؟). لم تكن حواء تعرف أن الأكل من هذه الشجرة يسمح لمن يأكل بالقدرة على معرفة الخير من الشر، حتى أبلغتها الحيّة بذلك.

هل كانت هذه الحية هي الشيطان نفسه؟ على أية حال هي كائن حاول أن يتمرّد على إرادة الله.

قالت لحواء (لقد منعها الله لأنه يعرف أنه عندما تأكلين منها ستتفتّح عيناك، وستكونين مثل الله قادرة على معرفة الخير من الشر). وحيث إن للثعبان طبع فاسد، فنحن عندما نقرأ هذا النص نعرف أنه لا يقول الحقيقة. صحيح أن الفاكهة المحرّمة ستنقل الى الكائنين البشريين بعض الحقيقة، ولكنها فقط لا غير تلك الحقيقة المتعلقة بعريهما التام، والحرج البالغ بسبب ظهور أعضائهما التناسلية، وبالتالي محاولة إخفاء عورتيهما، ولو بأوراق شجرة التين (وفي نسخة أخرى شجرة التوت). هل معنى هذه القصة أن الجنس هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، التي لم يكن يعرفها آدم وحوّاء، ثم عرفاها بعد أكلهما من ثمار الشجرة المحرّمة؟

تقول القصة إنهما عندما سمعا صوت الرب وهو يسير في الحديقة في نسيم النهار، اختبآ خلف الأشجار، كأنه من الممكن الاختباء من عين الله، ولكنه دعاهما اليه، وعرف منهما السبب الذي أدّى

بهما الى محاولة اختبائهما منه، وإذا بآدم يلوم حوّاء على فعلتها، وإذا بحوّاء تلوم الحيّة. في العقاب الآلهي، فقد الثعبان درجات من رتبته، إذ تحوّل من كائن ذكي يستطيع أن يتحدّث الى حوّاء بلغتها، الى حيوان يزحف على الأرض ليطأه الانسان بقدميه. أدينت حواء أيضا بالألم أثناء الانجاب، الألم الذي تزداد شدّته بسبب خضوعها لآدم. أما عقاب آدم فكان هو العمل الشاق في استصلاح الأرض العنيدة المستعصية، والصراع الدائم مع الظروف الطبيعية الصعبة على كوكب الأرض.

هذا هو ما يمكن اعتباره مأساة الحالة الانسانية، فآدم وحوّاء كانا مثل طفلين صغيرين بريئين، يحبوان على أرض جنة عدن بخطوات قصيرة متعثّرة، لكنهما سعيدان بعريهما، وغير شاعرَيْن بالحرج بسببه، حتى وقعا في الخطيئة الأولى، بالأكل من ثمار الشجرة المحرّمة، أو بإتيان أي فعل آخر قدّر الله أنه خطيئة أولى، ولكنها ليست خطيئة يعاقبهما عليها الله بالموت الفوري. عقاب الله الأوّل كان بالموت البطيء المؤجّل، وذلك بالتقدّم في السن، ثم الوصول الى الشيخوخة والعجز التام في كل وظائف الجسم، وذلك لأنه على ما يبدو كانت الخطّة الأصلية للانسان هي ألا يشيخ، وإنما يظل في شباب دائم. ثم كان عقاب الله الثاني هو أن يجدا نفسيهما خارج الجنة، وبدلا من الحصول على ثمار الأشجار مجّانا، أصبح عليهما الآن أن يعملا ليحصلا على هذه الثمار.

بالقرب من نهاية القرن الثاني الميلادي، أخذ بعض الكتاب المسيحيين، بعض عناصر هذه القصة، في قصص من تأليفهم، مثل ايرينايوس Irenaeos، الذي قارن في قصة له بين الأحضان والقبلات التي يتبادلها الأطفال الأبرياء، من الصبيان والبنات، وبين الأحضان والقبلات التي كان آدم وحواء يتبادلانها في الجنة، قبل وقوعهما في الخطيئة. ثم يضيف (إن إثم آدم وحواء يكمن في حقيقة كسرهما لقاعدة كانت موضوعة لهما بغرض تهذيبهما). ثم يتخيّل ما الذي كان يمكن أن يحدث لهما، لو لم يقعا في الخطيئة، واستأنفا نموّهما نحو الاكتمال، اقترابا من التشبّه بالله، الذي تقول النصوص إنه خلقهما على مثاله.

إن ايرينايوس وآخرين من الذين اتخذوا وجهات نظر مشابهة، اعتقدوا بلا أدنى شك في أنه في بداية التاريخ الانساني، حدثت تلك الأزمة بين الله وخليقته الأولى، وأدّت الى تكرار نفس المعصية بأشكال مختلفة بين الصبيان والبنات، معصية أوامر الله، وصولا الى العذراء مريم، التي كانت حسب التقليد المسيحي، أول انسان في التاريخ منذ آدم، لا يعصى الله في كبيرة أو صغيرة. مريم العذراء وفقا للايمان المسيحي هي حوّاء الثانية، فمريم ولدت مثلها بلا خطيئة، ولكنها أفضل منها لأنها ظلت بلا خطيئة، وهي كذلك وفقا للايمان المسيحي أفضل منها لأنه عن طريقها جاء يسوع المسيح، الذي يمكن تلقيبه في ظل هذه المقارنة بآدم الثاني، الذي تمكن الجنس البشري من خلاله، من الحصول على بداية جديدة طازجة، وعلى فرصة أخرى للخلاص.

لكن هناك كذلك طريقة مختلفة لقراءة هذه القصة، يمكن أن نرى فيها، كيف أن الخزي الذي شعر به آدم وحوّاء، بسبب عصيانهما لأوامر الله، هو في الحقيقة خزي جنسي. الحقيقة ببساطة هي أن كون الله قد خلق الانسان على مثاله، كما تقول التوراة، هذا يجعل من الانسان كائنا غير جنسي، أي لا يمكن التمييز فيه بين ذكر وأنثى، يمكنه أن يتكاثر أو يتوالد فقط بشكل الانقسام الثنائي binary fission، المعروف في كائنات الخلايا البسيطة، وذلك دون إثم، ودون وجود لأدنى قدر من

الخطيئة، المرتبطة عند الكائن البشري أساسا بالجنس. كان بامكان الله - لو أراد - أن يخلقنا قادرين على التكاثر بانقسام الخلايا، دون أن يخلق فينا الغرائز الجنسية، وغريزة حب البقاء التي تتمثّل في الرغبة في الحصول على الذريّة، وكل هذا يعني ببساطة ألا تكون لدى الكائن البشري أدنى رغبة للاتصال الجسدي بالجنس الآخر. كان هذا في إمكانه، لو أراد.

لقد تمسّك الكثيرون بوجهة النظر هذه، وكان من بينهم القدّيس جريجوري النيساوي، ومدينة نيسة كانت تقع في اقليم كابادوكيا في هضبة الأناضول، وكان جريجوري هو أحد آباء كنيستها، الذين كان لهم التأثير الكبير على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، منذ نهاية القرن الرابع الميلادي. من الأشياء العجيبة في حياة جريجوري الشخصية، هو أنه كان متزوّجا ورغم ذلك ألف كتابا في (مدح العزوبية من وجهة النظر الروحية). وكان من الممكن له كذلك نظرا لغزارة علمه، أن يؤلف كتابا يحمل عنوانا مضادا مثل (مدح الزوجية من وجهة النظر الروحية)، لو حكمنا على آرائه بدليل ما تبقى لدينا من مؤلفاته وعظاته، الا أنه لم يؤلف هذا الكتاب الثاني. كان اهتمام القدّيس جريجوري منصبّا في الأساس على تفسير مسألة ترد بنصّها في التوراة والانجيل، وهي مسألة (أن الله خلق الانسان على مثاله)، وبالتالي كان مهتمّا بالتأكيد على أن صورة الله كانت في المرأة بقدر ما كانت في الرجل، فالانسان هو امرأة ورجل.

من جهة أخرى كان القدّيس أوغسطينوس، معاصره الأصغر سنا، قد كتب قائلا (إن آدم وحوّاء في حالة البراءة الأولى، لم يكونا يشعران بأي إثم أو عار، ولم تضطرب حياتهما الا بعد أن اكتشفا عريهما، وغرائزهما الجنسية التي ارتبط اكتشافها باكتشاف العري).

اتخذ أوغسطينوس موقفا قاسيا من الاضطراب والتوتّر اللذين يصاحبان الأحاسيس الجنسية في حياة الانسان بعد سقوط آدم في الخطيئة. كان يرى في عواطفه القسرية الغريزية التي حاول أن يتتبع مصادرها في كتابه (الاعترافات)، الدليل على أن سقوط آدم في الخطيئة كان محتمّا ولا يمكن تجنّبه. كان أوغسطينوس هو أول من استعمل عبارة (الخطيئة الأولى). في نهاية حياته كانت بعض متاعبه ترتبط بإحساسه، أن العلاقة القوية التي كانت تربطه بأمه، ومشاعره الخاصة تجاه أمه، لم تكن طبيعية، وذلك هو ما أدّى به في كتاباته الأخيرة، الى القول بأن هناك تعبيرا جنسيا ما في كل شكل من أشكال العاطفة، حتى بين الأم وابنها، والأب وابنته.

كانت دراساته قد قادته الى أمثال هذا القول (إن الأطفال الرضّع يبكون لأن أمنياتهم قد أحبطت بسبب الغيرة من أخوتهم بالرضاعة، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، لذلك وصفوا بالبراءة، فعضلات أطرافهم ضعيفة لا تمكنهم من الاحتفاظ بثدي السيّدة المرضعة[45]، حتى لو كانت حاجتهم الى اللبن لم تشبع بعد).

وقد وجد كذلك أن ممارسة طقوس كنسية أو قبلية مختلفة على الطفل الضعيف، في السن الصغير قبل أن يصبح قادرا على الدفاع عن نفسه، هي من ضمن أسباب اعتباره طفلا بريئا، وأن البراءة في الحقيقة هي فقط ضعف الارادة، وعدم القدرة على الدفاع عن النفس، وضرب أمثلة على كلامه، بممارسة طقس المعمودية في الكنيسة، وممارسة طقس الختان في الجماعات اليهودية والقبلية

الأولى.

كما أن دراساته قد قادته أيضا الى مثل هذا القول (إذا كانت الأفعال الجنسية آثمة، فإن العمليات التي تنتج عن الاثم هي الأخرى آثمة، مثل الحمل والوضع والرضاعة، وتقول الكنيسة إن الزواج في إطارها، هو وحده فقط الذي يحوّل كل تلك الأفعال من كونها آثمة الى كونها أفعال يباركها الرب). يرى أوغسطينوس أن هذا الكلام يجعل الزواج شبيها بالممارسات المتعلقة بعملية طرد الأرواح الشريرة، فدون طقس الزواج في الكنيسة تظل روح هذه الممارسات الجنسية آثمة وشريرة.

يقول أوغسطين (وبالتالي يصبح الطفل الوليد ثمرة إثم ممارسة الجنس بين والديه، ولا ينقذه - كما تقول الكنيسة - من أن يكون ثمرة إثم ممارسة الجنس بين والديه، الا طقس المعمودية، الذي دونه يظل الأطفال ثمارا للغضب الالهي، حتى نهاية حيواتهم الأرضية، وحتى بعد مماتهم، وذلك هو نصيبهم ومصيرهم مهما حاولوا أن يكونوا صالحين خلال حيواتهم، وهذا هو - حسب رأي الكنيسة - السبب في حرمان الأطفال المسيحيين المحرومين من طقس المعمودية من دخول جنّة الله).

كان القدّيس أوغسطينوس يعتقد في نفسه، أنه بكتاباته هذه يفسّر ما جاء في نفس هذا المجال، ما سبق أن قاله القدّيس بولس في رسائله، التي كانت تتضح فيها فكرة الإثم القسري، وقد اعتمد أوغسطين على نصوص محدّدة، جاءت في فقرات من الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس، الاصحاح 15 العدد 22، وكذلك في فقرات من الرسالة الى أهل روما، الاصحاح 5 العدد 12. ففي الرسالة الأولى الأقدم والأكثر وضوحا، يبدو أحيانا أن النص يتناقض مع نفسه. تقول الرسالة (فإنه كما يموت الجميع في آدم، فكذلك سيحيى الجميع في المسيح). هل يوجد هنا تناقض بين الصورة السماوية المثالية الأولى للانسان، التي كانت له في السابق، وبين صورته الطبيعية الأرضية التي أصبحت له لاحقا؟ بولس يقلب الوضع ليقول إن الصورة الأرضية الزائلة هي التي تأتي أولا، لتلحق بها بعد ذلك الصورة الروحية غير الزائلة. كأنه يقول إن ذريّة الانسان الأول ويقصد ذرّية آدم، مخلوقة من أديم الأرض، أما ذريّة الانسان الثاني ويقصد بعد مجيء المسيح، فمخلوقة من مادة السموات الأثيرية.

هنا لنا كذلك أن نتساءل، عندما تتحدّث الكنيسة عن الخلق الثاني، فهل كان هذا الخلق الثاني بعد طوفان سيّدنا نوح؟ أم بعد مجيء المسيح؟ كثيرا ما تشبّه الكنيسة نفسها بسفينة نوح التي أنقذت البشرية من الدمار. هنا كذلك يقول بولس (كما حملنا في أجسادنا الانسان الترابي الذي هو آدم، فكذلك سنحمل في أجسادنا الانسان السماوي، الذي هو المسيح). يجب أن نلاحظ أن كلا من القديس بولس والفيلسوف السكندري فيلون كانا في القرن الأول الميلادي، وكانا قد تركا أرض اسرائيل، لذلك يمكن اعتبارهما من بين يهود الشتات، الدياسبورا، وحيث إنهما كانا كذلك من بين مفكري ذلك العصر وتلك الفئة، فقد انشغلا - كل منهما على طريقته - بمسألة ضرورة إعادة تفسير نصوص التوراة، نصوص العهد القديم، في عالم جديد هو عالم الحضارة الاغريقية الرومانية، عالم العهد الجديد. كان القديس ايرينايوس هو كذلك مهتما بهذه المسألة، الا أنه كان مسيحيا، متحوّلا الى المسيحية، ليس من اليهودية بل من الوثنية، ثم إنه كان قد عاش في عصر لاحق، ومع ذلك فقد كان هو الأقرب في تفسيراته الى القديس بولس. أما القديس أوغسطينوس فقد كان حالة خاصة جدا.

إن ذكريات القديس أوغسطينوس أو اعترافاته، التي يحكي لنا فيها عن طفولته وبراءة طفولته، وعن

حقيقة مشاعره تجاه كل ما أحاط به في حياته الأولى، مثلا عن كراهيته للغة اليونانية، وعن عمليات سرقة التفّاح التي قام بها، الى آخره، كانت أقرب الى الشكل الدال على إعادة خلق عالمه الخاص، إعادة خلق ذكريات طفولته في خياله، عن طريق ملاحظة الأطفال حوله، في الوقت الذي أصبح هو فيه رجلا ناضجا، في الوقت الذي اكتشف فيه أن مشاعره ثابتة تجاه والدته، لم تتغير عبر كل تلك السنوات. هو يرى أن الطفولة التي تطول أكثر من اللازم، هي السبب الرئيسي في اضطراب علاقتنا بالآخرين، بداية من علاقة الانسان بوالدته، التي تضطرب كثيرا عندما يحدث الصراع بين الانسان الراغب في النضج، وبين الوالدة المتملكة possessive، وصولا الى العلاقات مع كل الآخرين.

الفصل الثالث

قايين وهابيل

طبقا للأعراف السائدة، كان هذان الرجلان الشابان يمثّلان اتجاهين مختلفين في الاقتصاد المرتبط بالبيئة الزراعية، فقايين (قابيل حسب النص القرآني) يمثل فلاحة الأرض، وهابيل يمثل تربية الحيوانات، ولكن من الصعب في ذلك الوقت المبكر، اعتبار أن هذين الاتجاهين هما اختياران بين بدائل مختلفة، إذ لم يكن هناك في ذلك الوقت بدائل أخرى، الا في ممارسة نشاط صيد السمك في حالة السكن الى جوار ساحل البحر أو النهر. كان هذا الوضع مناسبا لاحتياجات الانسان في طعامه، ففي التاريخ المبكر للتجمّعات البشرية، لم يكن هناك الا هذا. ثم ظهر كذلك النشاط المرتبط بالحياة الرعوية، أي التنقّل بقطعان الماشية في البوادي، بحثا عن الماء والكلأ. ولذلك يبدو بوضوح أن القصة التي نعالجها هنا، هي من القصص التي دارت أحداثها في مجتمع حقلي، يجمع بين انتاج المحاصيل الزراعية وبين تربية الماشية. إن التناقض والتضاد بين هذين النشاطين الاقتصاديين، لا يظهر الا عند تقديم القرابين والأضاحي الى الآلهة، فيقوم الزارع بتقديم باكورة انتاجه من ثمار الأرض الزراعية، ويقوم مربي الماشية بتقديم دهون ولحوم الماشية المذبوحة أثناء إعدادها للأكل.

طبقا للأعراف السائدة، كان ينبغي على الرب الذي تقدّم اليه هذه القرابين والأضاحي، أن يبادر بإظهار علامات القبول، في أشكال رمزية، يستبشر بها الانسان البدائي، معتبرا إيّاها من الفأل الحسن. ما حدث حسب نص التوراة، هو أن النار السماوية المقدّسة، نزلت على كبد ومصارين حيوان قربان هابيل، دليلا على قبول الرب له، في حين أن الوجبة الزراعية من قربان قايين لم تلمسها نار القبول السماوي.

يقول النص التوراتي ما يسمح بافتراض أن السبب في عدم القبول، هو طباع الكراهية والغيرة التي كان قايين يكنّها لأخيه الأصغر هابيل، تلك المشاعر التي يعتقد علماء النفس في العصر الحديث، أنها تتولّد لدى الأخ الأكبر، عندما يأتي أخوه الأصغر وهو رضيع، ليستحوذ على اهتمام الأم التي كانت سابقا له وحده. قيل أيضا أن عدم قبول القربان كان تحذيرا من الرب الى قايين، ليدرك أن مشاعره السلبية تجاه أخيه، كامنة عند باب قلبه، ومستعدّة للظهور علانية في أول فرصة. لكنه رفض هذا التحذير الالهي، مفضلا أن ينساق وراء هوى قلبه، فذهب بذلك كما نعلم، الى نهاية الطريق التي تقود اليه الكراهية، مرتكبا أول حادث قتل في تاريخ البشرية.

عندما سُئِل قايين عن مكان أخيه هابيل، أجاب غاضبا (هل أنا حارس على أخي؟)، وهكذا كشف عن ذنبه وسيق الى خارج الأرض التي احتوت دمّ أخيه، ورفضت أن تستمر في طاعته، وهكذا تحوّل من فلاح يزرع الأرض، الى جوّال في البادية، يتنقل بين الأماكن. لم يظل قايين طويلا وحده، بل تروي القصة أنه استقر في مكان ما وأسس مدينة، وأنجب ذرّية، لا تحتوي فقط على فلاحين يزرعون الأرض، ورعاة أغنام وماشية، بل أيضا تحتوي على صنّاع حرفيين مهرة، وكذلك على موسيقيين.

هذه القصة هي النموذج الأول للعمل الشرير، وللخيال الشرير الذي يقود الانسان في حياته، رغم أن هذه الحياة لا تنتهي بالفشل وإنما بالنجاح. هذا النموذج يعود الى الظهور من جديد في سفر التكوين، الاصحاح 6 العدد 5، حيث نقرأ (ورأى الرب أن شرّ الانسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصوّر فكر قلبه، يتسّم دائما بالإثم، فملأ قلبه الأسف والحزن، لأنه خلق الانسان). وقد عادت أمثال هذه العبارات الى الظهور في مواقع عدّة من أسفار التوراة.

في القصص اليهودية القديمة، تعتبر قصة قتل قايين لهابيل، أكبر مصدر للشر في كل قصص هذا التراث الديني، أكبر حتى من قصة معصية آدم وحواء للرب عندما أكلا من شجرة معرفة الخير من الشر. فيما بعد سيرتبط هذا الخيال الشرير، في التراث الديني للشعب اليهودي، بحالات الزواج بين أبناء الرب من الملائكة الآثمة من الجن والشياطين، وبين بنات البشر.

1- الزواج بين أبناء الرب وبنات البشر

في بداية الاصحاح 6 من كتاب التكوين، وهو السفر الأول من أسفار التوراة، تأتي هذه العبارات (وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض، ووُلِدَت لهم بنات، أن انجذبت أنظار أبناء الرب الى بنات الناس، فرأوا أنهنّ جميلات، وقرروا أن يتخذوا لأنفسهم منهنّ زوجات، حسب ما طاب لهم). يبدو لنا أن هذا النص لم يُفْهَم ويُهْضَم تماما حتى الآن، داخل جسم المادة الأسطورية الموجودة في أسفار التوراة اليهودية. بل يبدو أحيانا كما لو أن هذا النص قد أتى من أسطورة أخرى دخيلة على التوراة، ومع ذلك فإن تأثير هذا النص كان قويا جدا على الفكر اليهودي المسيحي.

وقع أبناء الرب صرعى هوى بنات البشر. حملت بنات البشر وأنجبت لأبناء الرب رجالا مشهورين. في التفسيرات المتأخرة لنصوص التوراة، قيل أن أبناء الرب هم من ذرّية (ست Seth) وهو الاسم الذي حمله اله الشر في مصر القديمة، ولكنه كذلك الاسم الذي حمله ثالث الأبناء الذكور لآدم وحوّاء. تقول الكتب اليهودية إنه كان أحبّ أبناء آدم الى قلبه. أما بنات البشر فكنّ من بين تلك الذرّية الشريرة التي أنجبها قايين في مدينته الجديدة. قالت بعض التفسيرات إن البنات لم تكنّ جميعهنّ شريرات، بل كنّ في الأغلب طيّبات ولكن من ذوات القيم الأخلاقية المتساهلة.

في إحدى النسخ، كانت الملائكة قد نزلت من السماء، على قمّة جبل هرمون Hermon، كمجموعة واحدة تتكون من مئتي ملاك، تحت إمرة عشرين قائدا، حيث أقسموا بالولاء لهدفهم العام، ألا وهو الثورة على الرب والتمرّد على سلطاته، ثم ذهبوا بعد ذلك الى المدن لإغواء الفتيات، وتعليمهنّ أسرار سحر الفتنة الجسدية، وكذلك الأسرار المتعلقة باستعمال جذور نباتات معيّنة، وأفرع أشجار خاصة، كانت تلعب دورا هاما في كل المهن المرتبطة بالسحر. تعلقت الفتيات المنتشيات بهم، وأنجبن منهم أطفالا، أصبحوا سريعا ضخاما في الجسم، واستمرّوا في النمو حتى أصبحوا بشرا خارقين، قادرين على الاتيان بأفعال خارقة، تسميهم التوراة (الجبابرة).

أنظروا الى نص التوراة في الاصحاح 6 والعدد 4 الذي يقول (بعد أن دخل أبناء الله، على بنات الناس، ولدن لهم أبناء، صاروا من الجبابرة المشهورين منذ القدم، ففي تلك الأحقاب كان في الأرض جبابرة). وقد استهلكت شهيّتهم للطعام كل ما كان يجمعه لهم، أبناء عمومتهم من البشر العاديين، من أصناف الأطعمة المختلفة، ثم تحوّل الجبابرة العماليق الى أكل لحوم البشر.

في نسخة أخرى، جاءت الملائكة الى الأرض باذن من الرب، وحدث ذلك قبيل الطوفان، عندما كانت الشرور تتزايد، وكان البشر يتجّهون الى ارتكاب الذنوب والمعاصي، بشكل يتعذّر معه الاصلاح، وتستحيل معه المعالجة، عندها اقترح الملائكة على الرب، أن يذهبوا الى البشر للعيش معهم، وأن يحاولوا فعل شيء لانقاذ الموقف. أنذرهم الرب بأنهم إذا ذهبوا الى البشر، فإن ميول الملائكة ستتجه هي الأخرى الى الشر وارتكاب المعاصي، وأنهم بتأثير من البشر سيتغلّب لديهم الطابع الشرير الذي لدى البشر، على الطابع الخيّر الذي لدى الملائكة. لكنهم وعدوا الرب بفعل أقصى ما في وسعهم، من أجل تقديس اسمه، وهكذا سمح لهم بالذهاب.

ولكن رغم أن الملائكة أرادوا الاحتفاظ باسم (الله) سرّا بينهم، لأنه الاسم الذي تمنع قداسته من ذكره،

أي أنه أقدس من أن يُذكر على لسان من لا يستحق أن يَذْكُر (الله)، الا أن واحدة من الفتيات تمكنت بالحيلة من معرفة الاسم، بعد أن أغوت أحد الملائكة، وبالتالي أصبحت مميّزة عن غيرها من الفتيات، حتى أن الأرض لم تعد تساعها، فذهبت الى مجموعة نجمية أخرى، تعرف باسم مجموعة (بنات أطلس السبع)، والاسم اللاتيني هو بِلِياد Pleiades.

الفتيات الأخريات كنّ يتنافسن على اللون الأحمر، اللازم لصبغ الشفاة، ولتحمير الوجنتين، ومن أجل غيره من الألوان اللازمة لمستحضرات التجميل، والتي كان يمدّهنّ بها ملاك يدعى عزازيل، والمعروف بأنه أكثر الملائكة ذكاءً وعبقرية، وكانت الفتيات يتنافسن على معرفته، بجذبه هو وملائكة آخرين اليهنّ، عن طريق اللجوء الى أشكال من الجنس أكثر خطورة من مجرّد التلامس الجسدي. في النهاية أنتجوا أطفلا نموا في الحجم، وهو ما تتّفق عليه كل النسخ، الى أن وصلوا الى أحجام عملاقة.

كان من بين هؤلاء العماليق من حمل الأسماء التالية: ايمين - جيبوريم - أناكيم - نيفيليم، وواحد منهم على الأقل كان شيطانا حقيقيا، ويحمل اسم أشماداي، وهو المعروف كذلك باسم أشموديوس، واشتهر بخنق الأطفال حديثي الولادة، لو سمح له بالاقتراب منهم. ومن المتعارف عليه أن اسم أم هذا الشيطان هو نامه، وهي من نسل قايين، وبهذه الطريقة اتصلت بذرة الملائكة الساقطين بذرّية قايين، ونمت لدى هذا الفرع من البشر القدرة على استعمال الذكاء في القتل.

إن الصعوبات التي ظهرت مع مرور الزمن، وأدّت الى تراجع أهمية هذه القصة، بالنسبة للفكر اليهودي المسيحي، تعود في الأساس الى وقوع هذه القصة زمنيا في سفر التكوين، بين قصتيّ سقوط آدم وحواء في الخطيئة من ناحية، وبين قصة طوفان نوح من ناحية أخرى، مما يدعو الى الاعتقاد بأن الرجال العماليق، المولودين من ذلك الاتحاد غير السوي بين الشياطين والنساء، قد أفنوا تماما وتمّ القضاء عليهم الى آخر رجل منهم في طوفان سيدنا نوح. من التفسيرات التي ظهرت لاحقا القول بأن خلق الله للانسان من ذكر وأنثى، أدّى بملائكة الله الى الشعور بالغيرة، لأنهم ليسوا مميّزين الى ذكور وإناث، وبالتالي تمرّد منهم بعضهم ونزلوا الى الأرض وتزوّجوا من بنات البشر. وأن عقاب الله في هذه الحالة بإغراق العالم في الطوفان كان حتميّا.

ومن بين الكتابات التي ظهرت لاحقا في بعض النسخ المسيحية لنفس هذه القصة، هناك من يقول بأن سقوط الملائكة وتحوّلهم الى شياطين، كان سابقا زمنيا على خلق الله للانسان، الذي أراد الله بخلقه، أن يملأ الفجوة التي ظهرت في خليقته، بعد الانقسام الذي حدث في صفوف الملائكة. هذه الكتابات المسيحية اللاحقة تعطي الدليل على صحة معتقداتها، بالقول بأن وجود الشيطان داخل الحيّة التي أغوت حوّاء، يؤكد أن الانقسام الذي حدث في صفوف الملائكة، وتحوّل بعضهم الى شياطين، كان يسبق زمنيا خلق الله للانسان.

هناك طريقة أخرى للتعامل مع هذه القصة، وهي تتعلق بالمكان الذي تدور فيه أحداث هذه القصة، فمن الممكن أن نجعلها تشير الى عملية مستمرة منذ ما قبل الطوفان، ثم ما بعد الطوفان، وحتى العصر الحديث. ففي حضارات مختلفة ولمدة قرون عديدة، دارت الشكوك حول الكائنات الملائكية، فيما يتعلق بمسؤوليتها عن مولد أطفال، تدلّ ملامحهم أو طباعهم على الخروج عن المألوف، سواء

بشكل شيطاني أو بشكل ملائكي. إن معالجة هذا الأمر بهذه الطريقة لا يحتّم وجود أبوّة جسدية، وذلك طبقا للاعتقاد الذي كان سائدا ليس فقط لدى مجتمعات مسيحية عديدة، بل لدى ديانات بشرية عديدة، الاعتقاد بسبق وجود الروح على الجسد.

هناك مثلا الكثير من النصوص والكتابات اليهودية، التي تتضمّن الاعتقاد، بوجود مخزون هائل من الأرواح المعدّة منذ أزمنة بعيدة، هذا المخزون يسمح بالتموين المستمر من الأرواح، لسد احتياجات كل مواليد الأجيال القادمة لقرون لا حصر لها. السؤال السائد كان: متى يحدث هذا؟ متى تدخل الروح الى الجسد الجديد؟

كان الاعتقاد الذي ساد لبعض الوقت، بعد حدوث بعض التقدّم العلمي، هو أن الروح تدخل الجسد الجديد في اللحظات الأولى من تكوّنه، أي بمجرّد تخصيب البويضة الأنثوية، أي في نفس اللحظة التي يحدث فيها اتحاد الحيوان المنوي بالبويضة الأنثوية. بل قال البعض إن الروح تدخل أولا في الحيوان المنوي، في اللحظة التي يقتحم فيها البويضة الأنثوية.

إن قصة الملائكة في حياة البشر هي قصة مثيرة للاهتمام. في الكتابات اليهودية المبكّرة نجد الى جوار كل كائن بشري ملاكين حارسين لا ينامان، ويقومان بمراقبة الانسان نهارا، ويسهران على مراقبته ليلا، حرصا على سلامته. تقول الكتابات اليهودية (إن أحد هذين الملكين يقوم بكتابة التقارير التي تقرّظ أفعال الانسان الخيّرة، والآخر يقوم بكتابة التقارير التي تدين أفعال الانسان الشريرة). بعض الكتابات تشير الى الاعتقاد في احتمال أن يكون كاتب التقارير الشريرة، هو المسؤول الأول عن إظهار نوايا الانسان الشريرة.

من هنا جاءت منذ وقت مبكّر في تاريخ الديانات، ممارسة بعض رجال الدين لعملية استخراج الأرواح الشريرة، التي قد تسكن أجساد بعض البشر منذ مرحلة طفولتهم الأولى، وهي الأرواح التي اعتبرت مسؤولة عن أفعالهم الشريرة، بل حتى مسؤولة عن بعض نواياهم الخبيثة التي لم تكن قد تحوّلت بعد الى أفعال.

ومع ذلك فإن وجهة النظر الحالية في العالم المسيحي، هي أنه لا يمكن لأي شيطان مهما بلغت قوّته، أن يلبس جسد انسان بنسبة مئة في المئة، وذلك لأن وجود الشيطان داخل جسد انساني، له قوة تدميرية ضخمة على هذا الجسد، وعلى طبيعة هذا الانسان، فلو زادت نسبة العنصر الشيطاني على العنصر الانساني، لتشوّه شكل هذا الانسان، ولتشوّهت روحه، ولأنجب هذا الانسان الملبوس الممسوس كائنات ممسوخة مشوّهة.

2- برج بابل

منذ فترة ما قبل ميلاد المسيح، كان الناس يتوقعّون ويتقبّلون، حدوث أشياء شبيهة بذلك، أن يسكن الشيطان جسد انسان تكون ذريته مسوخا مشوّهة. ليس فقط في الدوائر اليهودية بل في كل ديانات العالم القديم، كانت هذه الأفكار منتشرة. أمّا بعد ظهور المسيح فقد أصبح الشيطان يحمل اسم (عدو المسيح) أو (المسيح الضد). وكانت الجماعات اليهودية قبل مجيء المسيح، تخشى من أن يخدعها ظهور مسيح مزيّف، لذلك قاوموا خلال فترة طويلة من حياة المسيح، فكرة مجيء المسيح الحقيقي الذي حدّثتهم نبوءات التوراة عنه، واعتقدوا أن مسيح الناصرة هو واحد من المزيَّفين. بل جاءت في الانجيل أسئلة وجّهها الناس الى المسيح من نوع (هل أنت هو المسيح الحقيقي أم ننتظر حضور مسيح آخر؟). من الغريب أن نذكر هنا أن جزءً كبيرا مما دار حول المسيح، أو مما أمكن تصوّره حوله، يرتبط بمعركة في الأساطير البابلية، دارت بين الرب مردوخ والتنّين عدوّه اللدود. لقد انطلقت الهيولية[46] البدائية من جديد.

في سفر التكوين الاصحاح 11 الأعداد من 1 الى 9 يقول (كان أهل الأرض جميعا يتكلمون أولا بلسان واحد ولغة واحدة، ثم قالوا «هيّا نشيّد لأنفسنا مدينة وبرجا يبلغ رأسه السماء، فنخلّد لنا اسما، لئلا نتشتت على وجه الأرض كلها»، ونزل الرب ليشهد المدينة والبرج اللذين شرع بنو البشر في بنائهما. فقال الرب «إن كانوا كشعب واحد وينطقون بلغة واحدة قد عملوا هذا، فلن يمتنع عليهم فيما بعد أي شيء عزموا على فعله، هيّا ننزل اليهم ونبلبل ألسنتهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض». وهكذا شتتهم الرب من هناك الى سطح الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة، لذلك سمّيت المدينة بابل.) في هذا النص يبدو بوضوح أن الرب كان يغار من البشر! ويمكن أن نحيل موضوع غيرة الرب من البشر وشكّه فيهم بل وخوفه منهم، الى الموضوع الأول الذي أثيرت فيه هذه المادة، وهو موضوع سقوط آدم وحوّاء في الخطيئة، لأنه يشير الى خوف الرب من زيادة المعرفة البشرية، حتى لا يتحوّل البشر الى ملائكة، وهم الذين تعتبرهم أغلب الديانات من أنصاف الآلهة.

هذا الخوف من الانسان الذي يخفيه الرب في الاصحاحين الثاني والثالث من سفر التكوين، ثم يظهره بوضوح في الاصحاح الحادي عشر، يحدث معه تغيير آخر في الاصحاح الأخير، إذ نجد أن الرب هنا يتكلم بضمير الجمع، رغم أنه في الاصحاحين 2 و3 يتكلم بضمير المفرد، وهو ما يدعو الى الاعتقاد بأن هناك مجموعة من الأرباب يتحدثون معا بضمير الجمع، ويقولون إنهم هبطوا معا الى الأرض لمقاومة بناء برج، يمكن استعماله كدَرَج يصعد عليه البشر من الأرض الى السماء[47].

يقول النص إن الرب قد توصّل الى تحقيق غرضه باستعمال حيلة بلبلة الألسنة، وبالتالي صعوبة التواصل بين مجموعات البشر الجديدة، ثم سوء الفهم المتبادل، والمشاعر العدائية المتبادلة في كل شيء بدءا بالمسائل الدينية والثقافية، وانتهاءا بكل شيء. كأن الرب بفعلته تلك هو الأصل في كل عداء بين البشر! لأنهم لو استمرّوا يتحدّثون لغة واحدة لكان من الأسهل عليهم بمراحل التفاهم في كل شيء. فحتى رغم وجود عوائق اختلاف اللغات، يمكن للبشر - رغم ضآلتهم - إنجاز الكثير من المهام الكبيرة، التي غالبا ما تكون في نطاق قدراتهم العملية، ولكنهم غالبا ما يفشلون في الانجاز -

في المقام الأول - بسبب الاضطراب في قدراتهم التنظيمية، فينفك جمعهم الكبير الى مجموعات أصغر مختلفة الأعراق واللغات، ويتبادلون الاتهامات في حالة من سوء الفهم المتبادل.

إن الاصحاح 11 من سفر التكوين يقول لنا إن رب اليهود هو السبب في كل هذا الفشل الانساني. ولكن هذه القصة ما هي الا أسطورة بابلية[[48]]، دخلت الى التراث الشعبي العبري، خلال زمن السبي البابلي.

لكن بشكل ما يمكن اعتبار قصة برج بابل في التوراة، نموذجا للمدن والامبراطوريات التي تسقط متحوّلة الى حطام، وهي القصة الأولى في سلسلة طويلة من الرؤى، عن الأحكام الصادرة ضد المدن في التوراة. يجوز أنه من المهم الاشارة الى أن الخرافات المتأخرة الخاصة بقصة بناء برج بابل، تذكر وقوع ضحايا بشرية عدة مرات في نسخها المختلفة، ضحايا بشرية يمكن اعتبارها من بين القرابين البشرية، ويمكن الاعتقاد في أن هذه هي المناسبة الأولى، لتقديم قرابين بشرية، من أجل أن يتقبّل الرب قيام الانسان بأداء عمل ما.

أثناء بناء البرج، قامت الفتيات والسيدات بصنع قوالب الطوب، ولم يكن مسموحا لهن بالتوقف عن العمل، حتى لو كان هذا بسبب الحمل والانجاب، ولو حدث أن أنجبت سيدة طفلا، يجب أن تدثّره في ملاءة، وتطوّقه برباط وتعلقه به على كتفيها وتستأنف العمل. بشكل أو بآخر كان هذا الشيء غالبا ما يحدث، طوال التاريخ الانساني، حين كان يُضَحّى بالأشخاص من أجل استمرار القوة المنظّمة.

في نفس هذه النسخة من قصة برج بابل، قيل لنا إن بعض البنّائين كانوا يطلقون أسهما تجاه السموات، وحيث أن تلك الأسهم كانت تعود الى الأرض ملطّخة بالدماء، فقد اعتقدوا أن معنى هذا هو أنهم كانوا يوجّهون إصابات الى الحشد السمائي، ولكن بلبلة الألسنة قادتهم سريعا، كما أراد الأرباب، الى سوء الفهم المتبادل بين جماعاتهم، ثم الى الحرب بين بعضهم البعض.

ثم حدث أن انهار أغلب بناء برج بابل الى الأرض، واشتعلت النيران في جزء منه، ولكن تبقى قدر من الحطام، فاعتبرت مدينة بابل في الأساطير القديمة، هي مدينة الانسان المحكوم عليها مسبّقا بالدمار، لأنها قامت على أساس باطل، هو محاولة التحكّم في تاريخ البشر ومصائرهم، بدلا من ترك هذا الشأن في أيدي الأرباب.

في هذه النوعية من الأساطير، ارتبطت حركات تمرّد البشر على الأرباب والآلهة، بظهور التنّين عائدا من مكانه حيث يقيم أسفل الأرض، والرمز المقصود بذلك هو عودة قوى الظلام، أو هي عودة انسان الخطيئة، الذي يتمرّد على الرب، ويطمح في أن يحصل لنفسه على نفس الترحيب والاحترام اللذين يحصل عليهما الربّ.

الانسان الضد. المسيح الضد. المسيح الدجّال. Anti Christ.

3- نظرية الخلق في العهد الجديد

إن نظريات خلق العالم في أناجيل العهد الجديد، تتضمّن تصورات جديدة، تختلف عن تلك التي كانت سائدة في التوراة، في أسفار العهد القديم. ففي الاصحاح الأول من انجيل القديس يوحنا، نجد تصوّرا للخلق، يبتعد عن الشكل الذي جاءت به في الاصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، خاصة تلك الآيات التي تقول (وجد الرب أن الأرض مقفرة) وكذلك (كانت الظلمة تكتنف وجه الأرض)، إذ يقول انجيل القديس يوحنا إنه بمجرّد ظهور نور وجه الرب وحكمته، بل حتى مجرّد نطقه بكلمة يخلق بها الكائنات، حدث أن تغلّب نور وجهه على الفور على ظلمة الأرض (النور يضيء الظلام)، وكذلك (ولا يمكن للظلام أن يدرك النور). لأن ضوء الوجود الآلهي يتألق ولا شيء يستطيع أن يطفئه.

لكن يتفّق النصّان القديم والجديد، على أن عملية الخلق كانت تتمّ عبر إعطاء الأوامر، وأن إعطاء الأوامر كان يتمّ عبر النطق بكلمات[[49]]. هذا هو نص الآيات الأولى من الاصحاح الأول بانجيل يوحنا (في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة هي الله)، ثم يقول يوحنا متحدّثا عن نفسه (كنت شاهدا للنور)، ثم متحدّثا عن يسوع المسيح (هو النور الحقّ الذي أتى الى العالم لينير كل انسان)، ثم يقول (كانت الكلمة النور في العالم، لأن بها تكوّن العالم، ولم يعرفها العالم).

في سفر التكوين يبدو كل شيء مشوّشا، قبل أن تمتد اليه يد الرب لتعيد اليه النظام. في انجيل يوحنا، كان النظام موجودا في العالم حتى من قبل أن تمتد اليه يد الرب، ولم يكن النظام مفروضا على العالم من خارجه، لكن العالم لم يكن يدرك هذه الحقيقة. لكن كلمة الله هي نتاج عقل الله وحكمته، وبالتالي فإن مخلوقات الله التي نتجت عن حكمة الله وكلمته، لا تستطيع أن تستمر دون أن يكون لها البناء العقلاني، الذي يسمح لها بالاستمرار، لأن العقل كان الأصل في خلقها. وفقا لأناجيل العهد الجديد الأربعة، رفض أهل العالم استقبال كلمة الله ونوره، يقول يوحنا عن يسوع المسيح كلمة الله (جاء الى من كانوا خاصته، ولكن هؤلاء لم يقبلوه). كلمة الله ونوره هما المسيح المتجسّد، الجسد المصنوع من الكلمة المنطوقة، يقول يوحنا (الكلمة صارت بشرا، وأقامت بيننا، ونحن رأينا مجده).

إن المشاكل العقائدية في الديانة المسيحية، أكثر شدة والحاحا عنها في الديانة اليهودية، وذلك لأن الكنائس المسيحية ظلّت خلال القرون الثلاثة الأولى من التاريخ المسيحي، تعتقد أن كل شيء مصنوع من المادة، هو في مرتبة أدنى من كل شيء مصنوع من الروح، وذلك لأن جسد الانسان مثلا هو من التراب الذي سيعود الى التراب بعد الموت، وأن الجسد بصفته الترابية هو المسؤول عن الآثام التي يرتكبها، في حين أن روحه هي من عناصر سماوية، وستعود الى السماء بعد الموت، ولا ذنب لها في ارتكاب الآثام. الاعتراض الذي وجّهه بعض المؤمنين الى وجهة النظر هذه، هي أنه ليست كل الأرواح خيّرة، فهناك الأرواح الشريرة التي هي الشياطين والجان.

كان هذا الاعتقاد أمرا مسلّما به عند فئات هامة من المسيحيين، ولكنهم تخلّوا عنه لاحقا، بسبب إدانة هذا الاعتقاد من جهة الكنيسة الأم، وباتهامهم بأنهم بتمسّكهم بهذا الاعتقاد، ينحرفون عن السبيل القويم، وذلك بعد أن توصّلت الكنيسة الأم الى الاعتقاد، بأن تفسير السبب في وجود الشرور

والنواقص والرغبة في ارتكاب الآثام، لدى بعض المؤمنين، هو لوجود نزعة التمرّد على الرب، والرغبة في التحرّر من تعاليمه، لدى هؤلاء المؤمنين. كانت الكنيسة الأم تطالب تابعيها بالطاعة العمياء.

كان هذا التغيّر في وجهة النظر الى الآثام، قد نتج عن موقف بعض فلاسفة المسيحية، من حقيقة أن المسيح قد جاء الى الأرض في جسد بشري، وحدث أن اقتسم طعامه مع تلاميذه، خلال وجبة عشائه الأخير، التي وزّع فيها عليهم رغيفا واحدا من الخبز، قائلا لهم إن هذا الخبز هو جسده الذي يقتسموه معه، وفعل نفس الشيء بإناء نبيذ، قائلا لهم إن هذا هو دمه، وطلب منهم أن يفعلوا لاحقا نفس هذا الشيء باسمه، أي تخليدا لذكراه، فيما عرف لاحقا في الكنيسة باسم سر التناول المقدّس Holy Communion (من جسد ودم يسوع المسيح).

تبرئة الجسد من مسؤولية الذنوب والآثام، تركت مساحة أكبر لحركة الشيطان، كمصدر وحي لكل الأعمال الخبيثة، ومساحة أقل لخمول الانسان وقصوره الذاتي. إذن فإن المتسبب في الآثام هو الشيطان، ولكن الجسد الانساني هو من يدفع ثمن الآثام. قصور الانسان عن الادراك هو الثمن الذي يدفعه الجسد كنتيجة للإثم، عقابا الهيا في صورة أذى مادي جسماني أو كارثة مادية. إن نظرة أطول وأكثر تدقيقا، الى قصة التطوّر الانساني، كان يمكنها أن تسمح بتصوّر قدر أكبر من الحرية للمادة، أو للأجسام المادية العضوية organic، ولكن كان هذا سيصبح صعب التصوّر في عالم ينظر الى المادة بشكل عام، على أنها خاملة، لا غرض لها ولا هدف.

لكن من جهة أخرى، سيكون من الخطأ الافتراض بأن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون، أن كل الأرواح التي تفوق الانسان قوة، هي إما أن تكون ملائكة، أو أن تكون شياطين. فهم تقريبا مثل كل معاصريهم من الديانات والمعتقدات الأخرى، رأوا في الكواكب السيّارة وفي الأجرام السماوية، أنها إشارات ومحاولات تواصُل من كائنات حيّة، لديها طاقة تواصل قوية، قد تكون مفيدة، وقد تكون ضارة. في كل الأعراف القديمة، كان القمر كائنا حيّا، بدليل تغيّراته الدائمة بشكل واضح في السماء، كما كانت كذلك القوى الأخرى المرتبطة بالطبيعة وبالأحوال الجويّة، مثل الأمطار والعواصف والرياح، ففي كل الديانات القديمة، كانت هناك آلهة للقمر والأمطار والعواصف والرياح، ففي مصر القديمة كان اله القمر هو (إياح) واله العواصف والرياح هو (ست)، كما أن صلاة الاستسقاء لدى هنود أمريكا الحمر هي من بقايا الاعتقاد السائد لديهم بوجود اله للأمطار. بعد المسيحية أصبحت محاولة الاتصال بهذه الموجودات خطرا، وذلك لاحتمال اعتبار مثل هذا الاتصال نوعا من العبادة الوثنية.

ربما إذن كان من العادي أن قال القديس توماس الأكويني ساخرا (إن المسألة يمكن أن تعتبر استثنائية، اذا كان الاتصال بالآلهة، يتعلق فقط بمحاولة معرفة التنبؤات الجوية). أما القديس أنطونيوس المصري فقد قال (إن المعلومات التي يمكن الحصول عليها بهذا الخصوص لا غبار عليها، حتى لو أنها كانت من الشيطان نفسه). ومع ذلك ففي الأساطير المسيحية بشكل عام، يمكن حقا القول إن المخلوقات الأسطورية مثل التنّين، هي في الغالب ليست مخلوقات الهية، ولا هي مخلوقات عشوائية، وإنما هي مخلوقات شيطانية، وذلك لأن العالم باعتباره من صنع الرب فهو بشكل

عام شيء طيّب.

4- بابل وانسان الخطيئة

إن أغلب أساطير الأناجيل تدور حول موضوع مملكة الله التي تسود على البشر، بين الزمنين الحاضر والمستقبل. يلاحظ أن هذا التوجّه نحو المستقبل له ما يماثله فقط في الأساطير الفارسية، ولكنه كان نادر الوجود في الأساطير الإغريقية، بل كان ضد الميل الفطري للعالم القديم بشكل عام. ففي المنطق السائد لأساطير العالم القديم، كان العصر الذهبي للحضارة التي تحكي عنها الأساطير، يقع دائما في الزمن الماضي. الا أن السرعة التي توقّع بها المسيحيون الأوائل المجيء الثاني ليسوع المسيح، كانت مبالغا فيها جدا، بالمقاييس المتعارف عليها في عصرنا الحالي، الا أنها تبدو ملائمة للجو الأسطوري السائد في الكتابات المسيحية، ولها ما يماثلها في أساطير التوراة، مثل خطوات خلق العالم، وحيوات الآباء المؤسسين الأوائل، قبل زمن طوفان سيّدنا نوح.

من الملاحظ أن الثقافات التي نظرت الى الأساطير على أنها أمورٌ مفروغٌ منها، تمّ التسليم فيها بذلك على أساس أن الأساطير هي طريقة لرؤية أو تفسير، ما لا يمكن رؤيته أو تفسيره بأيّة طريقة أخرى. لكن هناك ما يشير الى أن المغالاة والمبالغة أحيانا في بعض المسائل المتعلقة مثلا بالمقاييس الزمنية، مثل القول بأن حياة سيدنا نوح قد امتدّت الى 950 عاما، يكون المقصود به غالبا التأكيد على أن القصة المرويّة هي لغز محيّر. لكن في الحقيقة أنه مع مرور الزمن وعبر القرون الميلادية، نزعت قلّة ضئيلة من المؤمنين باليهودية ثم بالمسيحية، الى التعامل مع تلك الأرقام بشكل حرفي.

أما فيما يتعلق بشكل عام بفقرات الأناجيل، التي تعالج الايمان بالأخرويات، كمسائل اليوم الآخر والبعث والحساب، فإن نبوءات المسيح في الأناجيل، وكذلك الرؤى المستقبلية في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، تبدو فيها نهاية العالم كما لو أنها ستأتي فقط بعد سقوط أورشليم في يد الجيوش الرومانية [50]، أو بعد سقوط الامبراطورية الرومانية نفسها[51]، وهو السقوط الحتمي الذي كان في لحظة ما من التاريخ لا يمكن تفاديه، وإن كان قد ظلّ مؤجّلا لعدة قرون.

خلال القرون الميلادية الأولى لم يكن أحد يظن أنه يخطىء إذا اعتقد، أن مدينة بابل في سفر رؤيا يوحنا، المقصود بها في قرون ما بعد ميلاد المسيح، مدينة روما عاصمة الامبراطورية الرومانية، خاصة عندما كانت تلك الامبراطورية في طريقها الى السقوط. أو أن يخطىء من اعتقد أن نهاية العالم ستكون هي بسبب حركة الاصلاح الديني اللوثرية، في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، عندما كان المقر البابوي في روما فوق التلال السبعة، يشبه في أمجاده الدنيوية كل المقرّات الملكية أو الامبراطورية في العالم القديم وخلال القرون الوسطى[52].

ومن المعروف أن روما سمّيت بابل الحديثة، ولكنها طبعا كانت أكثر من ذلك، لأنها كانت الامبراطورية المنظّمة من أجل هدف واضح، هو الحصول على أكبر قوة عسكرية واقتصادية في عصرها. نحن لا نعرف على وجه الدقّة متى تمّت كتابة سفر الرؤيا، لكنها تمّت غالبا قبل نهاية القرن الأول الميلادي، في حياة يوحنا الذي صاغها سفرا في العهد الجديد، لكن الراوي (أو الرائي) في سفر رؤيا يوحنا الانجيلي[53]، الذي عاش حتى حضر الحرب الأولى بين الفيالق الرومانية، من

68 الى 70 ميلادية، وتخيّل كما حدث لغيره، أن هذه الحرب قد تكون مقدّمة لسقوط روما، هذا الرائي لم يكن يدري أن الصراعات على السلطة في روما ستتكرر عدة مرات، ولم يكن في مقدوره أن يتوقّع، أن تسقط المدينة فعلا في أيدي قبائل همجية قادمة من شمال وشرق أوروبا، في القرن التاسع الميلادي. فهناك في روما حدث أولا الصدام بين العسكريين المطالبين بالعرش الامبراطوري، المدّعين بأحقيّتهم فيه، الذي وقع سنة 193 ميلادية، ثم هناك في روما حدثت ثانيا اضطرابات عديدة في القرن الثالث الميلادي.

كان للرائي أن يتوقّع أيضا، المزيد من الاضطرابات في شرق الامبراطورية الرومانية، ليس فقط في غربها، حيث حدث في نفس هذا المستقبل المضطرب، أن وقع الامبراطور الروماني أسيرا في يد شاه فارس، وتمكنّت الجيوش الفارسية بقيادة أوديناثوس Odenathus من الاستيلاء على مدينة بالميرا، ثم تمكنت بعد ذلك من احتلال كل من سوريا ومصر، وتحوّلت شوارع الاسكندرية الى اللون الأحمر، بسبب جريان دماء أهل المدينة على شوارعها أثناء كفاحهم المدني ضد المحتل.

إن الصورة المفصّلة للنبوءات الواردة في سفر الرؤيا، تبدو كما لو أنها تقدّم للرائي صورة عيّنة مقصودة بعينها، وليس صورة الحقيقة كلها، تماما كما هو الحال في أن تنّين الأساطير هو فقط مجرّد عيّنة من حيوانات الأساطير، وليس صورة حقيقة حيوانات الأساطير كلها. الصور الواردة في سفر الرؤيا هي أجزاء فقط من صورة كليّة لم ترد بكل تفاصيلها. مثلما كان الحال في الأسطورة البابلية، حيث كان يُعْتَقَد أن الرب البابلي قد مزّق راهاب Rahab الى أجزاء، وصنع العالم الذي يعيش فيه البشر من تلك الأجزاء. أو كما جاء في أسطورة بابلية أخرى، وفعل الرب مردوخ Marduk نفس الشيء بجسد عدوّه تيامات Tiamat.

إن وحش الأسطورة، وهو نفسه وحش الرؤيا، يمكن أن يمثّل الحيوان الرابض داخلنا، أو يمثّل بقايا ملامح الإثم داخل كل منا، كما أنه يظهر لنا أحيانا كما لو كان أحد الأشكال القليلة المتبقّية، من المراحل المبكّرة لنشوئنا وارتقائنا، عندما كان الانسان أقرب الى الحيوانات، وبالتالي يمكن أن يقال إن أسطورة تطوّر الانسان، من النشوء الى الارتقاء، تصوّر الانسان منذ بداياته عندما كان أقرب الى الوحشية، الى أن تطوّر وترقّى بعد ذلك عبر مراحل طويلة، حتى وصل الى وضعه الحالي.

هذا قريب الشبه كذلك بما تقوله الكنيسة من أن التنّين وهو حيوان الأساطير الخرافي، هو في الحقيقة الشيطان الحالي الذي نشأ ثم تطوّر وارتقى.

تقول الكنيسة كذلك إن الوحش الموجود في سفر الرؤيا هو الذي سيتطوّر لاحقا الى أن يصبح المسيح الدجّال (أو المسيح الضد) فقط عندما يأتي أوانه وزمانه. إن أسطورة المسيح الدجّال، رجل الخطيئة الأول، لها جذورها في نصوص نهاية العالم، كما جاءت في كتابات الديانة اليهودية، فيما بين العهدين القديم والجديد، أي في مرحلة زمنية متوسّطة، بين وصول التوراة الى صيغتها الحالية في زمن ما خلال القرون السابقة على ميلاد المسيح، وبين بداية ظهور الانجيل في شكله الأقرب الى الشكل الحالي، في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح.

إن صورة المسيح الدجّال، في أفضل صياغة لها، جاءت عبر موعظة مؤثّرة للقدّيس إفرايم، المتوفي

في سنة 373 ميلادية، وقد يحتوي نص هذه الموعظة، على فقرات جاءت في مواضع وأماكن أخرى في كتابات سابقة على زمن القدّيس إفرايم، قد تخصّ بعضها شعراء مبكّرين في تاريخ المسيحية. إن أكثر ما يمكن اعتباره مثيرا للاهتمام، هو وصفه لجاذبية وسحر المسيح الدجّال، الذي لن يكون تجسيدا للشيطان، حسب نصّ الموعظة، بل سيكون تجسيدا فقط لجزء من جسم الشيطان، وهذا الجزء هو العضو الجنسي للشيطان.

القصة تبدأ عندما تكوّن جسد الجنين الذي سيصبح فيما بعد المسيح الدجّال، وتشكّل بدقّة واتقان في رحم فتاة صغيرة، لم تكن أخلاقياتها فوق مستوى الشبهات. من العجيب أنه في طفولته كان المسيح الدجّال جميلا وبسيطا ومتواضعا. ثم في شبابه أصبح مقاتلا عنيدا، عاقد العزم على تحقيق العدالة الاجتماعية، محاربا للعبادات الوثنية، رغم ذلك فقد كان شابا وسيما طيّبا، يأنس اليه كل الناس خاصة أفراد الشعب اليهودي، الذين كان يختار من بينهم أقرب أصدقائه.

كان يمكنه أن يقدّم - بتواضع شديد - عروضا، لأداء كل ما هو خارج عن المألوف في مجالات فنية وعلمية متعدّدة، رافضا في نفس الوقت العطايا والمكافآت عن تلك العروض، وبهذا الأسلوب أمكنه أن يخدع - مؤقتا - كل أؤلئك الذين اعتقدوا أنه لا يبحث عن أهداف مادية، أو لا يبحث عن جمهور يتحد حوله ويصبح شعبه الذي يصرّ يوما ما على تنصيبه ملكا عليهم.

لكنه بمجرّد أن انتصر ذات مرة على معارضين أقوياء على أرض المعركة، تغيّرت شخصيته تماما لتكشف فجأة عن وجهه السادي، الذي يستمتع بإهانة الآخرين ويهوى تعذيبهم. وبينما هو مستمر في استعراض طاقاته السحرية الخارقة وقواه غير العادية، بأفعال من مثل إخفاء الجبال الرواسي، وإظهار جزر جديدة في البحار، الا أن هناك من بين الجمهور من أدرك أن كل هذا ما هو الا سراب وأوهام، ورغم ذلك فإن الغالبية العمياء صفّقت له تصفيقا حماسيا شديدا، خاصة من بين أتباعه الذين يحملون كلهم، نفس العلامة المختومة على جباههم وعلى أيديهم اليمنى. سيبقون هم وحدهم فقط على قيد الحياة، بينما سينتهي الى الفناء كل معارضي قدراته الخداعية. ستدوم فترة خداعه للبشر بقدراته السحرية الخارقة، مدة ثلاث سنوات ونصف، وهي المدة المساوية لفترة بعثة يسوع المسيح، في بداية القرن الميلادي الأول، ولن يقضي علي هذا الشيطان الا المجيء الثاني ليسوع المسيح.

كانت هذه الموعظة للقدّيس إفرايم، ذات تأثير كبير على الكنائس المسيحية الشرقية، عند انتشار نسخ مخطوطة منها في تلك الكنائس، خاصة في روسيا، إذ أدّت هناك الى ظهور كتاب للفيلسوف الديني فلاديمير سولوفييف Vladimir Soloviev، كان العنوان الذي ظهر به سنة 1899 في ترجمته الانجليزية هو (الحرب والتقدّم ونهاية التاريخ)، وقد توقّع فيه الكثير من الأحداث التي وقعت فعلا خلال النصف الأول من القرن العشرين، مثل الحروب اليابانية مع روسيا والصين، وسقوط الامبراطورية القيصرية الروسية، ولكنه توقّع كذلك أشياءً لم تحدث، فرغم أن اليابان قد نجحت في غزو الصين، ودول جنوب شرق آسيا، الا أنها لم تنجح في غزو روسيا حتى بعد سقوط امبراطوريتها. بل إنه حتى توقّع أن تتمكن اليابان من غزو الغرب الأوروبي والأمريكي، الا أن هذه النبوءة هي الأخرى لم تصدق، الا إذا اعتبرنا أن غزو اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية، لقاعدة بيرل هاربور الأمريكية في جزر هاواي سنة 1941، هي غزو للغرب. في عرف سولوفييف كانت

اليابان هي نموذج المسيح الدجّال الذي يمكن بعده أن نتوقّع المجيء الثاني للمسيح، ونهاية العالم.

وقد تنبّأ سولوفييف كذلك، بهزيمة اليابان في هذه الحرب العالمية، وباحتمال قيام ولايات متحّدة أوروبية على غرار الولايات المتّحدة الأمريكية، ولكن على أسس ديقراطية حقيقية، وليس على أسس مادية[54] مثل تلك التي قامت عليها الولايات الأمريكية. يقول المؤلف الروسي إن الولايات المتحدة الأمريكية، يبدو بوضوح أنها قامت على قيم بعيدة تماما عن المبادىء المسيحية، ويبدو بوضوح أنها غير واثقة بشكل عميق من جدوى وشرعية القيم المسيحية. هنا في هذا الموضع من الكتاب تأتي التفاصيل الخاصة بقصة المسيح الدجّال. إذ يتنبأ المؤلف الروسي أنه في تلك الظروف، سيأتي رجل عبقري الى مقدّمة الصفوف، وسينتخب رئيسا مدى الحياة للولايات المتحدة الأوروبية، وفي مرحلة لاحقة سيصبح امبراطورا على العالم كله.

يقول هذا المؤلف الروسي في كتابه الصادر في بداية القرن العشرين، إن هذا الرجل العبقري سيبدأ حياته العملية كمتخصّص في سلاح المدفعية، في واحدة من الدول الأوروبية، ثم سيصبح رجل أعمال متخصصا في مجال اتفاقيات التسليح بين الدول. يقول (ستكون أم بطل روايتنا سيدة ذات سمعه مشبوهة، وستكون لها علاقات متعدّدة مع عدد كبير من الرجال، حتى أن الكثيرين من بينهم سيعتقدون، أنهم قد يكونون من بين الآباء المحتملين لبطل روايتنا). خلال حياته المبكرة كان بطل روايتنا يقارن نفسه بالمسيح، معتبرا نفسه خليفته الحقيقي. ثم حدث له أن مرّ بأزمة نفسية روحيّة، رأى خلالها نوعا من الرؤى المختلفة، عن نوع مختلف من الوجود الأسمى، الذي لا يشترط لعبادته الطاعة العمياء، ويعطي كامل قوته الى تابعيه، كأبناء أصلاء له.

في ضوء هذه الحقائق الجديدة، أصبح بطل روايتنا قادرا على تأليف كتاب، يقدّم فيه لشعوب العالم، حلولا جديدة لمشاكل العالم الأكثر الحاحا. هكذا مثلا تمّ حلّ مشكلة الجوع، وتمّ إشباع الجوعى على مستوى العالم كله. حدث نفس الشيء في كل المشاكل المزمنة، إذ تمّ تقديم حلول لها مبنية على دراسات متفحّصة، تمكنّت من ذلك بالاستعانة بإمكانيات السحر والتصوّف الشرقيين، بالاضافة الى إمكانيات أجهزة التكنولوجيا الحديثة من روسية وأمريكية. هذا الرخاء العالمي سمح بتحقيق حلم قديم للبشرية، وهو حلم تجميع البشر كلهم في ديانة واحدة، وإقامة معبد وحيد لكل الديانات الموّحدة، في موقع قبّة الصخرة في أورشليم.

لكن على ما يبدو أن هذا الحلم لن يتحقق أبدا، فالكنائس المسيحية في المؤتمر المنعقد في أورشليم لتوحيد كلمتها، اختلفت مع بطل روايتنا على الشرط الذي وضعه مقابل التوحيد، وهو أن تعترف به جميع الكنائس، بصفته الحامي والراعي لها جميعا. ورغم أنه يستمر في الاعلان عن نفسه كخليفة للمسيح، الا أنه يتوقّف تمام في خطبه، عن ذكر المسيح والإشارة الى أقوال المسيح، رغم ذلك كانت فكرة التوحيد مغرية جدا لعدد كبير من قادة الكنائس، خاصة لو كان ذلك التوحيد، تحت قيادة سياسية جديدة، قد تسمح لرؤساء الكنائس بأن يصبحوا رؤساء سلطات دنيوية حقيقية، كما كان الحال في بابوية القرون الوسطى.

لكن ظهرت معارضة قوية لهذا الاتجاه، قادها البابا (بطرس الثاني)، الذي كان قد انتخب بابا في

دمشق، وهو في طريقه الى حضور مؤتمر القدس، بتشجيع من أسقف روسي متقاعد هو (يوحنّا/ جون الأكبر)، الذي كان مرشدا روحيا في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وبتحفيز من البروفيسور (إرنست بولي) Ernest Pauli، المعروف بكونه أكثر اللاهوتيين الألمان علما. إن أسقف روسيا (جون الأكبر) كان شخصية معروفة هناك، ولم يخترعه المؤلف سولوفييف، ولا كذلك شخصية البابا (بطرس الثاني)، ولكن في الحقيقة أن قدرة المؤلف سنة 1899، على اختراع شخصية (إرنست بولي)، تدل على قدرات المؤلف التنبّؤية.

هي ليست مسألة مظهره وتصرفاته، بقدر ما هي مسألة أن هذا المظهر وهذه التصرفات، أدّت بنا الى أن نرى فيه شبيها، بكارل بارت [55]Karl Barth، فالتشابه بينهما لافت جدا للانتباه، خاصة في بعض المشاهد التي تظهر في رواية سولوفييف، ثم تظهر بعد ذلك حرفيا في واقع حياة كارل بارت، بعد الرواية بسنوات عديدة، مثل المشهد الذي نراه فيه عندما تخلّى عنه معظم زملائه من علماء اللاهوت، وهو يقف وحده كما لو كان قد أصبح لا حول له ولا قوة، دون هدف واضح في مجال إبصاره، لكنه بعد ذلك يقود من تبقى حوله من أتباعه، عبر مقاعد القاعة الخالية، ليذهب ليجلس الى جوار بابا روما الموجود في نفس القاعة، ويجلس حولهما من تبقى معهما من الرجال المستقيمين. حدث هذا المشهد بتفاصيله في رواية الروسي سولوفييف، وكان من الصعب تجنّب أن تظل رواية سولوفييف دون نهاية محدّدة، أو حتى دون أية نهاية على الاطلاق.

الشيء الذي يعتبر مميّزا جدا لرواية سولوفييف، هو قدرته على التنبّؤ بالأزمة في الكنيسة، الأزمة التي وقعت بينها وبين العالم الحديث في القرن العشرين، العالم الذي ينظّم نفسه ليكون فقط في خدمة غرض وحيد، هو الحصول على أكبر قدر ممكن من القوة العسكرية والمال، بصرف النظر عن أيّة اعتبارات أخلاقية.

الأزمة التي يحدث خلالها، أن تذهب السلطة في الكنائس بمظهرها الدنيوي الى أيدي أعداء الكنائس، وأن يتمّ استغلال الدين كغطاء للنظم الدنيوية، التي لا يبحث أصحابها الا عن مصالحهم الشخصية في السلطة والأموال. لكن يظل الرجال المؤمنون المستقيمون معا.

كما أن هناك لدى سولوفييف بعد نظر عندما أدرك أن مؤتمرا دوليا، يعقد خاصة لمناقشة شؤون الايمان بين ديانات العالم المختلفة، بغرض توحيد البشر، لن يؤدّي الا الى المزيد من الانقسامات، بين المسيحيين وغيرهم من البوذيين مثلا، بل حتى بين المسيحيين وأنفسهم من الكاثوليك والبروتستانت، وأن المزيد من مثل هذه الانقسامات، من المحتمل أن يكون هو الهدف الحقيقي، الذي يسعى الى تحقيقه، منظّمو المؤتمر من السياسيين الدوليين (political probability).

5- أورشليم الجديدة

حسبما جاء في الاصحاحين 21 و22 من سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي، فإن السماء والأرض الجديدتين، تمثلان عالما فاضلا يوتوبيا مثاليا، لا مكان فيه للبشر الجبناء، مزدوجي الذهنية، القساة، الشهوانيين، أولئك الذين يخدعون الآخرين، بل حتى يخدعون أنفسهم، بالأكاذيب والدعايات المضلّلة. إنها مدينة مثالية جديدة، تعيش فيها جماعة من البشر يسود بينهم التفاهم التام، حيث من ماء الحياة يرتوي كل ظامىء، ومن أشجار الفاكهة الطازجة يشبع كل جائع. صُنِعَت أساسات جدران المدينة من الأحجار الكريمة، وحُرِسَت بواباتها بواسطة الملائكة، وقادة جيوش أسباط اسرائيل. إنها حديقة العالم الجديد الشاسعة، إنها الفردوس.

لا توجد بها شمس، ولا يوجد بها بحر. ليست بها أية مقاييس زمانية، فبلا شمس لا يوجد نهار، وبالتالي لا يوجد ليل. ليست بها كنائس، وليست بها معابد. وقد زاد الى حدٍ هائل، انتاج هذه المدينة الجديدة من النبيذ، وذلك لأن بكل بستان عشرة آلاف شجرة عنب، وبكل شجرة عنب عشرة عناقيد ثقيلة الوزن، وحبّات تلك العناقيد عندما تُعْصَر، تعطي خمسة وعشرين ضعفا من الحجم المعتاد للعصير الناتج عن حبّات مثل هذه العناقيد. ليس هذا فقط بل إن كل حبّة قمح أو ذرة، تعطي عشرة أضعاف ما كانت تعطيه سابقا من دقيق نظيف. وكل الحيوانات أصبحت كائنات لطيفة المعشر أليفة، لا تتعارك مع بعضها البعض على الاطلاق، بل تعيش في سلام لأن لديها الضمانات الكافية لرخاء طويل الأمد، لديها الكثير من غذاء علف الماشية.

إن هذه الرؤية المستقبلية - بلا أدنى شك - ذات صلة بنبوءة نبي الله أشعياء، في الاصحاح الحادي عشر من سفره بكتاب التوراة، الذي يقول فيه (إن الذئب سيلتقي في سلام مع الحمل الوديع، والأسد سيصبح نباتيا لا يأكل اللحم، والأطفال الصغار سيضعون أيديهم في جحور الأفاعي دون أن تقترب هذه من أيديهم لتعضّها)، ثم يقول (لن يكون هناك بعد أغنياء وفقراء، ولكن سيتشارك الجميع، في تلك الوفرة الهائلة من حبوب الحنطة والدقيق والأعناب والأنبذة).

هذه الرؤيا كانت تتوقّع أن يتحوّل العالم الى ولايات متحدة مسيحية، تتشارك في ثروات العالم، تحت راية المسيح. قد تكون مقاييس الأنبياء الزمنية مختلّة، مثلما هي الحال مع نبوءة أشعياء، بل كما هي الحال تقريبا في كل التنبّؤات النبويّة. لكن في حقيقة الأمر، كانت نبوءة سفر أشعياء هي الوحيدة من بين كل نبوءات التوراة، التي تتحدث عن مستقبل مشرق لبني البشر، وعن نهاية سعيدة لكل آلامهم، حيث إنها النبوءة الوحيدة التي لم تتحدّث إطلاقا عن يوم الدينونة Doom s Day، ولعنة الرب لبني البشر في يوم الدينونة.

الفصل الرابع
موقع جمجمة آدم

1- مركز الأرض

في عدد كبير من الأعمال الفنية من العصور الوسطى، خاصة في اللوحات الحائطية التي تصوّر منظر صلب المسيح، هناك أسفل صليب المسيح توجد جمجمة، والأناجيل الأربعة تقول إن صلب المسيح تمّ في موقع يقال له جُلجُثة Golgotha، ومعنى الكلمة بالعبرية هو جمجمة، وقد تكون هذه التسمية كما افترض الجنرال جوردون، هي بسبب شكل الصخرة التي أقيم عليها الصليب التي تشبه الجمجمة. ولكن يبدو أن الأكثر احتمالا هو أن هذه التسمية تعكس ظلال الأسطورة التي تقول إن سيّدنا آدم قد دُفِن هنا، وأن هذا المكان يعتبر في مركز الأرض، أو بالقرب منه، وهو نفس المكان الذي تشكّل فيه جسد سيدنا آدم من أديم الأرض، عندما خلقه الله في بدء الخليقة، في أرض اسرائيل/ فلسطين.

إن فكرة وجود مركز الأرض عند جبل مقدّس، في موقع تتقابل فيه السماء مع الأرض، هي فكرة مألوفة في العديد من الأديان. فعلى سبيل المثال، تمّ العثور على نفس هذه الفكرة، لدى قبائل السيمانج Ser، في شبه جزيرة المالايو، في مناطق جنوب شرق آسيا، الذين إذا ذهبنا اليهم يمكنهم أن يعرضوا علينا الصخرة المسمّاة باتو ريبن المرتفعة عند مركز الأرض. هناك يقال لنا إن شجرة كانت قد اعتادت أن تنمو لتشق عنان السماء. وهناك كذلك في موقع معبد الاله أبوللو في مدينة دلفي باليونان، يظل في امكاننا أن نرى سُرّة الأرض، ممثّلة على أرضية المعبد، وهو حَجَر من مركز الأرض، وصفه الشاعر الاغريقي (بندار) في الجزء السادس من قصيدته المكوّنة من مقطوعات شعرية غنائية قائلا عنه (مركز الأرض العميق الدمدمة والباقي الى الأبد).

نفس سُرّة الأرض تلك ممثلة كذلك في أورشليم، داخل كنيسة القبر المقدّس، على أرضية الكاثوليكون[56]، حيث نموذج واضح للسُرّة البشرية، منحوتة في القرن الثاني عشر الميلادي، حُجِبَت عن النظر في القرن التاسع عشر الميلادي، بحجة اللياقة والحفاظ على الأخلاق الحميدة، ثم كشف عنها الحجاب مؤخرا من جديد. في فلسطين كانت هناك عدّة مراكز أخرى للكرة الأرضية، فعلى سبيل المثال، في سفر القضاة[57] (وهو أحد أسفار العهد القديم)، في الآية رقم 37 من الاصحاح التاسع، مدينة سيشيم Sechem القديمة يطلق عليها اسم (سُرّة الأرض).

ولكن إذا كانت الاشارة الى أورشليم نفسها على أنها (سُرّة الأرض) فيمكننا أن نكون متأكدين تماما، من أن المقصود بالاشارة هنا هي صخرة تأسيس مدينة أورشليم، التي يسمّيها اليهود ايبين شيتايا Ebe، أو الصخرة التي يمكن أن نراها حتى الآن تحت (قبة الصخرة) التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، في المنطقة التي يقول اليهود إنها الأرض التي كان يقوم عليها معبد الملك سليمان، وتظهر الصخرة هناك حتى الآن في شكل نتوء صخري فوق تجويف كبير، يُشاع أنه المكان الذي

كان يصلّي فيه أنبياء كثيرون مثل ابرهيم وداود، وآخرون. إن المعتقدات والأعراف اليهودية تصرّ على أن هذه الصخرة كانت داخل قدس أقداس معبد سيدنا سليمان ملك اليهود ونبيّ التوراة[58].

في كتاب (أسطورة اليهود) للمؤلف لويس جينزبرج Ginzberg، يقتبس فقرة من الميشنا[59] Mishna،
ليستشهد بها، وهي (بعد أن أُخِذَ تابوت العهد بعيدا، بقيت في المكان قطعة حجر من زمن الأنبياء السابقين، وسمّيت شيتايا، وكانت مرتفعة عن مستوى سطح الأرض، بمسافة عرض ثلاثة أصابع). الكلمة المستعملة للدلالة على قطعة الحجر يمكن لها أن تقرأ على أنها تعني (حجر النار) أي (حجر الصوّان)، وهو الحجر الذي اشتعل بواسطة برق من السماء.

نفس هذا المؤلف جينزبرج افترض أن نيزكا هو الذي كان قد تسبّب في وجود الكهف أو التجويف الكبير تحت الصخرة، وأن الصخرة الحالية ما هي الا هي الجزء المتبقي من هذا النيزك، بعد أن كان الرب قد استجاب بأن أرسل نارا من السماء، على الأرض الخاصة ب(أرونة اليبوسية)، وهي شخصية كتابية، فأحرقت الحنطة التي كانت معدّة للدرس، وهكذا أشار الرب الى تقديس المكان، والى أنه يرى أنها أفضل الأماكن على الاطلاق لتقديم القرابين. (كما في سفر صموئيل الثاني، اصحاح 24، الآية 16 - وكذلك في سفر أخبار الأيام الأولى، اصحاح 21، الآية 26). كان ذلك قد حدث في نفس الوقت الذي كان اليهود مستمرين خلاله في استعمال الهيكل النقّال داخل الخيمة[60]، الذي استعملوه طوال تجوالهم في بادية سيناء الصحراوية.

كان هدف جينزبرج من كتابه هو تأسيس أرضية تاريخية، مستفيدا بما ورد في الكتاب المقدّس من بيانات حول نبيي الله داود وسليمان، يثبت بها قدسية الصخرة.

وقد أشار دارسون آخرون الى التشابه بين هذه الصخرة، وبين موائد القرابين المعدّة من عناصر الطبيعة، التي استعملت لتقديم الذبائح في الديانات القديمة التي عبدت الشمس. في الواقع إنهم أشاروا كذلك الى التشابه بين المخطّط العام لمعبد الملك سليمان، وبين مخطّطات معابد الشمس في أماكن أخرى من الشرق الأوسط. لقد افترضوا غالبا أن وجود صخرة تستخدم لذبح حيوانات القرابين عليها، ثم وجود ثقب أو فتحة أسفل الصخرة يؤدّي الى تجويف، كان مقدّرا لهذا الترتيب أن يستخدم في تصريف الدم المراق من الذبائح عند ذبحها وقبل أن تحرق. لكن بالفحص الدقيق في العصور الحديثة تبيّن عدم وجود منفذ لخروج الدم الذي دخل الى الكهف من الثقب. بالتالي يمكننا بأمانة أن نفترض أن هذه الصخرة كانت مذبحا في وقت من الأوقات، ولكن غالبا قبل الاحتلال اليهودي لمدينة أورشليم.

طبقا للتقاليد والأعراف اليهودية، كانت الصخرة مخبّأة داخل قدس أقداس معبد الملك سليمان. وطبقا لنفس التقاليد والأعراف تمّ العثور عليها في القرن العاشر قبل الميلاد، في نفس الموقع بينما كانت تدق أساسات المعبد. وقد حاول النبي داود أن يزيحها، ولكن حدث أن ارتفعت المياه أسفلها، الى الدرجة التي كان يمكن لها أن تؤدّي الى فيضان آخر، يغطّي سطح الأرض، كما سبق وحدث في

الفيضان على زمن سيدنا نوح، لولا أن تمكّن مستشار الملك داود ويدعى (أهينوفيل) في آخر لحظة من كتابة اسم الرب على الصخرة، مما جعل المياه تتراجع.

في نسخة أخرى من نفس تلك القصة، حدث أن تحدثت الصخرة بصوت واضح لتخبر كيف أنها صوت الرب القادم من سيناء، الذي جعل العالم كله يرتجف.

طبقا للتقاليد والأعراف اليهودية كان لهذه الصخرة وحدها الفضل في منع التفسّخ والتحلّل التام للعالم، لأنها حجر الأساس لكل خليقة الرب. ثم يقولون إنها الصخرة التي ألقى بها الرب في هاوية اللج لفصل المياه عن المياه، وبالتالي هي حقا سُرّة الأرض. إن التوراة نفسها في الاصحاح 14 من سفر التكوين، تحتوي على بقايا من أسطورة تأسيس معبد أورشليم، قبل زمن النبيين داود وسليمان، بمدة طويلة.

فعلى زمن سيدنا ابرهيم، وحسب بيان وقائع أحداث فترة حكم (ملكيصادق)، وهو ملك مدينة سالم، وهو كذلك أعلى كهنة الرب مكانة، أنه تلقى قرابين من سيدنا ابرهيم، ثم باركه بعدها. وكان السامريون[61] يعتقدون أن مدينتي (سالم) و(سيشيم) هما مدينة واحدة، ولكن من المؤكد الى حد بعيد أن من قام بتجميع أجزاء سفر التكوين ووضع هذه القصة داخله، كان في نيته وقصده أن يحدّثنا لا عن (سالم) ولا عن (سيشيم) بل عن مدينة (أورشليم). كما أن السامريين كانوا يعتقدون كذلك أن (ملكيصادق) هو الاسم الجديد لسام ابن سيدنا نوح، أي أنه السَلَف الأول والجد الأكبر لكل الشعوب والأجناس السامية. من المحتمل أن كلمة (سام) التي تعني في اللغة العبرية (اسم) كانت في وقت من الأوقات هي اسم آخر من أسماء الانسان الأول الذي عرفناه باسم (آدم).

إن إبيبفانيوس، الخبير المسيحي المتخصّص في الهرطقات، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، وذهب من فلسطين الى قبرص، ليكون هناك أسقفا لمدينة سالاميس لسنوات عديدة، قال معتمدا على معرفته الضخمة بالأعراف والتقاليد المحلية (إن أهل صيدا من الفينيقيين كانوا قد ادّعوا أن ملكيصادق كان من أصول كنعانية، وأنه ابن عشتروت وهرقل، وفي الغالب فإن الاسم الاغريقي لهرقل يخفي خلفه اسما آخر لأحد آلهة الثقافة المحليّة) لكن اليهود قالوا (إن ملكي صادق كان ابنا لعاهرة، كانت بلا شك تعمل كاهنة في أحد المقامات السورية للإلهة عشتروت).

ومع ذلك فإن الأساطير اليهودية اللاحقة، جعلت من ملكي صادق الباني الأول لأورشليم، وجعلت من موقع تأسيس المدينة مكانا يقع بالقرب من أو حتى تماما فوق المكان الذي دفن فيه سيدنا آدم.

أعتقد أنه يمكننا بأمانة أن نفترض، أن هناك اتجاها في التقليد اليهودي، يبدو قويا بشكل خاص في اسرائيل، وكان معلوما لابيفانوس، يتعمّد أن يقلّل من قيمة التاريخ الوثني لأورشليم قبل النبي داود، ويؤكد على الطابع الاسرائيلي البحت، لحجر التأسيس، الذي مازال موجودا حتى الآن، في موقع قبة الصخرة، الذي كان في الأصل في موقع قدس أقداس معبد الملك والنبي سليمان الحكيم.

فاذا كان هذا التقليد يعود الى زمن أقدم من زمن سقوط أورشليم، ومن الزمن الذي وقعت فيه أحداث الانجيل (العهد الجديد)، وهو شيء ليس بعيد الاحتمال، فإن هذا التقليد سيكون هو كذلك المسؤول عن

استعمال كلمة (جلجثة)، أي جمجمة، أو موضع الجمجمة، لوصف مكان ما خارج مدينة أورشليم أعد فوقه مكان صلب المسيح.

هناك شيء آخر شبيه بذلك يمكن رؤيته على جبل جيريزين Gerizin، حيث سيقوم السامريون بعرض مكانهم المقدّس الأصلي المخصّص لتقديم القرابين على أصدقائهم، على مسافة ما من المكان الذي استعملوه فعلا لتقديم القرابين، ولكن كذلك على مسافة مساوية من خرائب كنيسة مسيحية أقامها الامبراطور جوستينيان (القرن السادس الميلادي)، في موقع المعبد السامري.

في هذه الحالة يبدو أنه من المحتمل أن الامبراطور جوستينيان كان قد بنى كنيسته في الموقع الأصلي للمعبد السامري. وقد استغل السامريون هذا الموقع أفضل استغلال، ولكنهم لاحقا كانوا قد اقتيدوا قسرا الى موقع أبعد من تلك البقعة. وهكذا فمن المحتمل أن سُرّة الأرض كانت قد انتقلت من موقع ايبين شيتايا في قدس أقداس معبد سليمان، الى موقع الجلجثة خارج أسوار مدينة أورشليم.

هناك عدد من الفقرات في التلمود، تسمح بالاعتقاد في أن مركز العالم هو في فلسطين، وهو في الواقع ما يسهل تصديقه حتى اليوم، بالنسبة لكل المؤمنين بالديانتين اليهودية والمسيحية من سكان العالم القديم في أوروبا وآسيا وأفريقيا، فالبعض يشير بالاسم الى أورشليم كمركز للعالم، دون الاحالة الى موضوع صخرة قدس أقداس معبد الملك سليمان. كما أن البعض الآخر يذكر في أحيان أخرى، أن قبر أبينا آدم يقع الى جوار قبر أبينا ابرهيم في مدينة الخليل (هبرون Hebron)، ولكن قد يكون هذا الاعتقاد هو فقط بغرض إبقاء قبر أبينا آدم خارج أورشليم.

وليس من المستبعد على الاطلاق في أن استعمال كلمة جلجثة كاسم للمكان، يشير الى الاعتقاد، في أن جمجمة سيدنا آدم كانت مدفونة هناك، ربما مع عدد آخر من الجماجم التي ألقي بها خارج أسوار المدينة، عند بناء معبد سيدنا سليمان، أو عند إعادة بنائه أو ترميمه بعد أن كان قد تحطّم. طالما كانت أسطورة مركز العالم تلك، وأصل الحياة البشرية، مرتبطة بجمجمة آدم في موقع الجلجثة، أو بالقرب منه، طالما ظل لها الطابع الوثني المضاد لليهودية، وهذا قد يكون هو السبب الذي من أجله أقيم معبد أفروديت اليونانية أو عشتروت الكنعانية، في نفس ذلك الموقع على زمن الامبراطور الروماني الوثني هادريان، الذي حكم الامبراطورية الرومانية في فترة إزهارها بين سنتي 117 و138 ميلادية.

2- التضحية باسحق

هناك ثمّة علاقة بين العبادات اليهودية والعبادات الوثنية التي مورست في نفس الوقت في أورشليم، ويمكن أن نجدها متضمّنة داخل قصة أبينا ابرهيم وتضحيته بابنه اسحق، وذلك باعتبار أن (تل صهيون) هو نفس الجبل المعروف باسم (جبل الرب) في أرض موريا، حيث قام ابرهيم بتقديم قربان الى الرب، هو ابنه الموعود به من قِبَل الرب، والمولود له به في شخوخته. هذا الجزء من قصة سيدنا ابرهيم، ترك أثرا عميقا في كل سلالته الروحية من يهود ومسيحيين ومسلمين، ولكنهم لم يجدوا من السهل عليهم أن يتفقوا حول معنى التضحية باسحق. كما أنهم لم يتّفقوا على اسم الابن المضحّى به، ففي حين أنه اسحق لدي اليهود والمسيحيين، فهو إسماعيل لدى المسلمين.

هذه القصة تؤخذ بشكل عام على أنها العلامة الفاصلة في تاريخ العلاقة بين اسرائيل وبين غيرها من الأمم المحيطة بها، وذلك لأن شعب اسرائيل رفض من الأصل، فكرة التضحية بالأطفال بالشكل الموصوفة به في نصوص التوراة، مثل جعل الأطفال يقاسون بالمرور في النار. فأغلب الباحثين المحدثين، يتفقون على أن استعمال كلمة (مولوخ Moloch) في هذه القصة، ليست دلالة على اسم من أسماء الرب، بل هي دلالة على نوع من أنواع القرابين والأضاحي، وهو النوع الذي يمكن بشكل عام أن يُضَحّى فيه بحَمَل أو بطفل، الى قوى الموت والظلام، حتى يمكن تجنُّب كارثة تحل بالمجتمع ككل. ومع ذلك فليس من السهل على اليهود استعمال كلمة إدانة، بأي معنى لهذه الكلمة، في وصف قصة التضحية باسحق، أو التضحية بأي انسان آخر، حيث إنه من الواضح أن الرب نفسه، هو الذي أمر ابرهيم بتقديم اسحق قربانا اليه، ثم أطرى طاعة ابرهيم. فالقصة لا تحمل أي معنى من معاني الإدانة.

علاوة على ذلك فمن الواضح أنه طبقا للتقليد اليهودي، في أحد الاتجاهات الكثيرة المختلفة لتفسيراته، أنه قد تمّت فعلا عملية التضحية باسحق، أي أن سيدنا ابرهيم قد استعمل السكّين فعلا في ذبح ابنه اسحق دون أن يتدخّل الرب لينقذ اسحق، ولكن الرب أعاد اسحق بعد ذلك من الموت. كانت رغبة اسحق بإرادته الحرّة أن يقدّم نفسه قربانا للرب، وعندما فكّ والده قيوده، تحدّث قائلا (فليكن الرب الذي يحيي الموتى مباركا).

وطبقا لقصة أخرى في نفس هذا الاتجاه من التقليد اليهودي، كان اسحق بعد موته قد حُمِل الى السماء، بواسطة الملائكة، وعاش هناك ثلاث سنوات، وكان ابرهيم قد عاد الى منزله دون ابنه، فماتت سارة والدة اسحق من الصدمة، أو في نسخة أخرى أنها ماتت من عنف الاحساس بالسعادة عندما اكتشفت أنه بعد ثلاث سنوات من موته، قد عاد الى الحياة. يشير هذا الاتجاه في تفسير نصوص التوراة، الى احتمال أن التضحية بالطفل الأول، حسب طلب الرب، لا تعني بالضرورة هلاك هذا الطفل، لكنها تعني بالأحرى، بداية طريق جديد لهذا الطفل، طريق مقدّس مهيب، يقوده اليه الرب.

طبقا لنسخة موسّعة من نفس هذه القصة، قدّمها لنا المؤلف جينزبرج، كان الشك قد راود ابرهيم في البداية، في قدرته ككاهن، على تنفيذ طلب الرب الخاص بالتضحية باسحق، وتساءل (لو لم يكن من

الأفضل) أن يقوم كبير الكهنة (شِم)، بهذا الطقس. كان ابرهيم قد أبلغ سارة زوجته بأنه سيأخذ اسحق الى (شم) أو الى ابن شم (ايبير)، لأنه يريد أن يفهم طُرُق الرب. ويبدو أن لهذه القصة صلة ما بالعلاقة التي كانت بين شم وملكيصادق. إن كل بدايات الطرق المؤدّية الى حيوات جديدة هي خطرة، وكل طريق منها يتضمّن مجازفة حقيقية قد تصل الى حد الموت.

دون شك فإن بعض طقوس تلك البدايات، تتيح للرجال الأكبر سنا منفذا طقسيا للتنفيس عن غيرتهم، التي قد يشعرون بها إزاء البادئين الجدد the initiate، بعيدا عن الهدف الرمزي للطقس. فهناك مثلا طقس التغطيس في الماء أثناء ممارسة شعيرة المعمودية المسيحية baptism، والمقصود بهذا الطقس أن الطفل المعمّد يموت ويدخل تحت الأرض (أي يدفن، مرموزا لذلك بالتغطيس تحت الماء)، ثم يعود الى الحياة بقيامة المسيح من الأموات. وهذا الطقس يمارس ثلاث مرات إشارة الى الثلاث ليالي التي قضاها المسيح في قبره قبل قيامته من عالم الأموات.

هناك كذلك طقس الختان، وبصرف النظر عن الفوائد الصحية التي قد تكون أو قد لا تكون لهذا الطقس أو هذه الشعيرة، فهذا الطقس ليس مقصودا به قتل الوليد أو حتى إخصائه، ولكن المقصود به هو أن تجلب للوليد قوة جديدة، بطريقة تعني تكريسه لدور سيقوم بلعبه، سواء أكان ذلك الوليد ذكرا أم أنثى. في حالة طقس الختان، وهو الذي يمكن اعتباره البداية المبكرة للطريق الذي سيقود هذا الطفل يوما ما الى النضج، يمارس هذا الطقس على الأطفال في سن مبكّر، ليس بغرض تعذيبهم ولكن لأنهم في ذلك السن المبكر يكونون مادة طيّعة سلبية في يد المشرفين عليهم، وأقل عرضة للخطر عمّا كان من الممكن أن يكون عليه الحال لو كانوا أكبر سنا، ولكن مع ذلك فإن هناك حوادث يمكن لها أن تقع. ويمكن لموت الطفل في هذه الحالة، أن يعتبر وسيلة من الوسائل التي يجريها الله ليشير الى قبول الأضحية. إن عددا كبيرا من الهياكل العظمية لأطفال صغار السن أو حديثي الولادة، التي تمّ العثور عليها مدفونة في الأرض، بالقرب من بعض المواقع المرتبطة بإقامة شعائر تقديم قرابين على مذابح، قد تكون لأطفال ماتوا خلال طقوس القرابين، أو طقوس الختان، أو قد تكون لأطفال ماتوا ميتة طبيعية. (الموت الطبيعي هو مصطلح لم يظهر الا في العصور الحديثة، وذلك لأن الموت حتى وقت قريب كان يعتبر في ثقافات عديدة حدثا غير طبيعي).

الا أن الارتباط بين قبول الأرباب للأضحية المقدّمة لهم، وبين قيام هؤلاء الأرباب بتدمير الأضحية تماما، هو علامة انحراف وضلال بدأت في الديانات الوثنية، واستمرت في الديانتين اليهودية والمسيحية. وليس لنا على الاطلاق أن نندهش، لوجود أدلة على ممارسة طقوس قتل الأطفال بكثرة، في أفريقيا التابعة للفينيقيين[[62]]، خاصة في العصر الروماني، وذلك مقارنةً بالأوضاع في سوريا وفلسطين، حيث تشير المراجع التاريخية الى أن طقس التضحية بقرابين من الأطفال، كان يحدث فقط في حالات الطوارىء النادرة جدا، أي في حالات الضرورة القصوى، بعد أن يكون الكهنة قد فشلوا في استرضاء الآلهة باستعمال القرابين الأخرى، وذلك في أوقات الأزمات، كأن يحدث مثلا أن تدمّر العواصف المحاصيل الزراعية، أو عندما يقوم الأعداء بمحاصرة المدينة، أو عندما يحدث أن يتمرّد الأبناء على الآباء، من المحتمل أنه في تلك الحالات قد ينطلق نداء يدعو الآباء الى الاستعانة بذلك التقليد البدائي جدا، الذي هو تقديم قربان الى الأرباب من الأبناء الأبكار، وهو التقليد المبني على

أساس أن الطفل الأول هو من حق الأرباب، كما كان يحدث في بواكير المحصولات الزراعية، وكان قد تمّ فداء الطفل البكر عند مولده بتقديم قربان من حَمَل وديع. ولكن هذا ليس بأكثر من محاولة التفسير التاريخي لجذور عادات بدائية، مثل عادة تقديم قرابين من الحيوانات، وهو نفس ما يقوم به الباحثون، في محاولة اكتشاف المعلومات الحقيقية، التي يمكن أن تكون دلائل على الجذور التاريخية، لبعض ممارسات المسيحية في حقبتها الأولى.

ففي قرطاجة مثلما هو الحال في المكسيك، وكذلك في بعض أجزاء من جزر البحار الجنوبية، كانت القرابين البشرية من المساجين المحكوم عليهم بالاعدام، أو من الأطفال حديثي الولادة، قد أصبحت تبدو كما لو كانت جزءا عاديا من هوس التفاني في تدمير الكائن البشري بدعوى أهداف دينية. في الحقيقة فإن هذا التدمير للكائن البشري هو في صميم ضلال الوثنية. عادة ما تبدأ العبادات الوثنية بتكريس قوى النمو في الطبيعة، كالاحتفال بالعام الجديد، الذي هو في نفس الوقت من ناحية أخرى، الاحتفال بنهاية عام قديم، أي أن مولد عام جديد شرطه الوحيد الذي لا يمكن الاستغناء عنه هو الاحتفال بموت عام قديم، فبداية جديدة تستلزم نهاية قديمة. وهكذا فإن احدى ضلالات الديانة المسيحية، التي تنمو جذورها في الأزمنة الوثنية البدائية، هي أن يكون يسوع المسيح مضطرا الى التضحية بنفسه وبحياته موتا على الصليب، حتى تتمكن جموع البشر بعده من الاستمرار في الحياة.

3- ملكيصادق وسام ابن سيّدنا نوح

في هذا الجزء من الفصل الرابع لن ننشغل بالأساطير الوثنية القديمة، بل بالأساطير المسيحية الحديثة. جلجثة في التاريخ المسيحي هي مكان صلب يسوع المسيح، وهي كذلك المكان المخصّص لعودته المنتظرة الى الحياة، فبالقرب من التل الذي يقع عليه موضع الجلجثة، هناك حديقة بها القبر الذي كان قد دُفِن فيه يسوع المسيح، والذي قام فيه من الأموات. الغريب هو أن هذا المكان حسب المعتقدات الأسطورية المسيحية، هو نفسه موضع قبر سيدنا آدم، وموضع ضريح ملكيصادق.

في المزمور رقم 110 من مزامير داود النبي والملك[63]، وهو أحد مزامير التتويج، الذي كان غالبا ما يستعمل في مراسم جلوس ملوك يهوذا على عرش البلاد، وربما في أعياد التتويج السنوية، احتفالا بذكرى جلوس الملوك على عرش البلاد. افتتاحية المزمور المذكور تجري هكذا (يقول الرب لسيدي اجلس عن يميني)، ثم يستمر المزمور فيما بعد قائلا (أقسم الرب ولن يتراجع، أنت الكاهن الى الأبد على رتبة ملكيصادق). استعمل هذا المزمور لاحقا في الانجيل مرات عديدة، بالاقتباس منه أو بالاستشهاد به، بواسطة يسوع المسيح نفسه في الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا)، ثم في اشارة الرسل والحواريين في سفر أعمال الرسل الى السيد المسيح على أنه ملك متوّج. نفس الشيء (أي الاشارة الى يسوع المسيح على أنه ملك متوّج) جاء في الأسفار المشتملة على رسائل القديسَيْن بطرس وبولس الى الأمم لدعوة شعوبها الى الدخول في الدين الجديد، فمثلا الآية المتعلّقة بملكيصادق، تمثل الجزء الأوسط من الرسالة الى العبرانيين، التي يُعْتَقَد أن مؤلفها هو القديس بولس.

كان مؤلف هذه الرسالة على حق في اعتقاده أن بهذه الآية قدر من التناقض، بين كهنوت اللاويين[64] من ناحية، وهم أحد الأسباط الاثني عشر للشعب اليهودي، وبين كهنوت نسل النبي داود من ناحية أخرى. فالملك هو الكاهن الأعلى، ليس فقط لكونه ملكا، ولكن لأنه كذلك يرمز الى ملكيصادق ملك وكبير كهنة أورشليم، ولهذا فهو يمثّل الانسان الأعلى كما ينبغي له أن يكون، النسخة الأصلية الأساسية، المتفرّدة الوحيدة من نوعها، بلا أب ولا أم ينتمي اليهما، ولا ذُرِيّة تنتمي اليه.

ليس من المصادفة أن يعتقد مؤلف الرسالة الى العبرانيين، أن ملكيصادق لم يكن له مكان في سلالات سفر التكوين، لأنه لم تكن في استطاعته أن تكون له سلالة، فلو أنه (كما قيل) كان في الحقيقة هو سام ابن نوح، أو لو أنه (كما قيل) كان صورة أخرى من صور سيدنا آدم، لكانت له سلالة. لكن ملكيصادق لم يكن سام ابن نوح، ولم يكن صورة أخرى من صور سيدنا آدم. فيما بعد حاول المسيحيون الأوائل، بذل كل جهدهم في تطوير فكرة تقول إن ملكيصادق هو إحدى الصور التي ظهر بها المسيح قبل أوان ظهوره، وقد حدث ذلك في الزمن الذي عاش فيه سيدنا ابرهيم وذريته، حين كانوا يدفعون له العشور في منطقة أورشليم على اعتبار أنه ملاك للرب، وبالتالي على اعتبار أنه من نفحات الروح القدس.

تظهر بعض تأثيرات تلك الأفكار لاحقا، في أسطورة الملاك الذي قاد سام وملكيصادق، وهما في طريقهما من مخزن سفينة سيدنا نوح، الى أورشليم مركز كوكب الأرض، بعد انحسار فيضان الماء عن الأرض، وأثناء نقلهما لجسد سيدنا آدم أو لرأسه فقط، لدفنها هناك. كما تظهر كذلك تأثيرات تلك

الأفكار في بعض ملامح ملكيصادق وتفاصيل ملابسه. ولكن حتى يستقيم الرأي حوله، تمّ لاحقا اعطاء ملكيصادق شجرة أنساب، رغم أنف مؤلف الرسالة الى العبرانيين.

ففي إحدى نسخ هذه القصة، نجد أن لا علاقة لملكيصادق بقصة فلك وطوفان سيدنا نوح، بل هو مولود بشكل غامض مثير للريبة، لامرأة عجوز مسنّة، نعرف أنها زوجة (نير) شقيق سيدنا نوح، التي بعد موتها اكتشف الناس وجود طفلها الغامض، جالسا الى جوار جثة أمه وهو لا يدرك أي شيء، ولا حتى أنه جالس الى جوار جثة أمه، وهو لا يفعل أي شيء الا أن يمسح جسده في ملابسه، كما هو حريّ بأي طفل في الثالثة من العمر أن يفعل. لكن الناس لاحظوا على الفور أنه كان جالسا (في مجد وهدوء عظيمين)، وأنهم عندما فحصوا جسده اكتشفوا وجود علامات النبوّة عليه، مثل خاتم الملكوت على صدره. ثم تقول الأسطورة إنه في سنّه المبكّرة تلك (بارك ملكيصادق الرب بشفتيه دون أي تأخير) و(ثم أكل من الخبز المبارك).

لكن في نسخة أخرى من نفس هذه القصة نكتشف أنه هو حفيد سام ابن نوح، أو ابن حفيده، ورغم أن سام كان في ذلك الوقت قد تقدّم في السن جدا، الا أنه مع ذلك تمكّن من اصطحاب ابن حفيده في رحلة طويلة على الأقدام، من سفينة نوح حيث رست غالبا في تركيا أو في شمال العرق، الى أورشليم، وذلك بهدف وحيد هو فقط نقل جسد آدم أو فقط رأسه الى قبره هناك. في هذه النسخة كان والدا ملكيصادق هما ملاّخ ويوزاداك، وهو نفس ملاّخ الذي يطلق عليه أحيانا اسم ابن كاينان، وهو ليس كنعان ابن حام، وحفيد نوح. ومع ذلك فإن شجرة أنساب العائلة تلك، تحاول أن تقدّم لنا مصالحة بين التراثين الثقافيين لشعبين هما السامي والكنعاني، فيما يتعلق بالشخص الذي كان في اعتبارهما بطلا قوميا ثقافيا لكل منهما.

تبدأ قصة الأسطورة بالضبط مع نوح وأولاده وهم يحملون جثمان آدم، من مقبرته الأولى في (كهف الكنوز)، حيث توجد مقبرته مع مقابر غيره من الآباء المؤسسين الآخرين، آباء فترة ما قبل الفيضان، أثناء نقلهم الجثمان الى السفينة، وكان الأولاد سام وحام ويافث، قد أحضروا لسيدنا آدم هدايا من ذهب ولبان ومرّ[65].

بعد انحسار الماء ورسوّ السفينة على اليابسة، وخروج المخلوقات منها، قام سام وحده منفصلا عن أخويه، وطبقا لتعليمات أبيه نوح، بإخراج الجثمان من السفينة، ثم استعمال أختام أبيه، في إحكام إغلاق أبواب المركب، ووضع أختام أبيه عليها، حتى لا يتمكن أي شخص بعد ذلك من الدخول اليها، أو من اكتشاف ما قام به. ثم شرع مع ملكيصادق في القيام برحلة استكشافية، محتفظين بنفس الدرجة من السريّة، تاركين بقية أفراد الأسرة في رعاية الشقيقين حام ويافث، وقد قابلهما ملاك الرب وسهل لهما طريقهما، الى أن وصلا الى مركز الأرض بقيادة الملاك.

هناك كما يقول النص اكتشفا (أن أركان الأرض الأربعة كانت مفكّكة ومنفصلة بعضها عن بعض، وباطن الأرض مفتوح في شكل صليبي رباعي الأركان)، هناك قام الاثنان سام وملكيصادق، بتدلية جثمان آدم داخل باطن الأرض المفتوح، وعندئذٍ اقتربت الأربعة أركان من بعضها، وانغلقت فتحة باطن الأرض الصليبية الشكل، محتوية جثمان سيدنا آدم داخلها. وقد أطلقت هذه الأسطورة على هذا

المكان أربعة أسماء مختلفة: الأول هو كاركافتا ويعني بالسيريانية الجمجمة، والثاني هو جاجولتا ويعني المستدير، والثالث هو ريزيفتا ويعني المُداس بالأقدام (والتفسير هو أن رأس الشيطان قد سُحِقت هناك)، والرابع هو جيفيفتا ويعني مكان الاجتماع (والتفسير هو أن كل أمم الأرض كان مقدّرا لها أن تجتمع هناك).

في صباح اليوم التالي بنى ملكيصادق مذبحا للرب، مكوّنا من اثني عشر حجرا، وقدّم قربانا من الخبز والنبيذ، من الأعناب التي كان سام قد أحضرها معه من جنة عدن، ووفقا لتوجيهات سيدنا نوح، الذي عيّن سام كاهنا للمذبح حيث عاش الى جواره. بأوامر من نوح، لم يكن مسموحا له بتقديم أية أضحية حيوانية أو نذور عينية، بل المسموح به فقط هو الخبز والنبيذ. ولم يكن مسموحا لسام ببناء منزل، بل كان عليه فقط أن يقيم في المذبح، مرتديا فقط جلود حيوانات متوحّشة كالسباع، وغير مسموح له لا بقص شعر رأسه، ولا حتى بقص أظافر أصابعه، وهي حياة أقرب شبها بحياة الرهبان نسّاك الصحراء. في الواقع كانت صورته تلك تشبه صور الرهبان في الأيقونات الشرقية، خاصة صورة يوحنا المعمدان[66]، الذي كان غالبا ما يظهر في تلك الأيقونات وهو مزوّد بجناحين، لأنه هو أيضا كانوا يعتبرونه صورة من صور الحياة الملائكية، على غرار بعض أنبياء التوراة الذين صعدوا طيرا الى السماء مثل النبي إيليّا.

كلّف سام من قام بإبلاغ عائلته أنه قد مات، وتمّ دفنه حيث مات، وقد تكون هذه هي إحدى الطرق المستعملة في الديانة اليهودية، لاشاعة فكرة أن قبر سيدنا آدم هو نفسه القبر الذي دُفِنَ فيه سام ابن نوح، وبالتالي مع الوقت يمكن اعتبار أن الاثنين شخص واحد. ولكن في نسخة أخرى من القصة عاش سام حتى بلغ من العمر أرذله، وتمكن بالتالي من أن يحضر بناء مدينة أورشليم، بواسطة اثني عشر من الملائكة كما تقول الأسطورة، بل حتى كان موجودا فيها للترحيب بسيدنا ابرهيم عند حضوره اليها، وقد ظهر لسيدنا ابرهيم بعض هؤلاء الملائكة بناة المدينة، كما ذُكِر في الاصحاح رقم 14 من سفر التكوين، ليكونوا فيما بعد من بين حلفائه.

ظهرت كل هذه القصص في كتاب عرف باسم (كتاب كهف الكنوز)، المكتوب باللغة السريانية، والذي يُعْتَقَد أنه كان قد تمّ تجميع مادته خلال القرن السادس الميلادي، حين كانت اللغة السيريانية لا تزال هي لغة الثقافة والعلوم، وأن هذه المواد المُجَمَّعة فيه كانت أفكار موضوعاتها تشغل أذهان الناس خلال فترة زمنية تمتد بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. إن مجموع هذه القصص يرتبط بشدّة بفكرة أساسية، هي فكرة تقسيم الاطار الزمني لأحداث تاريخ العالم حتى القرن السادس الميلادي، الى حوالي خمسة آلاف وخمسمائة عام، وحيث إن المادة المؤلفة تعود في المتوسّط الى سنة 500 ميلادية، فهذا - حسب الكتاب - معناه أن بين مولد سيدنا آدم، ومولد السيد المسيح، هناك فقط خمسة آلاف عام. وتعزى هذه الحسابات الى مؤلف اسمه يوليوس الأفريقي، كان يعيش في منتصف القرن الثالث الميلادي، وبالرغم مما قد يوحي به اسمه، فهو مواطن فلسطيني من بلدة عِمْواس (11 كيلومتر الى الشمال من أورشليم)، وكان صديقا لعائلة من الأمراء في (أوسرحون) شمال سوريا. من المؤكد أنه كان قد تمّ الاستشهاد بأقواله، فيما يتعلق بموضوعات مثل دفن آدم في موضع الجلجثة.

أنا أعتقد شخصيا أنه قد يكون مسؤولا عن تسجيل قدر أكبر بكثير مما نتوقع، من الأحداث والحوادث المسجّلة في مخطوطات العهد القديم في عصره. ثم إن استعماله للمصادر الوثنية، بشكل غير خاضع لأي قيود، خاصة في المناطق المتحدّثة باللغة السيريانية[67]، وهي المناطق التي عاش فيها، مكّنه من تزويد التوراة بكل الاضافات التي رغب في اضافتها، أو من حذف ما أراد حذفه منها، والمثال الذي نسوقه على ذلك في سياقنا الحالي هو نظرته غير الدقيقة الى عمر كوكب الأرض.

إن القصص التي تم العثور عليها في (كتاب كهف الكنوز)، عُثِر عليها كذلك ولكن بشكل مختلف الى حدٍ ما في مصدر آخر هو كتاب (حوليّات أفتيخوس)، وأفتيخوس هو كبير أساقفة الاسكندرية (بطريرك)، من منتصف القرن العاشر الميلادي، وكان في الأصل طبيبا سوريا، ولكنه عُرِفَ في العربية باسمه العربي وهو (سعيد بن بطريق). قد يكون هناك كتاب ثالث أصبح مجهولا لنا الآن، وكان هو المصدر الذي حصل منه مؤلفا الكتابين (كهف الكنوز) و(الحوليات) على معلوماتهما، في الوقت الذي كانت فيه الحسابات الزمنية الخاصة بيوليوس الأفريقي هي إيمان راسخ، أكثر من كونها مجرد معتقدات أو أعراف سائدة.

4- أسطورة الصليب

ومع ذلك فإنه لا يوجد كتاب واحد من كل هذه الكتب قد حاول أن يربط بين شكل الصليب، وبين أشجار جنّة عدن، وغالبا فإن هذا الربط كان قد حدث نتيجة تطوّر لاحق، نشأ جزئيا بسبب تزايد الاهتمام بالبقايا المقدّسة للصليب الحقيقي، وجزئيا بسبب الاعتياد على تقديس الأشجار لدى شعوب تحوّلت لاحقا الى المسيحية. من المهم أن نلاحظ أنه ليست هناك أية إشارة، لأيّة بقايا للصليب الحقيقي، في كل التقارير المبكرة لعمليات الاستكشاف، التي قامت بها في موقع الجلجثة، بعثة الامبراطورة الأرملة هيلانة، والدة الامبراطور قسطنطين[68]، سنة 326 ميلادية، أو بعدها مباشرة. إن أقدم إشارة الى بقايا للصليب الحقيقي، نجدها في موعظة للقديس سيريل من أورشليم، حول منتصف القرن الرابع الميلادي، حين يتحدّث عن شظايا متناثرة حول العالم. ثم في نهاية القرن الرابع نجد حديثا عن ثلاثة صلبان منفصلة[69]، تمّ العثور عليها في موقع قبر يسوع المقدّس، أو بالقرب منه، وعلى قمّة أحدها نجد العبارة التي كتبها عليه بيلاطس البنطي (يسوع الناصري ملك اليهود). ولكن قيل إن هذا لم يكن دقيقا بما يكفي لتمييز صليب يسوع المسيح، عن الصليبين الآخرين، ولهذا كان الباحثون في حاجة الى معجزة. في ذلك الوقت قامت بعثة الامبراطورة هيلانة بانجاز العديد من الاكتشافات.

ولكن هناك نسخة سورية من نفس هذه القصة، تعزي اكتشاف صليب المسيح الى بعثة أخرى لأميرة شرقية، إما أن تكون من أوسرحون بشمال سوريا، أو تكون من مدينة أوديسا الواقعة على سواحل البحر الأسود. عملت هذه البعثة الأخرى بالتعاون مع أسقف أورشليم المعروف باسم سيرياكوس، الذي يظهر اسمه في واحدة من القوائم الأولى كخامس أساقفة المدينة. رغم أنه يبدو بوضوح أنه كان قد تمّ لاحقا إدخال إضافات وتعديلات على القصة الأصلية، تسمح مثلا لقائد الحملة الاستكشافية بإعطاء أوامر الى القائد الاداري للمنطقة الجغرافية، أي الى السلطات المحلية، وهو ما لا يتحقق الا اذا كانت القوة الامبراطورية التي تستند البعثة عليها تسمح به. في ذلك الوقت المبكر من القرن الرابع، كانت لا تزال هناك فرصة للعثور على بقايا خشبية، كان عمرها في ذلك الوقت بالكاد ثلاثة قرون.

أعتقد أن عملية العثور على بقايا الصليب قد تمّت أثناء عملية دقّ أساسات معبد أفروديت. الحقيقة المؤكدة هي أن هذا المعبد كان قد أقيم فوق منطقة مدافن، وذلك لأنه يمكننا حتى الآن رؤية ما يتبقى من مقبرتين غير منتهيتين، تقعان تحت أساسات المعبد، التي كانت قد دقّت في الأرض بعد أن كانوا قد أزالوا منها قدرا كبيرا من تربة المدافن.

يمكننا كذلك أن نكون متأكدين بقدر من معقولية التفكير، من أن كنيسة القبر المقدّس الحالية، تقع خارج أسوار المدينة القديمة التي دمّرها الامبراطور هادريان، الذي حكم الامبراطورية الرومانية بين 117 و138، في فترة إزدهار الوثنية الرومانية، قبل أن تبدأ المسيحية في التغلب عليها بداية من القرن الرابع الميلادي. ليس من الصعب تخيّل أن القبر المقدّس كان يحمل على جدرانه الكثير من العلامات الدالة عليه، مع الأخذ في الاعتبار الاغراءات التي تعرّض لها كل زوّار القبر المقدّس

المخلصين الخاشعين، في القرون الأولى للميلاد، بتسجيل أسمائهم وتواريخ زياراتهم على الجدران.

الى هنا في هذا الكتاب، نحن لا نزال معتمدين على نتائج اكتشافات بعثة الامبراطورة هيلانة، التي يمكن الاستدلال على أن لها ما يدل عليها تاريخيا، ونتائج التقارير المبكّرة لهذه البعثة التي تشير الى 1- موقع كنيسة الاستشهاد المارتيريوم (Martyrium) التي كانت قد بنيت فوق موقع الصليب على هضبة الجلجثة، والمواقع التالية التي بنيت عليها لاحقا المجموعة المعمارية التي تشمل 2- المبنى الدال على موقع قيامة المسيح من الأموات الأناستازيس (Anastasis) 3- المبنى الدائري المحيط بهما وبالقبر المقدّس الروتاندا (Rotunda).

ثم نأتي الى بعض المعلومات الجديدة، وهي أن الموقع المتعارف عليه لاكتشاف الصليب، ليس هو موقع القبر المقدّس، وإنما هو موقع صهريج ماء مهجور، يعود الى نفس الحقبة الزمنية، أي الى أوائل القرن الأول الميلادي، وقد تم تنظيفه واستعماله خلال فترة بناء كنيسة الاستشهاد (المارتيريوم). فقد أشار القديس سيريل، الى أن أجزاءً من الصليب قد تمّ العثور عليها هناك، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول إنها قد لا تكون الأجزاء الوحيدة التي عثر عليها لصليب المسيح، وذلك لأن هناك ما يدعو الى الاعتقاد بأن أجزاءً أخرى كان قد عثر عليها وتمّ نقلها الى مدينة أوديسا. غالبا فإن تلك الأجزاء في أوديسا كانت قد اكتشفت ونقلت الى أوديسا قبل أن تقوم الامبراطورة هيلانة ببعثتها، التي كانت السبب في ازدياد الاهتمام الشعبي في العالم كله بقصة آلام المسيح.

إن كل المراجع المبكرة المتاحة لنا حاليا، تشير الى أن المعثور عليه هو إما شظايا من الخشب أو من الحديد المستعمل في المسامير المدقوقة في الخشب، ولم يدّعِ أحدٌ على الاطلاق أنه قد رأى يوما ما الصليب بأكمله، وطبعا من الواضح أنه لو كان قد تمّ العثور على صليب بأكمله، سليما مكتملا، فلا يمكن أن يتحطّم هكذا سريعا الى شظايا، ففي الغالب أن هذا الصليب قد تحطّم إما بفعل فاعل، أو بفعل الزمن والاهمال خلال ثلاثة قرون. إن العدد الذي انقسمت اليه شظايا الصليب، والذي يقدّر بالمئات، وتم توزيعه عبر أرجاء المعمورة، لا يمكن تفسيره، الا إذا كانت كل قطعة خشبية أو حديدية عثر عليها في الموقع، قد اعتبرت جزءا حقيقيا من الصليب الأصلي، وبالتالي اعتبرت أثرا مقدّسا، وبالتالي هي وسيلة يمكن بواسطتها الاحساس بالاتصال المباشر بجسد يسوع المسيح. وقد انتشرت في العالم القديم، عادة محاولة علاج بعض الآلام باستعمال الأشياء المقدّسة، وجعلها تلامس الأجزاء المريضة من الجسم البشري، فلو أنه كانت قد حدثت فعلا بعض المعجزات الشفائية، فإن هذا كان قد حدث نتيجة قوة الايمان، لا نتيجة القدرات الشفائية المعجزية للأشياء المقدّسة. وبالتالي ليس من المدهش أن نعرف أن تلك المعجزات قد اعتبرت دليلا كافيا على أصالة تلك الأشياء الأثرية المقدّسة [70].

عندما أصبح المسيح المصلوب رمزا دينيا مركزيا مهما، أصبحت فترة بداية استعمال الصلبان فترة تاريخية مثيرة للاهتمام. ومن أكثر القصص شيوعا في التاريخ الغربي حتى عصر النهضة، هي تلك القصة التي تحكي أن تفاحة آدم هي الأصل في الصليب! تفاحة آدم هي تلك العظمة الغضروفية التي تقف في منتصف الحلق عند الرجال، وقد ادّعت الأسطورة أن فاكهة شجرة معرفة الخير من الشر، وهي شجرة تفّاح، قد وقفت في حلق سيدنا آدم بعد أن كان قد عصى أمر ربّه وأكل من الفاكهة

المحرّمة، وأن بذرة من تلك التفاحة أثناء أكل آدم لها، قد سقطت في التربة، ونبتت منها شجرة واحدة، أو ثلاث شجرات، من بينها الشجرة التي صُنِع منها صليب يسوع المسيح. ونفس هذه الأسطورة تقول إن شجيرة، أو فرع من هذه الشجرة، كان قد استعمل في صناعة العصا، التي استعملها سيدنا موسى في معجزاته التوراتية في أرض مصر، التي تقع زمنيا تقريبا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

تستأنف الأسطورة كلامها قائلة إن نفس هذه الشجرة كان النبي داود قد عثر عليها، واستعملها في عجائب عديدة، ثم زرعها في حديقة قصره في أورشليم، وقد حدث هذا زمنيا تقريبا في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنها قطعت عندما شرع الملك سليمان في توسيع نفس القصر، وفي بناء المعبد، لأنه لم يكن للشجرة المكان الكافي في أيٍّ منهما، وبعد قطعها ألقي بها جانبا في خندق محفور في الأرض، استعمل لاحقا في تصريف المياه المستعملة، فعاد جذع الشجرة الى الظهور عندما طفى فوق سطح الماء، واستعمله الناس كجسر للعبور عليه بين جانبي الخندق. عندما جاءت ملكة سبأ في زيارة الى الملك سليمان، كانت ذات مرة على وشك أن تعبر الجسر بين جانبي الخندق، فتعرّفت - بقدرة معجزية - على الفور على طبيعة هذا الجسر، وحقيقة المصير الذي آل اليه، وخلعت نعليها لتخوض المجرى المائي أسفله، رافضة أن تضع قدميها عليه. فيما بعد وَجَّهت نصيحة الى الملك سليمان، بضرورة نقل هذا الجذع الخشبي الى المعبد، واستعماله كعتب علوي لأحد أبواب المعبد، مع تغطيته بالذهب والفضّة، وهو ما فعله فعلا الملك سليمان حسب ما تقوله الأسطورة.

ولكن حفيدا شريرا للملك سليمان، تسمّيه الأسطورة أبيجاه Abijah، نزع المعدنين الثمينين عن جذع الشجرة، ثم لاخفاء جريمته أخذ الجذع ودفنه في موقع قريب، سيكون لاحقا مكانا لحفر بركة مياة، تسمّيها الأسطورة بيثيسدا Bethesda. من الغريب أن فضائل هذا الجذع الخشبي، بالاضافة طبعا الى معاونة من ملائكة السماء، ظهرت في مياه البِرْكة، التي أصبحت ذات قوة سحرية في شفاء الأمراض المستعصية، لكل من أقبلوا على الاستحمام فيها وقد ابتلوا بالأمراض.

وقد استمرت هذه الكرامات قرونا طويلة، بين زمن سيدنا سليمان وزمن مجيء المسيح، حوالي عشرة قرون، عندما عاد الجذع الخشبي الى الطفو، فأُخِذ ليصنع منه صليب المسيح. وفي نسخ أخرى من نفس هذه القصة الأسطورية، نجد أن المؤلفين الشعبيين الفولكلوريين قد قاموا بادخال بعض التفاصيل الجديدة المختلفة، منها مثلا أن جذع الشجرة التي صنع منها صليب المسيح قد جاء مباشرة من أحد أفنية معبد الملك سليمان، حيث كانت الشجرة تنمو في موقع قريب من موقع الصلب على تل الجلجثة، وهو الذي تعود الأسطورة الى إطلاق اسم شيتايا Shetiyah عليه.

وفي نسخة أخرى كانت أمنا حوّاء هي التي أخذت معها عند خروجها من جنة عدن، فرعا ميتا من شجرة معرفة الخير والشر، عندما زرعته تحوّل من اللون الأبيض الى اللون الأخضر، الذي كان يزداد اخضرارا مع مولد كل طفل من أطفالها، ثم تحوّل الى اللون الأحمر عند مقتل ابنها هابيل. وقد استمرّت هذه الشجرة - حسب الأسطورة – أربعة آلاف عام، حتى زمن الملك سليمان، حين صنعت احدى زوجات الملك من الأخشاب ذات الألوان الثلاثة، التي كانت لا تزال تلوّن الأفرع المختلفة لهذه الشجرة، صنعت منها مغازل خشبية بالألوان الثلاثة الحمراء والخضراء والبيضاء، وعلقتها فوق

الفراش الملكي ليتم تحميل ستائر الفراش عليها.

تقول الأسطورة إن هذا قد تمّ بهذه الطريقة ربما لأسباب سحرية تتعلق بالميلاد والموت.

في قصة فرسان الكأس المقدّس[71] the holy grail التي لاقت قبولا وانتشارا كبيرا في أوروبا القرون الوسطى، بداية من القرن الثالث عشر، تذكّروا أنه تمّ العثور على تلك المغازل الخشبية في سفينة الملك سليمان. وكما هو واضح وجليّ فإن النصوص المستعملة في هذه القصة أقدم بكثير من زمن كتابتها وبداية انتشارها. وفي نسخ مختلفة حدثت تنويعات على هذه الألحان الرئيسية، عبر القرون، فإن حواء يمكن لها أن تكون أي أم مقدّسة أخرى، أو أيّة ربّة من ربّات الميلاد والموت، أو من ربّات الخلق والتدمير، والدة لكل الأحياء، وبالتالي ستكون لأخشابها بالضرورة قدرات سحرية. وقد تكون سفينة الملك سليمان، هي سفينة منتمية الى أي ملك آخر بشرط أن يكون حكيما.

هذه الأعمال الأدبية، لا يمكن اعتبارها مجرّد أساطير بالمعنى الضيق لهذه الكلمة، ولكن هذه الأعمال تشير بوضوح الى الطريقة التي تنمو بها الأساطير، بالاضافات المختلفة اليها عبر الزمن. ففي قصة حلم الصليب[72] مثلا، the dream of the rood، التي من المحتمل أن تكون قد كتبت في اقليم نورثومبريا Northombria، في نهاية القرن السابع الميلادي، يكون الراوي هو الصليب نفسه، وهي فكرة مبتكرة في ذلك الوقت المبكّر، الذي يروي لنا قصة صلب المسيح، من وجهة نظره الخاصة فيقول (كنت في طرف الغابة عندما قطعوني ونحتوني...)، ثم كذلك (كيف أن ربّ الجنس البشري، قد جاء نحوي بسرعة وشجاعة، لأنه انتوى أن يصعد فوقي...).

هذه الأعمال الأدبية كانت تصاغ في الأغلب الأعم في قوالب شعرية، حسب تقاليد السرد والحكي في القرون الوسطى، لتسهيل حفظها وانتقالها عبر الأماكن والأزمان، ولكن رغم أن هؤلاء الشعراء المؤلفين كانوا يأتون من ثقافات مختلفة، الا أنه كان منهم من يأتي بوضوح من ثقافات عبدت الأشجار، أو عبدت أرباب سكنوا فوق أفرع الأشجار، فنجد مثلا ربا عظيما من أرباب شمال أوروبا، مثل أودين Odin[73]، الذي أنهى حياته مضحيّا بذاته بأن شنق نفسه على فرع شجرة، ثم وجدوا جثته متدلّية. في تلك الأساطير الأوروبية الشمالية، كانت الشجرة أعظم وأقدم من أي رب آخر هناك، بسبب أن غابات سكانديناڤيا هي من أقدم كائنات تلك البلاد. وهذا يعطي للصليب الخشبي دورا مركزيا في قصة الصلب، خاصة في أوروبا، في كل من الخيال الأدبي للعصر الوسيط، وفي الخيال البروتستانتي في عصر النهضة.

الفصل الخامس

عذاب الجحيم

إن (عذاب الجحيم)، هو عنوان قصّة خيالية شعبية ألّفها شخص اسمه نيقوديموس، يمكننا مع التجاوز اعتبارها عملا أدبيا، أصبح يعرف فيما بعد باسم (بشارة نيقوديموس) أو إذا أردتم الدقة (انجيل نيقوديموس) وذلك لأن كلمة انجيل تعني (بشارة). تكوّنت هذه القصة من عناصر أدبية (شخصيات/ أحداث/ زمان/ مكان)، سبق لها الظهور في أشكال أدبية أخرى أكثر قِدَما من عمل نيقوديموس، وأخص هنا بالذكر بعض أسفار التوراة والانجيل، المعروفين لدى الخاصة باسم العهد القديم والعهد الجديد، ثم طوّرت هذه القصة نفسها وازدادت نموّا باضافات متعدّدة من نسخة الى أخرى، أولا في اللغة اليونانية، ثم ثانيا في الترجمات المتتالية لها في اللغات الأخرى.

في الأشكال الأقدم لهذه القصة كانت تبدو للقارىء كما لو أنها مستوحاة من قصتين من قصص الكتاب المقدّس، لشخصين مقدّسين تمّ رفعهما الى السماء، شوهدا هما أيضا في سماء أورشليم، أو في السماء حول أورشليم، في نفس توقيت رفع جسد المسيح من على الأرض، ثلاثة وخمسين يوما بعد موته على الصليب ودفنه في القبر، أو خمسين يوما بعد قيامته من الأموات. وهذا حدث وفقا لفقرة في بشارة القديس متى (انجيل متى) في الاصحاح رقم 27، وفي العددين 52 و53 منه.

أو أن يكون هذا النص، هو فكرة في ذهن كاتب الانجيل، فكرة جاءت الى ذهنه، في فترة لاحقة، تالية على زمن وقوع الأحداث، كانت النية وراء استعمالها، هي رفع مستوى الدليل على صحة واقعة الرفع الى السماء، الى مستوى شهادات رؤية العين، التي لا يمكن التشكيك فيها. وقد تحدّثت كل الأناجيل عن عدد من ظهورات لجسد السيد المسيح، بعد قيامته من الأموات، لعدد من تلاميذه وحوارييه، الذين كانوا في تلك الحالات غالبا مجتمعين كلهم، أو على الأقل عدد منهم.

إن هذه الأسطورة المتعلقة بالقيامة من الأموات، وبالذهاب الى العالم الآخر، التي نحن بصددها هنا، والتي أطلقنا عليها اسم (بشارة نيقوديموس)، مهمة جدا في تاريخ الآداب الشعبية الفولكلورية، كمصدر أول اتخذ لاحقا صورا عديدة، أو عيّنة أولى تشكّلت لاحقا بطرق مختلفة، في كل تراث السرد والتمثيل المسرحي في أوروبا القرون الوسطى.

1- النزول الى الجحيم

تبدأ القصة الخرافية عند منتصف الليل في العالم الآخر، حين يبزغ من الظلام ضوء قريب الشبه من ضوء الشمس، فيبتهج الجميع ابتهاجا عظيما، خاصة سيدنا ابرهيم، وفي نسخة أخرى سيدنا آدم، قائلا (هذا الاشراق يأتي حتما من مصدر ضوئي عظيم). هنا يعيد اثنان من أنبياء العهد القديم نبوءتيهما، أحدهما هو أشعياء والآخر هو النبي يحيى (يوحنا المعمدان)، وقد أضاف يوحنا تحذيرا الى عابدي الأوثان، قائلا لهم (هذه هي فرصتكم الأخيرة، فانتهزوها واعبدوا المسيح).

يأتي بعد ذلك في نص القصة حوار بين ابليس وملك الموت، يحذّر فيه ابليس ملك الموت من يسوع، ومن ادّعاءاته المخاتلة المخادعة، فيخاف ملك الموت ويرتعب، وذلك لأنه سبق له أن حصل على اليعازر[74] ميتا، ثم فقده عندما ردّه يسوع الى الحياة، والآن هو يخشى أن يفقد كل الموتى الذين سيتمّكن يسوع من ردّهم أحياءً. قال ملك الموت (أرى أن كل أولئك الذي ابتلعتهم في جوفي منذ بداية العالم منزعجين، ثم إن لدي ألم في معدتي). أثناء هذا الحوار قصف الرعد قائلا (ارفعوا بواباتكم أيها الحكام وأزيحوا أنفسكم، وذلك حتى يصل ملك المجد داخلا).

تقول الأسطورة إن الشيطان وعفاريته حاولوا أن يسدّوا البوّابات، صائحين (من هو ملك المجد هذا؟)، لكن الأنبياء يسخرون منهم، خاصة أشعياء والملك داود، وتجيب الملائكة (إن رب العظمة في معركة، وسوف تتكسر البوابات النحاسية، وسوف تنهار وتنسحق الحواجز الحديدية، وسوف يتحرّر كل المكبّلين بالقيود، وسوف تضاء كل أماكن الموت المظلمة)، يحتج ملك الموت وجماعته قائلين (من هو ذلك الذي لديه كل تلك القوة فوق كل الأحياء والأموات؟)، هنا في نصّ القصّة يتدخّل المسيح ويقتنص الشيطان من رأسه ويسلّمه الى الملائكة، طالبا منهم أن يسدّوا فمه لاسكاته، وأن يقيّدوا يديه وقدميه، ثم أعطاه لملك الموت قائلا (خذه وأحتفظ به مقيّدا حتى موعد مجيئي الثاني). وبينما كان ملك الموت يصب الخزي والعار على الشيطان، رفع المسيح سيدنا آدم أبا البشر الى أعلى، وأخذه معه الى الفردوس، مع كل البطاركة[75] الآخرين من آباء الشعب اليهودي، وأنبيائه وشهدائه وأسلافه، مباركا إيّاهم جميعا بعلامة الصليب.

تقول الأسطورة إنه بعد صعودهم جميعا معا مرفوعين الى السماء، ووصولهم الى بوابة الفردوس، قابلوا هناك اثنين من أنبياء اليهود هما اينوخ وايليا، وكذلك لحق بهم هناك اللص الذي تاب أثناء صلبه مع يسوع المسيح، ووعده يسوع بأن يكون مصيره معهم في الفردوس، ولكن هذا اللص كان قد جاء عن طريق (بوّابة السيف الملتهب)، التي لا يستطيع المرور منها الا من كان قد حصل من المسيح شخصيا على كلمة سرّ جواز المرور، وهو دليل على صدق توبة اللص المصلوب مع المسيح. وهذا حسب ما جاء في سفر التكوين الاصحاح الثالث العدد 24.

تقول الأسطورة إن الموتى الذين سيقومون من الأموات، سيعتقدون لبعض الوقت أنهم لم يصعدوا أبدا الى السماء، بل أنهم ما زالوا على الأرض، وذلك الاعتقاد كان بسبب أن بعضهم ذهب للحصول على معموديته في مياه نهر الأردن، كما لو أنهم لم يموتوا ولم يقوموا من الأموات. ثم بعد ذلك يظلون هناك الى جوار نهر الأردن، للاحتفال بعيد الفصح في أورشليم. إن الغياب التام في هذه الأسطورة،

لأي تفريق واضح بين هذه الصورة التي انتهينا للتو من رسمها، وبين صورة البعث العام لكل أموات البشر، كما وصفته الأناجيل في يوم القيامة، يبدو لي كما لو أنه كان ذا دلالة كافية على أن جوهر ولب وصميم أحداث هذه الأسطورة يقع في زمن مبكّر جدا.

إن الاشارات الموجودة هنا أولا الى موعد المجيء الثاني ليسوع المسيح، وثانيا الى منظر تكبيل الشيطان، تعيدنا الى سفر رؤيا القديس يوحنا، كما أنه يمكننا أن نرى أن الكثير من مادة هذه الأسطورة، يتكوّن من اقتباسات من سفر أشعياء، ومن مزامير داود. علاوة على ذلك فإن شخصيات هذه المسرحية الدرامية، يمكننا أن نجدها في الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس، التي تعتبر من الانتاج المبكر لرسائل القديس بولس، الرسائل التي تعتبر هي نفسها من أقدم كتابات العهد الجديد.

في الاصحاح الثاني من هذه الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس، أعداد 7 و8، نجد (إن حكمة الله المحجوبة، التي سبق أن أعدّها الله قبل الدهور من أجل مجدنا نحن البشر، هي حكمة لم يعرفها أحد من رؤساء هذا العالم، فلو عرفوها لما صلبوا ربّ المجد).

إن الإشارة هنا مبدئيا ليست الى قوى الكنيسة والدولة، ليست الى قيافا كاهن أورشليم، ولا الى بيلاطس الحاكم الروماني للاقليم، ولكن الإشارة هنا الى قوى كونية مرتبطة زمنيا بعذاب الجحيم.

في نفس الرسالة اصحاح 15 الأعداد من 21 (فبما أن الموت كان بانسان، فإن قيامة الأموات أيضا تكون بانسان، فإنه كما يموت الجميع في آدم، فكذلك سيحيى الجميع في المسيح، وذلك لأنه لا بد له أن يملك، حتى يضع جميع أعدائه تحت قدميه، وآخر عدو يباد هو الموت).

هذه هي نفس اللغة التي تتحدّث بها الأسطورة، اللغة التي تروي على التتابع، وبقدر من الصراحة، بل حتى بقدر من الفجاجة، بعضا من الأحداث المتتالية، وهي نفس اللغة المستعملة في رسائل أخرى الى شعوب المنطقة، في فترة منتصف القرن الأول للميلاد، مثل رسالة القديس بطرس الأولى، اصحاح 3 الأعداد من 18 الى 22.

أو كما في انجيل القديس يوحنا، الذي ينطق فيه المسيح بهذه الكلمات (إن الساعة آتية لا ريب فيها، الساعة التي يسمع فيها الأموات صوت الله، بل هذه الساعة هي الآن، والذين يسمعونه يَحيَوْن)، ثم هناك كذلك (هذه هي الساعة التي يسمع فيها كل من في القبور صوته، فيخرجون منها)، وهناك كذلك (فالذين عملوا الصالحات، يخرجون الى القيامة والحياة، أما الذين عملوا السيّئات، فيخرجون الى القيامة والى عذاب الدينونة).

هنا في هذه النصوص نجد أن البعث عام لكل الموتى، وكذلك نجد الاشارة الى عذاب الجحيم، لأن قيامة المسيح بعد موته، وارتفاعه الى السماء بعد قيامته، أعطت المثل للمسيحيين الذين سيرتفعون مثله الى السماء بعد قيامتهم من الأموات.

لفترة زمنية طويلة ظلت مفردات الأساطير هي اللغة المألوفة والمسيطرة على السرد، ولم تكن هناك مشكلة طالما كان من الممكن بواسطتها، الجمع بين التوقّعات المختلفة الخاصة بالحكم الألفي للمسيح،

الذي كان يعبّر عنه أحيانا بلفظ الحصاد لعدد ضخم من عناقيد العنب، حلو المذاق زكي الرائحة، وبإحساس المشاركة خلال الزمن الحالي، في ملذات الحياة بعد القيامة من الموت، ليس فقط - كما تقول الكنيسة الحالية - عن طريق المشاركة في سر التناول من جسد ودمّ يسوع المسيح، ولكن كذلك بمشاركة المحبة بين الأخوة في الأعياد.

عاش المسيحيون الأوائل بشكل عام، في عالم كانوا يؤمنون، بأنه عالم يسكنه الكثير من الشياطين، والقليل من الملائكة. اعتقد المسيحيون الأوائل، أن المسيح والملائكة كانوا قد وجّهوا الضربة القاضية الى الشياطين، الذين ابتلوا بهزيمة مؤكدة، وأن دمارهم النهائي قادم لا ريب فيه، وأن المسألة ليست الا مسألة وقت. كان هناك اعتقاد بأن استمرار نفوذ الشياطين في العالم، يعود في معظمه الى أن الشياطين هم أرباب، لهم قدرات ربّانية. لذلك حَرِص المسيحيون على ممارسة طقوس إخراج الأرواح الشريرة والشياطين، من أجساد كل الذين كانوا وثنيين وتحوّلوا الى المسيحية، كانت تلك الأرواح الشريرة والشياطين، قد سكنتهم لأنهم كانوا وثنيين، والآن آن لها أن تخرج من أجسادهم، بعد أن تحوّلوا الى المسيحية.

إن أولئك الذين كانوا يعيشون في المنطقة الرمادية، بين نور الإيمان المسيحي وظلام الوثنية، وهي المنطقة التي كانت ممتدّة الى حدود بعيدة، في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، كانوا قد بالغوا في تقدير قوة الشر في العالم الذي عاشوا فيه. فمثلا هناك الجماعات الغنوصية[[76]] Gnostic، التي كانت تبحث عن مخرج من الوجود المتأزم، في هذا العالم المتهالك، مخرج الى مستوى أعلى من الوجود، التي نظرت الى المسيح باعتباره روحا مقدّسا، دخل الى هذا العالم قادما اليه من عالم آخر، أو باعتباره رئيسا للملائكة جاء لمساعدة أتباعه من البشر الذين يخدمون أغراضه، أو حتى باعتباره الها أو ربا جاء مثل غيره من الأرباب أو الربّات أبطال الأساطير. الشيء المؤكد بالنسبة اليهم أنه لم يولد ولادة طبيعية، بل أظهر نفسه كما لو كان وهجا من نور، لا تتمكن أي عين بشرية من تحمّل النظر اليه طويلا.

وقد غيّر من شكله، ليتناسب مع أولئك الذين كانوا معه، مثلما حدث له في واقعة التجلّي[[77]] Transfiguration، ثم حدث له مرة أخرى في مرحلة ما بعد العودة الى الحياة، أو ما بعد البعث.

2- الأشكال التي ظهر بها المسيح

إن المسيحيين الذين رفضوا فكرة أن للمسيح أشكالا مختلفة ظهر بها في المناسبات المختلفة، وجدوا أنه من الصعب كذلك تقبّل فكرة تقديم المسيح، على أنه كائن الهي وبشري في نفس الوقت. لذلك السبب نفسه رفضوا فكرة أن الرب يموت ثم يعود الى الحياة. كان ظهور المسيح في صورة ربّ، نادرة جدا في فنون التصوير الجداري في المقابر المدفونة تحت الأرض (الكاتاكومب ca) في العصر الروماني. في تلك المقابر يمكنه أن يظهر في صورة الطفل الرضيع بين ذراعي أمه، أو في صورة الانسان الذي يتقبّل معمودية النبي يحيى في مياه نهر الأردن. إن معظم الصور الحائطية واللوحات الجدارية في الكاتاكومب، تمثل عددا من أعمال حياته ومعجزاته. ثم هناك كذلك عدد لا بأس به من هذه اللوحات يمثّل قصة النبي يونس (يونان) في بطن الحوت بعد أن ابتلعه، ثم كذلك بعد أن لفظه، وذلك للجانب الرمزي من هذه القصة، الذي استغله وعّاظ الكنيسة مرارا وتكرارا، فكما أن النبي يونس كان في بطن الحوت ثلاثة أيام، شبه محكوم عليه بالموت، ثم بُعِثَ من جديد، هكذا كان أيضا يسوع المسيح في قبره في قلب الأرض ثلاثة أيام، شبه محكوم عليه بالموت، ثم بُعِثَ من جديد.

من الشخصيات الأخرى المفضّلة في التصوير الجداري، نجد شخصية سيدنا نوح، ومعه مناظر الفلك والحيوانات المختلفة على ظهره، وذلك لأن هذه السفينة أصبحت رمزا للكنيسة، التي تنقذ جماعة المؤمنين من أخطار طوفان الشرور في العالم. نجد كذلك صورة النبي دانيال (وهو أحد أنبياء التوراة) وقد تعرّض للتعذيب، ثم تعرّض لالقائه في عرين الأسود، التي رفضت أن تلمسه بل حتى أن تقترب منه. هناك كذلك معجزة إقامة أليعازر من الأموات، وقصة المثل الذي ضربه المسيح عن الراعي الصالح، الذي يهتم بالذهاب للبحث عن شاة واحدة ضالة من قطيعه الكبير. ومن المناظر المألوفة في التصوير الجداري في بداية عصر المسيحية، نجد منظرا من الأساطير اليونانية، وهو منظر أورفيوس الذي يلعب على آلته الموسيقية (القيثارة)، وترقص حوله حيوانات الغابة المتوحّشة، وقد تحوّلت بفضل موسيقاه الى حيوانات أليفة. وقد يكون تفسير وجود هذا المنظر، هو أن الفن الوثني يخبر بقدوم المسيح. ولكننا لو عرفنا أن أورفيوس - طبقا للأسطورة اليونانية - كان قد ذهب الى العالم الآخر للبحث عن زوجته المتوفاة، لفهمنا الصلة بينه وبين مناظر جدران مقابر القرون الأولى للمسيحية.

إن أورفيوس يبدو أقرب الى أن يكون واحدا، ضمن صف طويل من أولئك الذين ينزلون الى العالم السفلي، عالم الموتى، للبحث عن أحبّاء لهم ماتوا وسبقوهم الى هناك، مثل عشتار (أو عشتروت) التي ذهبت الى هناك لإنقاذ بعل Baal من الموت، أو هرقل الذي ذهب ليبحث عن برسيفون، أو أورفيوس (الذي نحن بصدده هنا) الذي ذهب ليبحث عن زوجته يوريديس. ومن بين كل هؤلاء الأبطال الأسطوريين، فإن أورفيوس هو أكثرهم إقناعا وذلك لأنه أقربهم الى دغدغة المشاعر الانسانية، لأنه في الأصل بشر وليس الها. استعمل أورفيوس فتنته كرجل جميل، وعازف على القيثارة، وصاحب صوت جميل يغني به أغانيه، لاستدرار العطف عليه من الكائنات التي قابلها أثناء رحلته الى العالم الآخر، ولم يفعل كما فعل الآخرون باللجوء الى الخداع أو الى استعمال القوّة

المفرطة. ورغم فشله في استرداد زوجته، ورؤيته لها وهي تتلاشى أمامه، الا أن تعاطف البشر مع قصته، هو بفضل التعاطف الطبيعي من البشر تجاه مظاهر الضعف البشري.

كانت المسيحية في القرن الثاني الميلادي واحدة من الديانات الغامضة، ورغم ذلك فقد وفّرت لمعتنقيها الجدد، قدرا من المشاركة في الحياة العامة، خاصة لو كانوا في الأصل قبل اعتناقها، من بين الفئات المعزولة عن المجتمعات لأسباب عقائدية أو لأسباب عِرْقِيّة (إثنية ethnic)، أو من بين العبيد المعتوقين مؤخّرا من العبودية، أو من بين الأرامل والأيتام، وقد كان هؤلاء هم أكثر من أقبلوا على الديانة الجديدة. ففي الشوارع الخلفية للمدن الهيلينستية[78]، مثل أنطاكيا أو الاسكندرية، اختلفت المسيحية في غموضها، عن الغموض المحيط بغيرها من الديانات، في كونها قد قدّمت للمؤمنين الجدد بها، أكثر من مجرّد جواز مرور الى السماء، فهي في تنويعاتها الأكثر هرطقة، وفي شطحات بعض فلاسفتها، قدّمت للمؤمنين الجدد وعدا بالتحوّل في هذه الحياة الأرضية، ثم جاءت الأحداث لتؤكد على هذا الوعد بالتحوّل، في مثالية الحياة المشتركة، التي عاشتها الجماعات المسيحية الأولى، مطبّقةً نظاما أقرب الى نظم اشتراكية القرن العشرين.

في البداية كان للمسيحية عدد قليل من الأتباع المتعلمين، أو من الأتباع المنتمين الى طبقات راقية، الذين كانوا أحيانا ينجذبون اليها، فقط بسبب احتقارهم لفلاسفة الوثنية، وعدم رضاهم عن هلوسة الأساطير اليونانية. هذا رغم أنني شخصيا لا أرى أي سبب لافتراض، أن الأسطورة المسيحية كانت أكثر جاذبية عند هؤلاء المثقفين، من الأسطورة اليونانية. أنا في الواقع أرى أن العكس هو الصحيح، فأسلوب سرد الأساطير المسيحية، كان يميل الى الخشونة والجفاف والبعد عن الفصاحة اللغوية، لو قارناه بأسلوب سرد الأساطير اليونانية. بالاضافة الى أن الأحداث المركزية في الأسطورة المسيحية، وهي تلك المتعلقة بالصلب، وما تبعه من قيامة من الأموات، وصعود الى السموات، هي أحداث تميل الى السخافة، الا أنه رغم ذلك فمع بداية القرن الثالث الميلادي، كان عدد متزايد من اليونانيين الوثنيين، من الرجال والنساء المقتدرين المتعلمين، يتحولون الى المسيحية. يبدو أنهم وجدوا بعض الجاذبية في بعض الأفكار المسيحية، أو قد يكون هذا قد حدث بسبب ما أسميناه مبادىء الاشتراكية، التي ظهرت في أساليب الحياة المشتركة للجماعات المسيحية المبكرة.

عندما تقبّل المسيحيون الأوائل الأساطير المسيحية على أنها أساطيرهم، كانت نزعاتهم الأول هي تحويلها الى قصص أدبية رمزية، محاولين أن يجدوا لها المغزى الأخلاقي، فقد سبق مثلا لأساتذة المدارس السكندرية أن فعلوا نفس الشيء، أولا مع الأساطير المصرية القديمة، ثم ثانيا مع أساطير الحضارة اليونانية. وكما رأينا سابقا فإن الفيلسوف افلوطين[79]، في القرن الأول للميلاد، كان قد قرأ العهد القديم (التوراة)، على أنه مجموعة من القصص الرمزية، وقد فعل أوريجانوس[80] في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، نفس الشيء، وذلك بتطبيق نفس الأسلوب في القراءة، ليس فقط على نصوص التوراة، بل كذلك على نصوص الانجيل، وعلى كل النصوص الدينية والكتابات المسيحية المقدّسة.

3- المجاز والمخاتلة

كان اعتبار الأساطير الدينية قصصا رمزية، منتشرا الى حد بعيد على اعتبار أنه الأسلوب الأمثل لقراءة الكتابات المقدّسة. إن طريقة فهم الموضوعات القصصية في الكتاب المقدّس، بواسطة تحليل وشرح ما بها من استعارات بلاغية ومجاز، أدّت الى التأكيد على رمزية كل التفاصيل المذكورة في الكتابات المقدّسة. الا أن هذا الأسلوب لم يكن مقبولا تماما، ولم يكن مطبّقا دون تمييز بين الأنواع المختلفة للكتابات الدينية. إن ردّ فعل البعض ضد تحويل كل شيء الى رمز، كان أكبر حجما من اللازم، وقد أدّى رد الفعل هذا في النهاية، ولو على الأقل على المستوى النظري، في بداية تلك الفترة من الصراع بين ما هو رمزي allegorical وما هو حرفي litteral، الى القبول العام بأهمية أن تكون كل القراءات حرفية، وأن تكون للقصص دلالات تاريخية حقيقية.

ظلة هي بداية ما يمكن تسميته أصولية [81] fundamentalism مسيحية؟ الالتزام بالترجمة الحرفية لمعاني الكتابات الدينية؟ الحقيقة هي أنه ليس من بين المسيحيين الأوائل، سواء من المتعلمين منهم أو من غير المتعلمين، من يمكن أن ينطبق عليه التعريف العصري لكلمة أصولية دينية، رغم إن الكثيرين منهم أصرّوا على أن أحداث الكتاب المقدّس هي أحداث تاريخية حقيقية، ورفضوا تماما فكرة أن الكتاب المقدّس هو في المقام الأول قصص رمزية تخفي خلفها تعاليم أخلاقية.

وهكذا ظهرت طريقتان مختلفتان في القراءة، إما رمزيّة النص، أو حرفيّته. وقد سارت هاتان الطريقتان سويّا، وبالتالي جذبتا الانتباه الى مشكلة جديدة، هي مشكلة أخلاقيات الأسطورة، التي شغلت أذهان الفلاسفة لفترة طويلة. الأسئلة التي طرحت نفسها هي: هل كانت الأسطورة المسيحية أكثر تهذيبا وتثقيفا من الأسطورة اليونانية؟ وهل يصح أن توجّه الى الأسطورة المسيحية نفس الاعتراضات التي كانت توجّه الى الأسطورة اليونانية؟ هل كان المسيح يخدعنا؟ هل كانت قصة صومه أربعين يوما ثم صراعه مع إبليس[82] هي قصة خيالية رمزية؟

في الواقع إن هذه القصة الأخيرة تقول لنا إن إبليس عندما كان يحاول إغراء المسيح بالمال والسلطة، وبالذهب والفضّة وممالك الأرض، حتى يترك المهمة التي كان من المقدّر له أن يقوم بها، مهمّة عبادة الله الواحد، لم يكن إبليس البائس المسكين يعلم أنه في سبيله الى محاولة الايقاع برب الكون. هل سيق الشيطان الى الاعتقاد بأن الرجل الذي بين يديه، والذي يراه صائما منذ أربعين يوما، في بريّة صحراوية قاسية، هو رجل بريء تماما، ليكتشف بعد ذلك في نهاية هذه القصة أن هذا الرجل الذي بين يديه ويبدو ضعيفا هو في الحقيقة ربّ الكون، في شكل انسان.

إن كل الناس الذين اعتبروا أن كل أعمال هوميروس الشعرية، وكل قصص الكتاب المقدّس، هي سلسلة حلقات من الاستعارات البلاغية الرمزية، التي تتميّز بقدر من العبقرية، وتخفي وراءها لآلىء من الحكمة، لا تدركها أعين العامة، هؤلاء لم يصدموا من فكرة أن جسد المسيح البشري وحياته البشرية، قد تمّ إستغلالهما الى حد كبير، كطُعْم لإصطياد إبليس، بشرك الألوهية المختفي خلف الرداء البشري. كان هذا الخداع الالهي، هو السبب في حدوث اضطراب في أجيال لاحقة، فيما يتعلق بقواعد اللعب المشروع، التي تسمح بها مثلا الأخلاق العسكرية. فيما بعد أصبح من المبادىء

الأساسية في هذا الجدل، أن إبليس كان هو البادىء بالخداع، وأن له سوابق في الخداع، عندما أخفى نفسه في شكل أفعى وضلّل حوّاء، وهو شبيه بما فعله المسيح من إخفاء نفسه في شكل انسان. إن الحوار حول هذه النقطة، شغل مساحات كبيرة من التمثيليات والمسرحيات الدينية، التي دارت خلال قرون طويلة حول حياة المسيح، الا أن أفضل مثل لتصوير هذا المعنى هو العمل الأدبي المعروف باسم بيرز بلومان[83] Piers Plowman.

في هذه القصة الرمزية يتحدّث الشيطان الى البشر، فيُعَرِّفنا أولا بنفسه، والمؤلف يستعمل الاسم الذي عُرِفَ به الشيطان في الآداب الغربية وهو لوسيفر Lucifer، ثم يدّعي أن ربّ السماء نفسه، كان قد قرّر لو أن آدم أكل من شجرة معرفة الخير من الشر، لمات هو وكل ذريّته، ولذهب الكل الى الجحيم، أي أنهم كانوا سيذهبون كلهم ليعيشوا مع الشيطان. وحيث إن هذا التهديد هو من كلام رب السموات، وهو مثل قانون وضعه رب الحق، فلا رجعة فيه بتاتا، وبالتالي فلو أن هذا حدث لأصبح الرب غير قادر على استرداد أي روح بشرية حكم عليها بالذهاب فعلا الى الجحيم.

في نفس هذه القصة، قال أحد صغار الشياطين إنه قبل خلق الرب لآدم وحوّاء، كان هذا الشيطان يرى الرب كل يوم، لمدة ثلاثين عاما، وهو يتنزّه في حديقته، متجوّلا بخطوات بشرية. ثم يقول الشيطان الصغير إنه حاول إغواءه، بكل وسيلة ممكنة، وسأله أحيانا أسئلة خرقاء غير ملائمة، ولكنه لم يحصل أبدا، هذا الشيطان الصغير من وجهة نظره، على إجابات مرضية. ثم تقول القصة إن لوسيفر حذّر زوجة بيلاطس، القائد الروماني لمنطقة فلسطين، من مغبّة أن تكون حياة المسيح قصيرة على الأرض، وذلك على أمل أن يطول أجله، وبالتالي يتأخّر موعد اليوم البغيض، يوم عودته منتصرا على قوى الشر، ولكنه ها هو ذا يرى روح المسيح قادمة بضياء عظيم في مجدها وبهائها.

إن لجوء لوسيفر الى الكذب والخداع، أفقد كل الشياطين فرصتهم في أن يغنموا أية مكاسب. إن الفكرة المتكررة في الموضوع، وهي فكرة الخداع، تمّ اللجوء اليها من جديد، ولكن هذه المرة في خطبة من خطب المسيح نفسه، لاحظوا أننا لا نزال نعالج نص بيرز بلومان، فبمناسبة الاحتفال بالنصر النهائي على الشياطين يقول المسيح (إن الايمان القويم يطالب العدالة الالهية، بأن تقوم بوضع نهاية حاسمة للخديعة، وكما أن آدم وحوّاء وذريّتهما من بني البشر، قد فقدوا نعيم الفردوس والحياة الأبدية، بسبب شجرة الخديعة، فمن حقهما هما وذريّتهما أن يعودوا الى الحياة الأبدية بسبب شجرة). وهذه هي إشارة الى الشجرة التي استعمل خشبها في صنع الصليب. (الفصل الرابع).

هناك بلا شك قدر من الخداع والتحايل في أغلب الأساطير الاغريقية القديمة الخاصة بمحاولة النجاة من الموت، وهي في أبسط صورها مثلا، في أسطورة بلوتو، نجد أن الخداع هو في ضرورة أن تقذف الى الكلب سيربيروس لقمة خبز بغموس، على سبيل الرشوة، ليتركك تمر أمامه دون نباح، أو أن يعزف له أورفيوس الموسيقى على قيثارته، فيصبح مفتونا بها ويتحوّل الى حيوان أليف، حتى الشياطين كانت قد أُعْجِبت بموسيقى أورفيوس وتركته يمرّ دون أن تحاول أذيّته.

في واحد من ألواح رأس شمرة[84]، كان على إحدى ربّات المدينة، أثناء نزولها الى ممالك الموت

السفلية، أن تنزع عنها العلامات والاشارات الدالة على سلطتها ومكانتها، ولم يكن الغرض من ذلك الا التنكّر والتمويه. وهناك كذلك الكثير من الأساطير التي تحدث فيها سرقات باستخدام العنف. في بعض النسخ هناك حتى كلمات مثل (لص الليل)، لوصف رواية أحداث نزول يسوع المسيح الى الجحيم. هو لن يكون متنكرا في شكل روح مذنبة راحلة، ولكنه سيكون في كامل مجده برفقة قوة ملائكية علوية سامية، على أتمّ الاستعداد لاقتحام بوّابات الجحيم، والقضاء المبرم على مملكة الشياطين. هنا في بعض نسخ تلك الأسطورة يظهر التساؤل حول ثمن الفدية التي ينبغي دفعها. وحول حقوق إبليس في اقتناء مملكة الموتى. كانت هذه ضمن الأسئلة التي أرهقت الآباء المسيحيين في الكنائس والأديرة، وأساتذة اللاهوت في المدارس الدينية، في أوروبا القرون الوسطى.

4- الافتداء والتضحية

الأفكار التي سنتناولها في هذا الجزء من هذا الفصل، هي ما أثمر عمّا عرف لاحقا باسم علم اللاهوت المسيحي Christian theology، الذي تمحورت موضوعاته الأثيرة حول فكرة أن يسكن الرب جسدا بشريا، ويضحي بنفسه في هذا الجسد البشري ليفدي الانسان من خطاياه، ومن وقوعه في قبضة الشيطان. ثار جدل طويل حول كلمة الفدية ومعنى الافتداء. يقال إن يسوع المسيح قد استعملها كثيرا في وصف حياته بأنها (افتداء للآخرين). من المؤكد أنه في زمن المسيح منذ ما يقرب من ألفي عام، كانت هذه الكلمة لا تعني الا شيئا واحدا، هو دفع مبلغ من المال لعتق أحد العبيد، وكان من المسلّم به في ذلك الوقت أن من حق السيد الذي يمتلك العبد، الحصول على ثمن عتق العبد.

إن الجماعة المسيحية الأولى، التي تكوّنت في الأغلبية العظمى من عبيد هاربين من أسيادهم، أو من عبيد أعتقهم أسيادهم لسبب أو لآخر، كان من المستبعد جدا لهم بسبب معاناتهم من موضع تجارة العبيد، أن يعترفوا بحقوق الأسياد في امتلاك العبيد[85]، بعد دفع أثمانهم في الأسواق، ومع ذلك فإن هذه الجماعة المسيحية كانت ترحّب جدا بمسألة إمكانية دفع فدية، مقابل استرداد حرية عبد وكرامة انسان. أي أنهم كانوا يقولون إن لا حق للأسياد في امتلاك العبيد، ولكن لا مانع إن أمكن من دفع فدية لاسترداد الحرية. حتى حاليا في القرن العشرين ما زال الكثيرون، في تلك الأماكن من الشوارع الخلفية في مدن سوريا وغيرها في تلك المناطق من العالم، يعيشون يوميا المناخ القاسي للمقايضة مقابل الحصول على احتياجاتهم.

لو أن أحد المهتمّين بتحرير عبد، تم شراؤه من أحد أسواق العبيد، بطريقة العرض والطلب المعترف بها قانونيا، حاول استعمال العنف ضد المشتري، بغرض تحرير هذا العبد، سيعتبره قانون تلك الأزمنة مذنبا، لمحاولته إنقاذ عبد من عبوديته، باستعمال وسائل اعتباطية عنيفة، في الوقت الذي لا يوجد فيه قانون يمنعه من أن يعرض على المشتري السعر المناسب، ويشتري منه نفس العبد. فإذا حاولنا تطبيق هذه الأفكار المتعلقة بالعبودية وتحرير العبيد، على موضوع علاقة الانسان الخاطىء بالشيطان، فإن أولئك الذين باعوا حرية نفوسهم الى الشيطان، أصبحوا عبيدا له، وليس مسموحا لهم أو لأي شخص آخر بالنيابة عنهم، المطالبة بحريتهم، بطريقة عشوائية عنيفة، دون دفع ثمن أرواحهم، لمن كان مالكا لتلك الأرواح. وهذا هو السبب الذي أدّى بالمسيح الى التضحية بنفسه، ليدفعها فدية لأرواح الخطاة، ويسترد بالتالي من الشيطان ملكية هذه الأرواح. ولكن هل ظن الشيطان أن حياة المسيح التي ضحّى بها على الصليب ليست ثمنا كافيا لاسترداد أرواح كل أولئك الخطاة من البشر؟ هل نظر الى المسيح على أنه شخص هزيل ليست له قيمة كبيرة؟

أنا لا أعتقد شخصيا، أن الجماعات المسيحية الأولى، كانت قد توصّلت بسهولة الى كل هذه الأفكار، لكن شيئا من هذا الجو العام الذي عاشت فيه جماعات المؤمنين الأوائل، ظلت تراوده هذه الأفكار، خلال القرون الثلاثة الأولى، حتى جاء المفكّر المسيحي الذي أحسن صياغتها، نحو نهاية القرن الرابع الميلادي، وهو القدّيس جريجوار من مدينة نيسا باقليم كابادوكيا، الواقع حاليا في هضبة الأناضول التركية، والذي كان تابعا في ذلك الوقت للامبراطورية البيزنطية.

بعد وضع اشتراطات المقايضة، فكر القدّيس جريجوار مليًّا، في قيمة الثمن الذي يمكن للشيطان اللئيم أن يقبله، وحاول أن ينظر الى ميلاد المسيح وحياته ومعجزاته، من وجهة نظر شيطانية، واستنتج أنه كان من الممكن جدا للشيطان، عندما قابل يسوع المسيح بعد صيامه أربعين يوما في البريّة، وأراد أن يجرّبه، وإذا كان فعلا قد جهل كونه الربّ متنكرا، أن يعتقد الشيطان أن يسوع المسيح هو عيّنة متفوّقة جدا من الجنس البشري، وأنه قد يكون أكثر فائدة للشيطان، من مجموعة أرواح ضائعة في سجون الجحيم. لذلك قبل المقايضة. وبالتالي لم يكن له أي حق في الشكوى لاحقا عندما قيل على لسانه إن (الألوهية كانت متخفّية خلف قناع الطبيعة البشرية، حتى تخدع الصائد الشيطان، باغرائه بالطُعم البشري)، وذلك لأن لو كان الشيطان قد رأى الرب لخاف وهرب منه، وهو وضع شبيه بما يحدث عند صيد السمك، أي أن الطُعم يستطيع أن يغري السمكة، التي لو كانت قد رأت الصائد لخافت وهربت منه.

ولكن هناك قدّيس جريجوار آخر، هذه المرة من مدينة نازيانوس، وهو معاصر للقديس جريجوار السابق الذي تحدثنا عنه، ولكنه يختلف عنه في أنه لم يقبل فكرته وتصوّره، أن فدية قد دُفِعت للشيطان، هو لم يعترض على فكرة خداع الشيطان، ولكنه اعترض على قيمة الفدية التي دفعها المسيح، وحجم التضحية التي قدّمها المسيح، وهو يرفض أيّة قراءة حرفية لمعنى الفدية، ويصرّ على معناها المجازي الرمزي. أنظروا معي الى تلك العبارات التي سجّلها في كتابه (إذا قَبِل الأب السماوي دم ابنه ثمنا لفداء البشر الخطاة، ثمنا لأن يصبح الرجال مبرّئين من الخطيئة، فهذا يمكن أن يكون قد حدث لا لأن الأب السماوي قد أراده، ولا لأن الأب السماوي قد احتاج اليه، ولكن فقط من أجل تنظيم عملية الخلاص، ومن أجل تحويل الطبيعة البشرية - الناسوت - الى طبيعة الهية، قادرة على قهر الخطيئة والتغلّب على الشيطان، وذلك بأن سلّم الرب نفسه الينا نحن البشر، بفعل ابنه الافتدائي، فاستعادنا الرب من الشيطان لنفسه).

هذه الأفكار الفلسفية هي جوهر علم اللاهوت المسيحي، أي هي محاولة لتفسير شخص المسيح، وتفسير حياته وموته وبعثه، وقد تكررت لاحقا في مؤلفات الكثير من الكتاب المسيحيين اليونانيين، الذي كانوا متأثرين بتاريخ وفلسفة بلادهم، وقد ذكروا ما يمكن إيجازه في أن الفدية التي قُدِّمت للشيطان، كان عليها أن تمثّل كلا من الرب والبشر، وبالتالي فإن المسيح بصفته ربا وبشرا مثاليا في نفس الوقت، بل أحيانا في نفس الجسد، كان هو الفدية المثالية، والضحية القربانية تامة الارضاء، التي لا مثيل لها.

لاحقا أضاف الكتاب المسيحيون الذين كانوا من أصول لاتينية رومانية، خاصة القديس أوغسطينوس الذي كان قد حصل لنفسه على تعليم كلاسيكي جيد وراسخ، فأعطوا لهذه الأفكار بعض التفسيرات الجديدة، كأن يقولوا إن الفدية ليست لها علاقة بتسديد ثمن للشيطان، وإنما هي التصرّف المستحسن، الملائم والأكثر مثالية، لذلك اللقاء الذي حدث بين الرب والانسان، في شخص يسوع المسيح. أوغسطينوس مثلا يقول (إذا كانت تضحية المسيح بجسده البشري في نهاية حياته الأرضية القصيرة، تشترك مع إجمالي عمل المسيح التبشيري الداعي الى خلاص الانسان وإنقاذه من مصيره المظلم في عذاب الجحيم، فإننا نتحدّث هنا عن قصتين مختلفتين لا تتناقضان مع بعضهما، ولكن يجب علينا ألا ندعهما تتداخلان وتشوّش إحداهما الأخرى).

رأيي الشخصي هو أن الارتباك والتشويش اللذين عانت منهما تلك القصص، في فترات لاحقة من تاريخ علم اللاهوت الغربي، ليست لهما علاقة بالقديس جريجوار من نازيانوس، ولكن لهما علاقة مباشرة بالطريقة المرتعبة التي نظر بها علماء المسيحية، الى الديانات الوثنية السابقة على المسيحية والمعاصرة لها، والخوف المَرَضي الذي نشأ من بعض التشابه بين معتقدات مسيحية كتلك التي عالجناها في هذا الفصل، وبعض معتقدات الديانات الوثنية.

ثم جاء القديس آنسلم St Anselm، ليحارب فكرة أن ثمنا قد دُفِع لشيطان مخدوع، إذ هو يقول (إن هذا التصوّر كان مقبولا تماما في أماكن التسوّق في المدن الليفانتانية[86] Levantine، في شرق حوض البحر المتوسّط، في القرون الأولى للمسيحية، الا أنها فكرة بغيضة ومنفّرة جدا لكل من كان لديه حساسية أخلاقية). ثم هو يضيف (إن ربط انعتاق الانسان من أسر الخطيئة، فقط بشرط تضحية المسيح بجسده البشري على الصليب، يجعل من فكرة حياة المسيح على الأرض، وبعثته التي دامت ثلاث سنوات، ثم معاناته كانسان من البشر العاديين، شيئا لا معنى له، لأن الهدف الوحيد من كل هذا لم يكن الا دفع الفدية على الصليب).

لازلنا مع القدّيس آنسلم الذي يقول (أعتقد أن تضحية المسيح بنفسه على الصليب، هي قريبة الشبه بما كان يحدث في الحضارات الوثنية القديمة، عندما كان الانسان الخاطىء، يقدِّم القربان المناسب على مائدة القرابين، أو يقدّم الذبيحة المناسبة على المذبح، مقابل أن يهبه الاله المناسب، العفو عن إثم الخطيئة والمغفرة، ولكن الحديث عن المسيح كابن للربّ، يتناقض مع هذه المعتقدات الوثنية القديمة، التي لم تكن تجد أية صلة بين القربان أو الذبيحة من ناحية، وبين الرب الذي نقدّمها اليه من ناحية أخرى، فما بالك بالمسيحية التي تقول لنا إن القربان الذي نتقدّم به الى الربّ هو نفسه ابن الربّ).

أنا أرى أن معالجة آنسلم لهذا الموضوع الشائك، تقترح صداما حادا بين رحمة الربّ وعدالة السماء. بل إنها حتى تلقي علينا أسئلة تتعلق بصلاح الرب نفسه، هل هو ربّ صالح بما يكفي، ذلك الرب الذي يسمح بحدوث هذا؟ التضحية بانسان بريء مقابل أن تحصل جموع الخطاة على مغفرة السماء؟

وقد أضافت المسرحيات الدينية في القرون الوسطى، سطورا جديدة الى حواراتها، للتعبير عن وجهة النظر الجديدة للقديس آنسلم، كما أضاف وعّاظ الكنائس في نفس الفترة التاريخية، الكثير من الحجج التي كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون بها، مقارعة حجج القديس آنسلم. لكن في الحقيقة فإن آنسلم لم يكن مسؤولا عن كل هذا الجدل، لأن كل ما فعله هو أنه حاول أن يلقي بعض الضوء النابع من بصيرته الأخلاقية، على تفاصيل تلك الأسطورة التقليدية الخاصة بصراع المسيح مع الشيطان، ونزول المسيح اليه في جحيمه، وتعرّض المسيح للتعذيب على يد بعض زبانية الجحيم، كما يرد في تفاصيل بعض نسخ هذه الأسطورة.

قبل أن ننهي هذا الفصل، تنبغي إضافة بضعة أسطر، تتعلق باعتقاد المسيحيين الأوائل، أن مرحلة البعث العام، والقيامة من الأموات، كانت قد بدأت بالفعل منذ القرون الأولى للمسيحية، وتوقّع المسيحيون الأوائل أن يستكمل المسيح وعوده لهم، قبل مرور وقت طويل، وهذا هو ما يمكن أن

يفسّر لنا ظاهرتين سادتا خلال القرون الأولى للمسيحية. الأولى هي ظاهرة غياب الصلوات على الموتى، وغياب القدّاسات الخاصة بالموتى في الكنائس خلال تلك القرون الأولى، اعتقادا بقرب ملكوت الله من البشر وتسامح الله مع خطايا البشر. والظاهرة الثانية هي ظاهرة الاعتقاد الواثق في قيامة العديد من القديسين الذي ماتوا، وشاهد الناس عليهم مظاهر الموت، ثم انطلقت الاشاعات بعودتهم من عالم الموتى الى عالم الأحياء.

الفصل السادس

حيوات العذراء مريم

في الأناجيل كتب القليل عن أم يسوع، لكنه يكفي ليبيّن كيف أنها كانت متواجدة كوجه مألوف، في الأماكن التي دارت فيها أحداث الأناجيل، خاصة في انجيلي القدّيسين لوقا ويوحنا، وكذلك في أحداث سفر أعمال الرسل. إن القصص المتعلقة بالعذراء مريم، يمكن تقسيمها الى مجموعتين، الأولى هي تلك التي تهتم بتاريخها قبل أن تصبح أم يسوع، وكذلك بملابسات مولد الطفل يسوع، والمجموعة الثانية من القصص هي تلك التي تروي لنا ظروف موتها ودفنها، وهي القصص المشتملة في بعض الحالات على تفاصيل بعثها وصعودها الى السماء.

1- مولدها وطفولتها وتكريسها

إن كل عرض لبيانات طفولة العذراء مريم، والتي سنكتفي مؤقتا باستعمال اسمها الأول فقط لا غير، يستمد بعض مادته، بشكل مباشر أو غير مباشر، من كتاب جيمس المعروف باسم (أحداث ما قبل الانجيل)، وبالانجليزية بروتفانجيليوم Protevangelium، وقد أطلق عليه هذا الاسم، لأنه يروي أحداثا في حياة مريم وفي حيوات أفراد من أسرة مريم، وقعت قبل زمن الأناجيل، ولم يرد ذكرها في الأناجيل. من المفترض تاريخيا أن مؤلف هذا الكتاب (بروتفانجيليوم) هو جيمس James، الأخ غير الشقيق ليسوع المسيح، أخوه من والده فقط يوسف النجّار، ولكن ليس من نفس الأم. المحيّر في حالة جيمس هو أنه يظهر في سفر أعمال الرسل أحيانا باسم جيمس، وأحيانا أخرى باسم يعقوب Jacob، كما أنه يظهر كذلك في رسائل القديس بولس.

في هذا الكتاب للمؤلف جيمس، يوجد نص مكتوب باللغة اليونانية، يقول خبراء اللغة اليونانية والتاريخ اليوناني، أن به ما يدعو الى الاعتقاد أنه مكتوب في القرن الثالث الميلادي، وهو شيء محتمل جدا، فقد تعرّضت كل الكتابات الى التعديل بالاضافة والحذف، خلال قرون طويلة، وهو السبب أحيانا في وجود فقرات أو صفحات بأكملها خارج سياق النص، وخارج تآلف عناصر الموضوع الأصلية. هذه الاضافات تتضاعف في ترجمات هذا الكتاب (ما قبل الانجيل أو البروتفانجيليوم) الى اللغات المختلفة[[87]]. العديد من هذه الاضافات يُعْزى كذلك الى وجود منطقة رمادية اللون تتداخل فيها الظلال، بين المسيحية والديانات الوثنية السابقة عليها، منطقة تداخل تنتهي عندها الوثنية بالتدريج، وتبدأ عندها المسيحية بالتدريج، بحيث تترك السابقة أثرها على اللاحقة. هذه الظلال كان قد قيل عنها بعض الكلام في فترات مختلفة.

إن أكثر حصاد هذه الظلال ثراءً وتنوّعًا، وهو كذلك أكثره جموحا وهمجية، فيما يتعلق بالأساطير المريمية، ينبع من اثيوبيا، حيث لا تزال هذه الظلال باقية حتى الآن. لكن بعض الاضافات في النسخ السريانية، تبدو كما لو كانت تصحيحات، أدخلت على النص لتتلاءم قدر الامكان مع المعلومات التي أضيفت الى المعارف العامة، المعلومات التي كانت جديدة في ذلك الوقت الذي أضيفت فيه، وأصبحت متاحة للمرة الأولى في ذلك الوقت بالتحديد على أرض فلسطين.

إن الحبكة الروائية في (ما قبل الانجيل)، تبدأ بقصة النبي صموئيل، أحد أنبياء التوراة وبني اسرائيل، الذي ولدته امرأة كانت عاقرا، ثمّ استجاب الرب لتوسّلاتها.

تمّ تقديم الطفل صموئيل بمجرّد بلوغه سن الفطام، الى هيكل الرب في (شيلو Shiloh) ليتربى فيه ثم ليخدم فيه، وهو التقليد المعروف باسم تكريس الطفل للرب، أي أن يهب أحد الوالدَيْن طفله للرب. ينمو الطفل صموئيل في محيط من الأجواء الكهنوتية، ومن المتعارف عليه في التقليد اليهودي أن صموئيل كان يتحدّث الى الرب منذ طفولته، ثم يحدث بشكل غريب أن يدعوه الربّ الى تقديم شهادة (أو وشاية) عن خطايا الكهنة وذنوبهم، التي لا يعرفها الا من يعيش في الهيكل!!

لتعلموا أولا أن اسم حنّة Hanna، والدة صموئيل، هو قريب الشبه من اسم أنّا Anna، والدة

العذراء مريم. ثم فلتعلموا ثانيا أن يوسف النجّار كان قد أنجب من زوجته الأولى ولدا اسمه صموئيل، وهو بالتالي الأخ الشقيق للمؤلف جيمس. المعنى المفهوم ضمنيا من ورود قصة النبي صموئيل، في بداية رواية جيمس، هو أهمية التقليد المعروف بتكريس الطفل للرب منذ طفولته المبكرة، أو حتى بمجرد فطامه الذي يحدث غالبا عند سن السنتين. كذلك ضرورة الاهتمام بالأطفال الرُضّع الذين كانوا غالبا ما يُعثر عليهم، أمام أبواب الهياكل المقدّسة.

إن الخلفية التي جاء منها هذا الموضوع ليست يهودية تماما، وذلك لأنه بالفحص المُدَقِّق تصبح بعض التفاصيل خارج بؤرة الحدث، بينما يلقي بعضها الآخر الضوء على المصدر الأصلي الذي جاءت منه القصة، فهناك علامات دالة تشير الى الاهتمامات الحقيقية للقصة الأصلية، مثلا التشديد على أهمية الإشارة الى ما يسمّى (البتلة أو البتالون petalon)، وهي بتلات زهرة من أوراق الذهب، توضع فوق التاج الذي يضعه كاهن اليهود الأعظم على رأسه، أو توضع فوق الجِبَّة التي يغطّي بها رأسه، وهذا البتالون يتألق ويبرق في الضوء، فقط عندما يتقبّل الربّ بفرح كبير، التقدمات والقرابين المقدّمة اليه، وهذا نادر الحدوث، وهو ما حدث عندما قدّمت حنّة ابنها صموئيل قربانا الى الرب، وتكرر حدوثه عندما قدّم يواقيم Joachim، ابنته العذراء مريم قربانا الى الرب.

تنبغي الاشارة الى أن أول ذكر للبتالون، ورد في أقدم أسفار التوراة، وهو سفر التكوين، في الاصحاح 28، الأعداد من 26 الى 28. كان الغرض من ذكر البتالون في رواية جيمس المسمّاة (ما قبل الانجيل) التأكيد على الأصول اليهودية، والتأكيد على رضاء الرب التام، فإن فعالية البتالون الاسترضائية لا يمكن أن تفشل.

لكن بوليكراتوس أسقف إفسوس Ephesus، وهي مدينة من مدن ما كان يعرف باسم آسيا الصغرى، وهي تركيا الحالية، حول نهاية القرن الثاني الميلادي، في دفاعه عن التقاليد الآسيوية (ليس بمفهومنا الحالي وإنما بمفهوم جغرافية ذلك الوقت)، ذكّرنا أن التلميذ الأقرب الى قلب المسيح، الوحيد الذي وثق به المسيح حتى أنه الوحيد الذي كلّفه أثناء موته على الصليب برعاية أمه، وهو يوحنا المعروف باسم اللاهوتي، ظهر عند موقع الصلب، وهو يرتدي جبّة كهنوتية يعلوها بتالون، كان لا شك يبرق فوق رأسه، كعلامة على تقبّل الرب لقربان المسيح على الصليب، مما أسعد الأطفال الموجودين في موقع الصلب، الذين كان من بينهم والدة بوليكراتوس، التي حكت فيما بعد لابنها تلك التفاصيل، قبل أن يصبح أسقفا ومؤلفا كلاسيكيا معروفا. في نفس تلك المجموعة من البشر التي كانت في موقع الصلب، كان من السهل أن نعثر على الأخ غير الشقيق ليسوع المسيح، وهو جيمس مؤلف (ما قبل الانجيل).

في ذلك الزمان كان من السهل حسب الشرائع اليهودية، تطليق المرأة العاقر، التي كانت في تلك الحالة تعتبر أرملة وترتدي ثوب الحداد. يأتي كتاب (ما قبل الانجيل) على ذكر القصة الانسانية المؤثّرة، عن زوجة عاقر اسمها آنّا Anna، أثناء اعدادها للاحتفال (بيوم الرب العظيم)، وقد حثّتها خادمتها على خلع ثوب الحداد، وعلى أن تضع عصابة رأس تحمل اشارات ملكية. كانت آنّا تشعر بحساسية نحو العار الذي حلّ بها، لأن المعتقد السائد هو (أن السيد الرب قد أغلق رحم المرأة العاقر، حتى لا تحصل على ثمار في شعب اسرائيل، وهذا يعني أنها غير جديرة بالانتماء الى هذا الشعب).

لكن النص يقول إنه كانت لديها معلومات بأنه كان قد تمّ تكليف زوجها باهمال واجباته الزوجية نحوها (!!!)، إذن هي ليست مدانة تماما، بل إنها حتى قد تكون بريئة تماما. كان من المتوقّع أن يكون زوجها قد اتخذ فعلا زوجة ثانية، قد تكون أكثر خصوبة وإثمارا منها، وقد يحتفظ بها أو يطلقها، رغم أنها زوجته الأولى.

رغم كل شيء، وافقت على أن تخلع ثوب الحداد، وأن تغسل شعرها ثم ترتدي ثوب الاحتفال (بيوم الرب العظيم). لكنها عندما خرجت الى الحديقة، في فترة ما بعد الظهيرة، استقرت الى جوار دغل من شجيرات الغار، كان محتويا على أعشاش للعصافير الدورية، ومن غير الواضح ما الذي حدث لها حتى تنفجر في صلاة الى الرب في شكل مناحة شعرية. لم يكن شعرها متميّزا، ولكنه كان شعرا مقبولا من أرملة أو مطلّقة من إفسوس. قالت للرب (كل كائنات البر والبحر من طيور وحيوانات تنجب، تلد ثمارا لمجد الرب، الا أنا).

سمع الرب الى صلاتها، وظهر لها ملاك الرب ليخبرها، أنها ستحبل وتلد طفلا (أو طفلة) سيكون (أو ستكون) حديث الناس في العالم أجمع. آنّا - الأم المنتظَرة للعذراء مريم - قررت أن تهب طفلها (سواء أكان ولدا أم بنتا) مكرّسا للرب. في النص اليوناني في حالته التي هو عليها بين أيدينا حتى الآن، يأتي بيان بتعداد متاعب يواقيم - الأب المنتظر للعذراء مريم - قبل الاعداد (ليوم الرب العظيم)، ولكن من المحتمل طبعا أن يكون هذا البيان قد أضيف لاحقا الى النسخة اليونانية.

على أية حال كان يواقيم هو الآخر قد جاءه ملاك ليخبره بما كان سيحدث، وبما وعد الله به زوجته أو مطلقته أنّا. كان يواقيم في سبيله الى إعداد مجموعة كاملة من الأضاحي للعيد القادم، حين يصحّ ذبح الخراف والنعاج، وذلك عندما خرجت أنّا من المنزل، وتعلّقت برقبته لتبلّغه بالأخبار السارة. في اليوم التالي قدّم قرابينه قائلا لنفسه (إذا كان السيد الرب رحيما بي فسيعلن بتالون جبّة الكاهن ذلك لي). وقد لاحظ يواقيم ذلك على الفور، فقد كان لمعان بتلات البتالون قويا جدا. قال (صعدت الى مذبح الرب الذي لم يجد عندي أي إثم أو أيّة خطيئة) أو وفقا لنص آخر قال (وجدت الرحمة التي كنت أبحث عنها في عين الرب). في النسخة السيريانية نجد الكلمات (وكانت رسالة الرب له مشجِّعة ومحفِّزة).

في الوقت المناسب ولدت الطفلة، وتطّهرت أمها حسب الطقوس التي كانت متَّبعة حتى ذلك الوقت بين أفراد شعب اسرائيل، وأرضعت طفلتها وأسمتها مريم.

الجزء التالي من الرواية حسب كتاب (ما قبل الانجيل) هو أنشودة لتقريظ الأمومة، تتطور بشكل متقن في بعض النسخ الى قصيدة شعرية طويلة.

نجد في كسرة (أو شقفة) فخّار قادمة من مصر القبطية[88]، نصّا مكتوبا باللغة القبطية، يقول (آنّا أخذت الطفلة بين ذراعيها لتحمّمها، ونظرت الى وجهها فرأت أنه كان ممتلئا بنعمة الرب، فغنّت الى سيّد البشر، فأجابها النبي داود بصوته الجميل، وبصفته المنشد المقدّس لرب المجد، قائلا لها إن الرب قد نظر من أعالي السموات، الى أسافل الأرض، الى منازل فقراء الأرض، فجعل منهم أغنياء. آمين) ثم قال (إن الملائكة الشاروبيم التابعين للأب السماوي، ذوي الستة أجنحة، والأربعة وجوه،

والألف عين في كل وجه، العيون الممتلئة بالضياء، قد ابتهجت معي، بمولد هذه الطفلة، وقد اعتدت في مثل هذه المناسبات أن أصنع ألحانا ميلودية جميلة أغنيها بصوتي الجميل ابتهاجا بالمناسبة. آمين. أنتم أيضا أدعوكم ال الابتهاج معي لأن الرحم الذي كان منبوذا استقبل بذرة).

تمّ تقديم آنّا هنا على أنها الأم التي تفتخر بطفلتها، الطفلة التي تسبق قدراتها العقلية والبدنية سنها الزمني، وذلك رغم كونها طفلة بشرية تماما. تقول (أوقفتها بقدميها على الأرض، لأعرف إن كانت تستطيع أن تقف وحدها، فمشت سبع خطوات وحدها ثم عادت الى صدر أمها). وفي نسخة أخرى (عادت الى مئزرة أمها).

حدث هذا في سن ستة أشهر، حسب ما جاء في النسخة اليونانية، أمّا النسخة السيريانية فتقول إن هذا قد حدث في الاحتفال بعيد ميلادها الأول.

في النسخة اليونانية، كان الاحتفال بعيد الميلاد الأول في وجود ضيوف من الكهنة الذين قدّموا بركاتهم للطفلة، ثم أُخِذَت الطفلة مريم الى المعبد. وقع هذا الحدث في ذلك السن المبكر جدا، حتى بالمقارنة بسن النبي صموئيل، الذي لم يؤخذ الى المعبد الا بعد أن كان قد بلغ سن الثالثة. كانت مريم طفلة معجزة، وذلك لأنها عند وصولها الى المعبد، رقصت على الدرجة الثالثة من الدرجات الصاعدة الى مذبح الهيكل، تعبيرا عن شدّة سعادتها وابتهاجها. يضيف النص (.... وكل بيت اسرائيل أحبها). ظلت مريم في فناء المعبد مع طيور اليمام، وكانت الملائكة تنزل اليها من السماء بوجباتها الثلاث.

عندما بلغت الطفلة مريم سن الثانية عشرة، أصبح تحديد أمر مستقبلها مشكلة بالنسبة لكهنة المعبد. هنا تصبح النسخة السيريانية واقعية الى حد بعيد، لأنها قد تكون معتمدة على مصادر، كانت لها القدرة على الوصول الى معلومات تاريخية حقيقية غير زائفة. في النسخة السيريانية، نجد أن هناك اعترافا بأن مريم حقا هي طفلة الوعد، هي حقا الطفلة الموعودة للرب.

لكن هذه النسخة تطلق أحيانا على والدة مريم اسم حنّا، وأحيانا أخرى اسم دينا، كما أنها تطلق أحيانا على والد مريم اسم زادوك يوناخير. هذه النسخة تقول إن الطفلة مريم عاشت طفولتها في بيت والديها، وأنها حتى سن العاشرة لم تكن بعد قد ذهبت الى المعبد. تقول الأم دينا تبريرا لذلك (دعونا ننتظر، حتى تعرف الطفلة نفسها أولا، قبل أن نجعلها تتخذ موقفا، وتتبنّى معتقدا، يؤثّر على بقية حياتها). في نفس ذلك الوقت تقريبا، وُلِدَت أخت لمريم، طفلة أخرى لهذين الزوجين اللذين كانا يتقدّمان في السن، أطلقا عليها اسم باروجيتا.

أُخِذَت مريم الى المعبد في سن الثانية عشرة، مع سبع عذارى أخريات، وعُهِدَ بهنّ الى عناية كاهن عجوز وزوجته، هو اسمه زادوك وهي اسمها شمعي، وطبقا لقانون ذلك الوقت، فبدلا من أن تحمل العذراء مريم اسم والدها، حملت اسم الكاهن العجوز، وهكذا أصبحت مريم ابنة زادوك. تضيف بعض النسخ أن السبب الحقيقي في تغيير الاسم، هو تبنّي الكاهن زادوك لمريم، بعد أن كان والداها الحقيقيان قد ماتا. حدث كذلك أن ماتت شمعي زوجة زادوك، ومريم بالكاد في الرابعة عشرة من عمرها. تقول النسخة السيريانية، أن هذا قد عجّل بوقوع الأزمة. وهي نفس الأزمة التي تثار في

النسخة اليونانية بحجة أن مريم قد وصلت الى سن البلوغ.

2- زواج العذراء

كانت مريم تعيش حقا حياة زهد وتقشّف مثالية، ذلك حسب ما ورد في أغلب الروايات اللاحقة، إذ لم تكن تهتم لنفسها ماذا تأكل وماذا تلبس، وذلك لأن الملائكة كانت تقدّم لها قوتها اليومي، من ثمار شجرة الحياة، ولأنها كانت ترتدي طوال عمرها نفس ملابس طفولتها، التي كانت تتسّع وحدها مع نمو جسمها بالتدريج، لتتلاءم مع مقاساتها الجديدة. هكذا حدثت معها معجزات منذ طفولتها وطوال حياتها. تقول النصوص إنها ظلت دائما نظيفة ومرتّبة وأنيقة، رغم أنها لم تستعمل أبدا الأطياب أو الدهون العطرية، كما أنها لم تكن تستحم.

كان من المتعذّر اجتناب احساسها بالنفور من الزواج بأي رجل، كانت مستعدّة نفسيا لأن تكرَّس للعذرية. أما الكاهن الأكبر زكريا، وهو والد يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، فقد نصحه مستشاروه بسؤال الرب عن مستقبل مريم. فجاءه ملاك ذات يوم، عندما كان زكريا وحده في قدس أقداس المعبد، وطلب منه حشد كل الرجال الأرامل من شعب اسرائيل معا، وسيعطي الرب العلامة على الرجل المختار من بينهم ليتزوج مريم، وهي أنه ستخرج يمامة من عصا يوسف النجّار أمام الحشد وتستقر على رأسه. في النسخة السيريانية توجد اختلافات، ويقل فيها الاهتمام بالعنصر المعجزي، فالرجال المجتمعون ليسوا هم كل الرجال الأرامل من شعب اسرائيل، بل هم فقط أرامل بيت داود النبي والملك، واليمامة لا تخرج من عصا يوسف، بل هي إحدى يمامات فناء المعبد، وإن كانت فعلا تستقر على رأس يوسف.

في ذلك الوقت لم تكن مريم تعيش في حرم المعبد، بل في المنزل مع زادوك وشمعي. ولقد استمعت عدّة مرات الى أصوات تقريظ الملائكة لها، وعلمت بالنبوءة، وأدركت أن الله قد اختار لها يوسف النجّار زوجا، فهو على ما يبدو الرجل المناسب لتحمّل مسؤوليتها. علاوة على أنه ابن عمّها. ورغم أن النص اليوناني يذكر أن يوسف كان أرمل، دون أي شك أو غموض، الا أن النص السيرياني يقول إن زوجة يوسف الأولى كانت لا تزال على قيد الحياة.

يقول النص اليوناني إن يوسف عندما علم بهذا التكليف اعترض وقال (أنا رجل عجوز ولدي أولاد وبنات). نحن نعلم أن من بين أولاده هناك يعقوب الذي يسمّى أحيانا جيمس، وهناك كذلك صموئيل الذي يصبح أحيانا يشوع أو سمعان. نحن لم نعرف أبدا بدقة كم عددهم وما هي أسماؤهم؟ ولكن الكثير من المصادر تقول أنهما ولدان فقط لا غير، وأن الأكبر هو يعقوب والأصغر هو صموئيل. وليس هناك في أيٍ من النسختين اليونانية أو السيريانية، أي شيء قيل عن الأبناء الآخرين الذين يظهرون في انجيل القديس مرقص الأصحاح 6 العدد 4، حيث نجد أن أخوة يسوع غير الأشقاء هم أربعة ذكور، يعقوب (جيمس)، ويشوع (جوشوا)، ويهوذا (جوداس)، وسمعان.

تم التغلّب على اعتراضات يوسف، وتقبّل أن يتحمّل مسؤولية ابنة عمه الصغيرة، وأخذها بعد الزواج معه الى منزله، لا نعرف إن كان المقصود هو منزله في أورشليم، أو منزله في بيت لحم؟ بينما ذهب هو مباشرة بعد ذلك الى مهمة عمل تخصّه كبنّاء، كان متعاقدا عليها من قبل، من المؤكد أنها دامت

لبعض الوقت.

في النسخة السيريانية كانت المهمّة هي أن يبني منزلا في بيت لحم، وكان قد ترك مريم وحدها في أورشليم، أو في رعاية زوجته الأولى. هكذا كان تدبير الرب الذي كان يدبّر لمريم حملا معجزيا، أن زوّجها من يوسف حتى يعطيها الحماية الكافية من سوء ظن الناس والمجتمع، عندما تبدأ بوادر الحمل في الظهور عليها، فبوصفها زوجة يوسف فهي بريئة ولا غبار عليها.

حين ظهرت الأناجيل في اللغة اللاتينية بعد بضعة قرون، تحوّل الأخوة غير الأشقاء ليسوع، من أبيه وحده ومن أم أخرى، الى أولاد عمومة، وبذلك اختفى الزواج الأول ليوسف تماما. وذلك حسب وجهة نظر القديس جيروم Jerome، يعتبر وضعا مثاليا، فإن عذرية مريم الأبدية، كانت تحتاج الى عذرية يوسف هو الآخر، أي أن يكون هو أيضا أعزب مكرسا للعزوبية.

يعتقد بعض الباحثين المحدثين، فيما يتعلق بنص كتاب (ما قبل الانجيل)، أن موضوع وجود ثم استبعاد زوجة أولى ليوسف النجّار، هو موضوع ملفّق من الأساس، يهدف فقط الى تفسير وجود أطفال آخرين ليوسف النجار، دون أن يكونوا أبناء للعذراء مريم، وبالتالي دون أن يكونوا أخوة أشقاء ليسوع المسيح، وكذلك تقديم بعض الأدلة على أن أحدهم وهو يعقوب (أو جيمس)، كان أكبر سنا من يسوع المسيح ومن رسله (حوارييه)، وأنه قد أخذ لاحقا قيادة كنيسة أورشليم، حيث نجحت لبعض الوقت تفسيراته المحافظة المتحفّظة للرسالة المسيحية، في تحقيق قدر من التسامح الديني، بين اليهود المتحوّلين الى المسيحية، وبين باقي المجتمع اليهودي، ولكنها خلقت بعد ذلك بعض صعوبات عقائدية واجهها القديس بولس في كرازته.

يعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه في حالة وجود زوجة أولى ليوسف النجار، فإن اسمها هو مريم، التي وصفها انجيل القديس متى، بأم يعقوب ويشوع، التي كانت حاضرة في موقع الصلب، ولكنها وقفت بعيدا تراقب الموقف. وكانت حاضرة كذلك في موضع دفن يسوع المسيح، كما جاء في انجيل القديس مرقص. ثم ظهرت كذلك صباح الأحد مع النسوة اللائي شهدن بعث يسوع المسيح، وقيامته من الأموات، كما جاء في انجيلي القديسين مرقص ولوقا.

لكن هناك رأيا آخر، وهو أن تكون العذراء مريم نفسها، هي والدة بعض أطفال زوجها يوسف النجار الآخرين، ولكن بغرض الاحتفاظ لها بشخصية العذراء الأبدية المقدّسة، تمّ اختلاق شخصية الزوجة الأولى ليوسف النجّار. الشيء المحيّر هنا هو موضوع تعدّد الزوجات، الذي يمارسه هنا الرجل الذي يمكن اعتباره الوالد الجسدي لنبي المسيحية. صحيح نحن نعلم أن الديانة اليهودية كانت تمارس تعدّد الزوجات، بدليل أن سيدنا ابرهيم نفسه احتفظ بزوجتين، ولكن الديانة المسيحية عارضت هذه الممارسة. سوف يسود الاعتقاد لاحقا أن هذه القصة كانت قد وردت كذلك في أناجيل يهودية أخرى منعت الكنيسة الاعتراف بها لهذا السبب أو لغيره من الأسباب.

في كتاب (ما قبل الانجيل) أوكلت الى مريم والى غيرها من عذارى الهيكل، مهمّة نسج ستار للهيكل، وكان من نصيب مريم استعمال الخيوط ذات اللونين الوردي والقرمزي (البنفسجي). أثناء عملها في نسج جزء من هذا الستار، وكانت تجلس في الفناء الى جوار البئر، أنصتت فجأة الى

صوت يناديها باسمها ثم يقول (أنتِ المفضَّلة والمباركة بين نساء الأرض)، فنظرت يمينا ويسارا ولم تر أحدا. عادت الى المنزل حيث كانت تقيم وهي ترتجف، ثم التقطت الخيط الوردي لتستأنف عملها، وفجأة رأت الملاك الى جوارها، وسمعت من جديد نفس الصوت وهو يقول (لا تخافِ يا مريم، فإنّك وجدتِ عطفا وحظوة ونعمة كبيرة، لدى رب كل البشر وكل الأشياء، وستحبلين بكلمة منه)، فقالت (كيف وأنا بعد لم أعرف رجلا)، فقال (ستأتي اليكِ قوة من الرب، لذلك فمن سيولد منك سيُدعى مقدّسا ابن العليّ)، فقالت (أنا خادمة الرب فليكن حسب كلامك).

جاء هذا الحوار في انجيل القديس لوقا.

ذهبت بعد ذلك الى منزل الكاهن الأعظم زكريا، وطرقت الباب ففتحت لها زوجته وابنة عمّها أليصابات، التي كانت في ذلك الوقت حاملا في شهورها الأخيرة، وتنتظر أن تضع مولودها الذي سيصبح القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى). مرة أخرى تلقت استقبالا حارا، أكثر مما توقّعت، وقد بدأت كلمات الملاك تتلاشى من ذاكرتها. هنا نجد رأيين مختلفين، أحدهما يقول إنها ظلت مع ابنة عمها أليصابات، وأقامت لديها ثلاثة أشهر، والآخر يقول (يوما بعد يوم كان رحمها ينمو، وكانت مريم خائفة، وبمجرد بداية ظهور الانتفاخ في بطنها، عادت الى منزلها حيث أخفت نفسها).

عندما عاد يوسف الى المنزل، واكتشف ورطتها، بكت ولم يكن لديها أي تفسير لحالتها، فتولّدت لديه هواجس عديدة، ويقول النص (تساءل في نفسه، هل هي نفسها تلك الفتاة البريئة التي كانت على علاقة حميمة بالملائكة؟ هل من فعل بها ذلك هم الملائكة؟ ولكنه في الحقيقة لم يجرؤ على اتهامها بالفسوق والزنا. ثم جاءه حلم ليخلّصه من هواجسه، إذ أخبره ملاك أن الطفل هو من الروح القُدُس).

ولكن حدث أن سارع الكهنة الى الاعتقاد، بأن يوسف كان قد أتمّ زواجه بمريم، دون انتظار إتمام المراسم والطقوس الدينية الصحيحة. في واحدة من نسخ كتاب (ما قبل الانجيل) نجد أن إنكار يوسف ومريم لهذه التهمة، جعل الكهنة يصرّون على أن يوقعوا بهما العقاب، باجبارهما على احتساء السائل المرّ الموصوف كعقاب لحالات الأشخاص المتهمين بالزنا، وهو العقاب المتعارف عليه، كما جاء في التوراة، سفر العدد الاصحاح 5 الآية 26. بعد الاحتساء الاجباري لهذا السائل، ذهبا - مريم ويوسف - معا في جولة على الأقدام عبر المناطق الريفية المحيطة، وعادا بعد برهة، وهما لا يشعران بأية آلام معوية، أو بأي اعتلال في المزاج، وكان هذا في الأعراف اليهودية، دليلا كافيا على براءة المتهمَيْن. معنى هذه الفقرة، هو أن مسألة الولادة الالهية كانت سرية تماما، وخافية حتى على كهنة أورشليم، الذين لم يكونوا على علم ولو طفيف بأي شيء.

3- مولد يسوع وطفولته

فيما يتعلق بهذا الموضوع، يقدّم انجيل لوقا تقريرا مختلفا الى حد بعيد عن التقرير الذي يقدّمه انجيل متى، رغم اتفاقهما على مكان وزمان الحدث، فالعذراء تضع ابنها في مدينة بيت لحم، في موسم إحصاء السكان الذي نادى به وكيل الامبراطور الروماني، وكان اليوم الذي ذهبا فيه الى هناك هو في نهايات شهر ديسمبر من التقويم المعروف. يبدو أن مؤلف كتاب (ما قبل الانجيل)، قام بكتابة تقارير مختلفة هو الآخر في النسخ المختلفة لروايته. من المعروف حاليا أن تقرير الميلاد الموجود في انجيل القديس لوقا، كان المقصود به دمج عدد من الروايات المتعلقة بالمسيح ويوحنا المعمدان. أما مريم فقد صوّرت على أنها تعيش في مدينة الناصرة، وأنها قدِمَت الى منطقة اليهودية لزيارة أليصابات، ثم ذهبت الى مدينة بيت لحم مع يوسف من أجل تعداد السكان، لأن اسميهما كانا مسجّلين فيها، وهي مدينة النبي داود، وهما من نسله.

في ذلك الوقت كانت تلك المسافات القصيرة تقطع مشيا على الأقدام، في مناطق ريفية، وتركب النساء ظهور الحمير أو البغال. كتاب (ما قبل الانجيل) يقول إن يوسف ومريم كانا يصطحبان معهما الصبييّن يعقوب (جيمس) وصموئيل، وكانت مريم تمتطي جحشا صغيرا، وتبدو لهم أحيانا حزينة، وأحيانا أخرى سعيدة، بسبب احتمالات المستقبل، وأنهم كانوا بالقرب من العلامة الثالثة للطريق، الدالة على المسافة المقطوعة والمسافة المتبقية على الوصول، عندما طلبت مريم من يوسف مساعدتها في النزول من على المطيّة، قائلة (إن الطفل بداخلي يضغط للخروج)، وأنهم عثروا على كهف أو تجويف داخل صخرة أو تل حجري، وأن يوسف ترك مريم داخل الكهف في رعاية الصبييّن، وذهب للبحث عن قابلة في أقرب قرية.

وحيث أن مؤلف هذا الكتاب (ما قبل الانجيل) هو يعقوب (جيمس) أحد هذين الصبييّن، فمن الملائم له أن يذكر أنه رغم صغر سنّه، الا أنه حاول أن يفعل كل ما في وسعه، لمساعدة مريم والطفل الوليد، في حين وقف أخوه عند المدخل يراقب عودة والدهما. هذا ما حدث طبقا للنسخة السيريانية، في حين أن النسخة اليونانية اللاحقة زمنيا على النسخة السيريانية، تنكر وجود الصبييّن، ولا تأتي اطلاقا على ذكرهما. ماذا حدث؟ وما السبب في ذلك؟

في موعظة دينية مشهورة للراهب إبيفانوس Epiphanos، الذي كان ضالعا في النزاعات المتعلقة بموجة تحطيم الأيقونات iconoclast، والتماثيل المقدّسة، التي كانت في أوجها خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، ذكر اسم جيمس كأحد شهود ميلاد الطفل يسوع. لكن هناك عمل آخر ذكر بالتفصيل، كل ما قاله وفعله كلٌ من الأخوين الصبييّن في واقعة مولد الطفل يسوع، هو كتاب ليبهار بريك Leabhar Brec، وهو باللغة الأيرلندية، وقد ظهر في أجزاء متفرّقة باللغة اللاتينية، خلال بعض الوقت، ولم يتمّ تجميعه وترجمته الى الأيرلندية، الا بعد اختراع الطباعة، في القرن الخامس عشر الميلادي.

كيف عرف مؤلف هذا الكتاب بما دار على ألسنة الصبييّن؟ يبدو أن الفضل في ذلك يعود الى التقليد الشفاهي verbal tradition، أي انتقال المعلومات عبر الأفواه خلال فترات زمنية طويلة تصل

أحيانا الى عدّة قرون، فمن الجائز أن بعض النسوة الأرامل كنّ موجودات هنّ أيضا في ذلك الكهف الصغير الذي ترك فيه يوسف امرأته مريم. وقد لعبت مثل أولئك الأرامل دائما دورا هاما في نقل المعلومات بالطريق الشفهي، في التجمّعات المسيحية المبكرة. هل كن يردن أن يقمن بدور القابلة، بحيث لا يعود للقابلة المحترفة ضرورة عندما تحضر؟ هل كنّ يرغبن في نفحة؟

في النسخة اليونانية التي وصلتنا، وكذلك في النسخ اللاتينية المبكرة، نشب نزاع بين امرأتين من أولئك النسوة، حول الحالة الجسمانية والصحية للعذراء مريم. في النسخة اليونانية، هاتان السيدتان هما في الأصل قابلتان غير رسميتين، يظهر اسماهما بأشكال مختلفة في النسخ المختلفة، فهما أحيانا زيلومي وسالومي (أو سالومة)، أما في النسخة السيريانية وفي نسخة قبطية جاءتنا من مصر، فتظهر قابلة واحدة بدلا من اثنتين واسمها شالومة. في بعض التقارير الأخيرة عن وقائع ليلة الميلاد، قيل إنها كانت واحدة من أفراد عائلة يوسف النجّار دون تحديد واضح لشخصيتها. قيل كذلك فيما بعد إن هذه القابلة كانت ابنة يوسف النجار والأخت الشقيقة الأكبر سنّا ليعقوب (جيمس) وصموئيل. بينما نحن لم نسمع أبدا عن أخت للذكور الأربعة.

على أيّة حال بينما كانت هذه القابلة تحاول فحص حالة مريم، حدث أن احترقت أصابع يدها في النار التي أوقدها الصبيّان للتدفئة، أو قد يكون من أوقد النار هم رعاة الغنم الذين كانوا قد تجمّعوا حول الكهف، متسائلين عن مصدر أصوات الغناء القادمة من جهة السماء، فوق موقع الكهف، قبل أن يكون يوسف النجار قد عاد من مشوار بحثه عن قابلة. في ضوء تلك النار كان يمكن للواقفين خارج الكهف ادراك أن الطفل قد وُلِد. لُفَّ الطفل في قِماط من قماش ممزّق، ووُضِع بواسطة الآخرين على صدر مريم.

هذه هي على ما أعتقد المناسبة الأصلية التي أطلق فيها هذا السؤال للمرة الأولى (هل كانت مريم تحتاج فعلا الى قابلة؟) ثم إذا بنا نصل الى سؤال آخر هو (هل ولدت مريم الطفل أم وجدته فجأة على صدرها وبين يديها؟). ظل الناس يعتقدون لفترة طويلة أن ولادة الطفل التي تمّت دون أن تشعر أمّه بأية آلام، هي من الحقائق الكتابية المقدّسة scripture، وإن كان هذا في الواقع هو مجرّد عبارة وردت في كتاب (ما قبل الانجيل) Protevangelium. هذه العبارة ذكرها لاحقا الأب كليمندوس السكندري Clement باللغة اليونانية، ثم ذكرها بعده المؤلف ترتيليان باللاتينية في نهاية القرن الثاني الميلادي. المسألة تتعلق بموضوع تفسير قدرة مريم المادية والجسمانية في السيطرة على عملية الوضع. هل كانت الولادة سهلة جدا ببركة الهية بحيث إن مريم لم تكن تحتاج فعلا الى أية معونة من طرف القابلات؟ هل لدينا هنا عنصر اعجازي؟

ثم إن هناك اعتقاد ساد لبعض الوقت، أن فترة حمل مريم في طفلها لم تطل الا بقدر شهرين اثنين فقط لا غير. أنا شخصيا كان قد تولّد لدي هذا الاعتقاد، فبقراءتي النسخة اليونانية من (ما قبل الانجيل)، اعتقدت أن الطفل كان ينمو بسرعة غير بشرية، حيث إنه حتى في صباح تلك الليلة الأولى من عمره التي وُلِد فيها في كهف، أو في مِزْوَد بقر، كان يستدير برأسه، بل بجسمه كله، وهو بين ذراعي أمه، لينظر اليها في عينيها، فالنسوة اللائي كن هناك، تناقلن هذا الخبر، مع الضوء الأول لفجر اليوم التالي.

في النسخة اليونانية من (ما قبل الانجيل) هناك نص يقول (إن احتراق أصابع القابلة، أو الفتاة التي حاولت مساعدة مريم في الوضع، كان عقابا الهيا، لكل من حاول لمس جسد مريم، للتأكد من وضعها). وفي النسخة اللاتينية هناك نص يقول إن القابلتين اللتين حضرتا للمساعدة في الوضع، شهدتا لاحقا على أنه لم تكن هناك أية علامات مادية يمكن رؤيتها، تدلّ على أن السيدة قد وضعت طفلا، فليست هناك مثلا أية آثار للدماء لا على الأم ولا على الطفل. تمّ تصوير هذا المنظر من قبل القابلات والأرامل الموجودات على أنه معجزة. وقد أصبح هذا الموضوع، مناسبة لتأمل ملابسات تمّ التعارف عليها، في موضوع العذراء المقدّسة التي تلد ولادة معجزية. وشاع أن الرب الذي أراد جعل الحمل سريا، هو نفسه الذي جعل مخاض الوضع هو الآخر سريا.

في واحدة من النسخ لعبت القابلة سالومة دورا سلبيا، دور تلك التي لا تصدّق، ولا تؤمن بما يقال لها، وتثير دائما الشكوك، وهو ما تم إخفاؤه في الأناجيل الأربعة القانونية، حيث كانت زوجة يوسف الأولى ووالدة المؤلف جيمس، موجودة هي كذلك، بين غيرها من النسوة، وقد ظهرتا سويّا في مواقف أخرى من الأناجيل، مثلا الى جوار صليب المسيح، ثم ظهرتا كذلك في سفر أعمال الرسل، حين أصبح جيمس من الأعضاء القياديين في الكنيسة. كان جيمس قد شغل منصب أسقف أورشليم، ثم بعد موته شغل أخوه سمعان الأصغر سنا نفس المنصب.

يقول انجيل القديس لوقا (كانت مريم خائفة عندما سمعت أن الأطفال دون الثانية سيقتلون، فأخذت الطفل ولفّته في قماط ووضعته في مزود للبقر). هذه هي بداية مذبحة الأطفال الأبرياء على يد جنود هيرودس[89]، التي يذكرها التاريخ الفعلي المسجّل للامبراطورية الرومانية، في هذه الفترة المبكرة من القرن الأول للميلاد. تقول المصادر التاريخية، أن حتى الكاهن زكريا، أحد كبار كهنة أورشليم، وزوج أليصابات ووالد النبي يحيى، قد ألقي القبض عليه، ويبدو أنه قد تمّ قتله بشكل غامض. من الناحية التاريخية، ليس من المستبعد أن يدخل هيرودس، في صراع مع عائلات الكهنة، الذين كانوا الحكام الفعليين للبلاد على زمن المكابيين، وليس من المستبعد كذلك أن يُقْتل بعض أطفال عائلات الكهنة، أو أن يهرب بعضهم الآخر أو يُساق الى المنفى في البرية الصحراوية، مثلما فعل يحيى (يوحنا المعمدان). من الحكايات التي قيلت بمناسبة هذه المذبحة وهذا الاضطهاد، التي رواها لاحقا البعض من مريدي المسيح وتابعيه، الذين تحوّلوا لاحقا رسميا الى المسيحية، حكاية هروب العائلة المقدّسة من مذبحة الأطفال، الى صحراء سيناء ومنها الى مصر[90].

4- موت مريم

هذه الأسطورة لها تاريخ مختلف، وأماكن وقوعها هي أولا كنيسة أورشليم، وثانيا البيت على جبل صهيون الذي دارت سابقا في طابقه الأعلى أحداث العشاء الأخير[91]، وحيث حلت سابقا في طابقه الأرضي الروح القدس على التلاميذ الاحدى عشر، المجتمعين بعد صعود المسيح الى السماء، في اليوم الخمسين من حادثة القيامة من الأموات، فيما عرف لاحقا باسم عيد العنصرة. هذا هو البيت الذي أقامت به العذراء مريم في أورشليم، بعد موت ابنها. هو نفس البيت الذي تمّ توسيعه في القرن الرابع الميلادي، ليتحوّل الى كنيسة، ظلت تتكون من طابقين، على أن يحتفظ الطابق العلوي بحجرة نوم مريم.

أما المكان الثالث المثير للاهتمام في أحداث هذه الأسطورة، فهي مقبرة وادي قِدرون، التي يعتقد أنها مكان دفن جثمان مريم، وتقع بالقرب من بستان جسثيماني الذي صلى فيه المسيح لآخر مرة ليلة القاء القبض عليه، وهو نفس البستان الذي تحوّل بالتدريج، الى مقبرة جماعية لعدد من الأعضاء المبكرين في كنيسة أورشليم. ثم حدث في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أن بنيت كنيسة فوق قبر مريم الفارغ. في الواقع فإن جبل صهيون وحديقة جسثيماني، كانا مكانين للحجّ قبل أن تفتح الأماكن المقدّسة الأخرى في أورشليم في العصر الحديث أبوابها للحجّاج.

ثم هناك مكان رابع له هو الآخر أهمية خاصة جدا. فعلى الطريق بين أورشليم وبيت لحم، تقع الكاثيزما Cathisma، بالقرب من علامة الطريق الثالثة، وهي مكان للجلوس للراحة لبعض الوقت، أو لمبيت الليل، يشاع أنه الموقع الذي ماتت عنده العذراء مريم، حيث كان الشعب المسيحي قد اعتاد خلال قرون طويلة أن يحتفل في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس في كل عام بذكراها، وذلك حتى قبل أن تقام لها كنيسة في هذا الموضع بواسطة سيدة تدعى ايكيليا Ikelia، بين عامي 439 و458 ميلادية. ورغم أن المسافة بين أورشليم وبيت لحم هي حوالي 100 كيلومتر، الا أن شعب المنطقة في العصور القديمة اعتاد على قطعها مشيا، أو على ظهور الدواب، في مدة بين خمسة أيام وأسبوع، وكان الناس يبيتون لياليهم عند علامات الطريق.

أشيع كذلك خلال فترة طويلة قد تصل الى ثلاثة قرون، أن هذا الموضع هو نفسه الموضع الذي كانت مريم قد طلبت فيه من يوسف، أن ينزلها من على ظهر الجحش ابن الأتان، في الليلة التي وضعت فيها الطفل يسوع. وهو بالتالي المكان الذي كان يحتفل فيه حتى القرن الثالث للميلاد، بذكرى مولد الطفل يسوع.

وبالتالي يمكننا بسهولة بعد حصولنا على هذه المعلومات، أن نرى حجم القداسة التي لمثل هذا المكان المدعو كاثيزما. من المعروف الآن بدقة إن وفاة العذراء مريم وبالتالي نهاية حياتها الأرضية، قد حدثت في يوم 15 أغسطس، وقد استمر الاحتفال به في موقع تلك الكنيسة المشار اليها أعلاه، حتى وقتنا الحاضر. أما الاحتفال بمولد الطفل يسوع فقد انتقل من كاثيزما الى أحد كهوف مدينة بيت لحم، بداية من القرن الرابع للميلاد.

أما الطريقة التي ماتت بها فهناك روايتان مختلفتان الى حد كبير، كانتا منتشرتين بنفس القدر من الانتشار، حتى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، الأولى تقول إن مريم ماتت شهيدة أثناء أحد الاضطهادات في أورشليم، والثانية تقول إنها اختفت دون موت في إفسوس. ومن المعروف أن يسوع المسيح كان قبل موته قد عهد برعاية أمه، الى أقرب تلاميذه الى قلبه، وأصغرهم سنا، وهو القديس يوحنا الذي كتب لاحقا سفرين من أسفار الانجيل، هما سفر بشارة يوحنا، وسفر الرؤيا، وأنه كان قد انتقل من أورشليم للاقامة في إفسوس.

هناك شائعات تتعلق بيوحنا تقول إنه كان في شيخوخته قد اعتاد على الذهاب لزيارة موضع قبره، وحتى بعد أن كان قد تعدّى سنّه المئة عام. وذات مرّة كان قد ذهب الى هناك فتجمهر الناس حوله، فوقف يلقي عظة أمامهم، حين اختفى فجأة من أمامهم، تاركا نعليه في موضع وقوفه. هناك كذلك رواية شبيهة تروى عن مريم، جاءت في موعظة مكتوبة لابيفانوس الراهب يقول فيها (إنها كانت أمام أعيننا جميعا، وبعد قليل وبينما كل الذين كانوا موجودين يلاحظون، أصبح الجسد بالتدريج غير مرئي لنا).

إن قصص تحوّل الأجساد المرئية، الى أرواح غير مرئية، والمعروفة اصطلاحا باسم ، تنتمي الى تلك المرحلة الرماديّة الانتقالية، بين الديانات الوثنية من جهة، والديانة المسيحية من جهة أخرى، مرحلة التداخل بين معتقدات كل من الديانتين، وبذلك يمكن بهذه الطريقة التعامل مع العذراء مريم على أنها كائن ملائكي، أي على أنها غير مولودة على ما نحن مولودين عليه، وبالتالي لا تنطبق عليها قوانين الطبيعة التي تنطبق على غيرها من البشر.

أما قصة استشهادها فتعتمد على تفسير نبوءة للقديس بطرس، وهو الذي كان اسمه سمعان ثم أطلق عليه المسيح اسما جديدا هو بطرس، وهي كلمة يونانية تعني صخرة، قائلا له (على صخرتك تبني كنيستي). ففي الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا (يرى بطرس أن سيفا يخترق قلب مريم). إن أولئك الذين يعارضون التفسير الحرفي لهذا النص، بمن فيهم القدّيس أوغسطينوس، لم يكونوا يعارضون في مسألة أن تكون مريم قد ماتت شهيدة، بأن يخترق سيف قلبها، ولكنهم كانوا يعارضون في مسألة قدرة بطرس على التنبؤ بذلك. وما حدث هو أن الاعتراض تركّز لاحقا، على عدم امكانية الاعتراف بالاستشهاد، الا في حالة العثور على جسد الشهيد.

وفي النهاية أصبح الشكل المتعارف عليه لقصة نهاية حياة العذراء مريم، أنها كانت قد فرّت من الاضطهاد في أورشليم، ولم تفكر طبعا أن تختبىء في بيتها بأورشليم، ولكنها عادت الى بيتها في بيت لحم، الذي هاجمه الجنود الرومان وأشعلوا فيه النيران، وهم يعلمون أنها بداخله، ولكن جاء المسيح بنفسه وأنقذها من الجنود ومن النيران، ثم نقلها الى بيت أورشليم بالقرب من جبل صهيون، حيث لحق بهما الكثير من الأتباع والحواريين، حتى من كان قد مات من بينهم، إذ قام من قبره ولحق بالجميع هناك، حيث شهد الجميع العذراء ممدّدة على فراش الموت، وروحها تصعد مع المسيح الى السماء، في حين ظل الجسد راقدا على الفراش، فحمله الجميع في موكب جنائزي الى وادي قِدرون، حيث لحق بهم بعض الرومان الذين كانوا لا يزالون مصرّين على إحراق الجثمان، الا أن المسيحيين نجحوا في دفن الجثة.

تأتي بعد ذلك قصة البعث من الأموات. في النسخة اللاتينية، يحدث البعث بعد وقت قصير من الدفن، وقبل أن يحدث فساد الجسد. أما في الروايات المصرية، فيحدث البعث بعد حوالي سبعة أشهر، أو بالتحديد بعد 207 يوما. وفي بعض القصص تنقل الملائكة جثمانها الى جنة عدن، الفردوس الأرضي، وهو حسب معتقدات ذلك الوقت، المكان الصحيح للبعث. إن التعريفات التي وضعتها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية سنة 1950، لكلمات (البعث) و(الصعود الى السماء)، لا تستبعد في أيٍ منهما فكرة الانتقال الى العالم الآخر، ولكن في تطبيقات هذه التعريفات على القصص المختلفة، قد يحدث أحيانا أن يُستَبْعد انتقال المبعوث من الموت الى العالم الآخر، كما حدث في بعض نسخ قصة بعث العذراء مريم، فالبعث حقيقة مؤكدة، ولكن الانتقال الى العالم الآخر غير مؤكد.

إن كل الذين وضعوا مؤلفات في حياة العذراء مريم (أو في الحيوات المختلفة للعذراء مريم)، آمنوا إيمانا راسخا بكونها قد اعتبرت شخصا مقدّسا، منذ مرحلة طفولتها الأولى، بدليل قصة البتالون الذي كان يبرق لمعانا، فوق رأس كبير الكهنة، عندما قدّمت الى الهيكل، وهي طفلة رضيعة، لتكون مكرّسة لعبادة الرب، وقد يكون في قصة البتالون بعض الاحساس بقدر من فطرة البراءة في والد ووالدة مريم. ثم إن كل الذين وضعوا مؤلفات في (حيوات مريم) آمنوا ايمانا راسخا بعذريتها الأبدية، ولكنهم لم يكونوا يهتمون بتفاصيل حملها، ولذلك تظل تفاصيل ذلك الحمل، وعملية الوضع، غامضة الى حد بعيد حتى عصرنا الحالي.

في موعظة مكتوبة للقديس جريجوري بالاماس، من القرن الرابع عشر الميلادي، قام بعمل دراسة تمهيدية مبكرة، عن أفكار تدور حول ما ينبغي الاعتقاد فيه، فيما يتعلق بمسألة الطفل المختار من الرب، وهي الفكرة التي تتكرر كثيرا في الديانة اليهودية، ويمكن أن نقتفي آثارها في عدد كبير من الشخصيات الكتابية المقدّسة، الذين يمكن اعتبارهم كلهم ضمن سلسلة أجداد العذراء مريم، من النبي اينوخ الى الملك داود. ما هو موقف هؤلاء الأطفال المختارين من خطيئة بني البشر الأصلية الأولى؟ لقد طرح القديس أوغسطينوس أسئلة بهذا الخصوص، الا أن القديس جريجوري بالاماس يبدو غير بعيد. إن العذراء مريم في كتاب (ما قبل الانجيل) Protevangelium، من تأليف جيمس (يعقوب) الأخ غير الشقيق ليسوع المسيح، تبدو طفلة كاملة البراءة، قد تخاف الى حد مرعب، من أشياء بدت لها غامضة مجهولة، إلا أنها أبدا لم تقرب طوال حياتها أيّة خطيئة، نعم طوال حياتها.

الفصل السابع

حيوات القديسين

1- سفر أعمال الرسل غير المعترف به

إن لسفر أعمال الرسل في كتاب العهد الجديد، نفس الصفات التي تخصّ كتب روايات المغامرات الشعبية، مثل دخول السجن، والهروب من السجن، والرحلات البحرية الصعبة التي تتعرض للعواصف، وزيارات لمدن مثيرة للاهتمام مثل أثينا وإفسس وروما، وفي النهاية الموت على الصليب للبطلين الرئيسيين في الكتاب بطرس وبولس. ويأتي غالبا في نصوص سفر أعمال الرسل الوصف التفصيلي لغرق حطام سفينة، ولكن لا يأتي أبدا وصف لمشاعر عميقة مثل مشاعر الحب، لأنه ليس هناك في سفر أعمال الرسل اهتمام بالحب. النتيجة النهائية في روايات هذا الكتاب هي الموت، ولكن هذه النتيجة لا تأتي ضمن ذروة الحبكة في الرواية climax، على طبيعة ما اعتاد القرّاء في الروايات، بل تأتي متمهّلة جدا، حيث تُرِك القدّيس بولس سجينا في روما لمدة عامين، دون محاكمة ودون استشهاد.

نعرف الآن أن هناك سفرين يحملان نفس العنوان (أعمال الرسل)، أحدهما هو السفر الرسمي، الذي إختارت الكنيسة أن يكون ضمن أسفار العهد الجديد حتى عصرنا الحالي، والآخر هو السفر الذي دأبت الكنيسة على تسميته أبوكريفا apocryphal، وتعني المخفي أو المزيّف أو غير الشرعي أو غير القانوني أو غير المعترف به، ومع ذلك فهو سفر أعمال الرسل الذي صدرت منه مخطوطات شعبية عديدة خلال قرون طويلة، إذ وجد بين الطبقات الشعبية انتشارا أكبر، من الانتشار الذي وجده سفر أعمال الرسل الرسمي، وذلك لأن السفر المزيّف حاول علاج أخطاء ونواقص السفر الرسمي، على مستوى المعالجة الفنيّة.

إن سفرا خاصا بأعمال القديس بولس، كان دون شك متداولا لفترة من الوقت، حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، وهو طبقا للمؤرّخ ترتيليان، كان قد تمّ تجميع أجزائه، وإعادة صياغة فقرات منه، بواسطة قسّ كنيسة في آسيا الصغرى، كان قد قام بهذا العمل حبّا في القديس بولس، ولكنه خُلِعَ من منصبه بسبب مجهوداته تلك، ويعتقد الآن أن (سفر أعمال القدّيس بولس)، كان من كتبه - سواء أكان ترتيليان أو غيره - قد اعتمد على نسخة مبكّرة، مما عرف قديما باسم (سفر أعمال القدّيس بطرس). إن كل عمل من هذين العملين يسجّل قصة استشهاد أحد الرسولين، في الاضطرابات التي وقعت بعد حريق روما الكبير سنة 64 ميلادية، وبعد سجن القديس بولس، كما جاء في الاصحاح 28. كذلك يقص علينا السفران قصة ذهاب القديس بولس في مغامرة الى اسبانيا.

2- قصة مغامرة القديس بولس في اسبانيا مع فتاة تدعى تكلا

في هذه الحلقة من حلقات مغامرات القديس بولس، يظهر القديس وهو ذاهب بين مدينتين في اسبانيا، من مدينة ليسترا الى مدينة ايكونيوم، ويظهر حسب الوصف الوارد في الكتاب في صورة رجل قصير القامة ولكن قوي البناء، يميّزه من بعيد رأس أصلع وساقان مقوّستان، فإذا اقتربت منه لاحظت أنفه الكبير، الذي يلتقي الحاجبان أعلاه، وتعبير وجهه الصارم. لا شك في أنه لم يكن يتمتع بأية ملامح وسيمة على الاطلاق. مع ذلك ففي بعض الأحيان كان الناس يقولون إنه مجرد رجل عادي، وفي أحيان أخرى كانوا يقولون إن له وجه ملاك، رغم ملامح القبح الواضحة فيه.

هناك بين هاتين المدينتين كان رجل يدعى أونيسيفوروس Onesiphoros يبحث عنه، بعد أن كان قد سمع عنه من صديق يدعى تيتوس. وحدث أن تمكّن أونيسيفوروس من العثور على بولس، إذ وجده سائرا على الطريق، فأخذه معه هو ومرافقيه الى منزله، حيث دارت بينهما أحاديث طويلة، حول موضوع القدرة على التحكّم في الذات والسيطرة على النفس، وعلاقة هذه القدرة ببعث الانسان بعد موته. كانت هناك سيدة صغيرة اسمها تكلا، تسكن في منزل قريب، وتنصت الى تلك الأحاديث المرتفعة الصوت، من نافذة صغيرة في منزلها. كانت تكلا مخطوبة الى شاب يدعى تاميريس، ولكن من المحتمل أنها كانت متردّدة في إتمام هذا الزواج، وقد ازداد تردّدها خاصة بعد أن استمعت الى كلام القديس بولس، لأنها على ما يبدو من النص، كانت مهتمّة اهتماما خاصا بما قاله القديس عن موضوع أهمية العذرية في حياة الفتاة التي تريد تكريس نفسها لخدمة الرب.

كان ما أسخط والدتها عليها بشدة، هو أنها استمرّت في استراق السمع، وظلت ملتفتة بانتباه شديد الى نافذة الجيران، ولم تستدر وهي جالسة في مكانها عندما جاء خطيبها من خلفها وقبّلها، ولكن ظلّت جالسة الى جوار النافذة. وقد أدّى هذا الموقف الى تأذّي خطيبها تاميريس، الذي قرر أن يتحرّى عن بولس، فبدأ في البحث عنه حتى وجد بعض تلاميذه أو مرافقيه، وتعمّد أن يدخل معهم في نقاش حاد حول موضوع البعث والقيامة من الأموات، وسريعا ما تحوّل النقاش الى مشاجرة. بعد ذلك ذهب تاميريس الى قسم الشرطة للإبلاغ عن بولس، متهما إيّاه رسميا بممارسة أعمال السحر، سعيا منه لتحويل الفتيات العذراوات من الإقبال على الزواج، الى رفض الزواج والإصرار على العذرية.

الغريب هو أن الكثيرين من بين أفراد شعب تلك المدينة كانوا يبدون استياءهم وتذمّرهم من أحاديث بولس، وبالتالي ما دعّم اتهامات تاميريس، فتم القاء القبض على بولس ووضعه في سجن مدينة ايكونيوم، الى أن يتمكن حاكم المدينة من تدبير الوقت اللازم، لإعادة النظر في القضية. كان حاكم المدينة يحمل لقب نائب قنصل Proconsul روما، وهو اللقب الذي كان يحمله الحاكم العسكري لمقاطعة رومانية، وكانت اسبانيا في ذلك الوقت من منتصف القرن الأول للميلاد، تتكوّن من مقاطعات تابعة للامبراطورية الرومانية. بعد رشوة بوّاب السجن ثم حارسه، تمكنت تكلا من الوصول الى داخل السجن، حيث يحبس القديس بولس، فجلست عند قدميه، وقبّلت سلاسل قيوده. ثم تبعته الى قاعة المحكمة يوم محاكمته، وظلت تنظر اليه، بل إنها لم ترفع عينيها عنه.

انتهت المحاكمة وصدر الحكم بمعاقبة القديس بضربه بالسياط، ثم بطرده الى خارج أبواب المدينة،

ومنعه من دخولها مجدّدا. الشيء الغريب جدا في هذه القصة، هو أن أم تكلا انقلبت عليها تماما، إذ إنها كانت مذهولة من تصرّفات ابنتها، واعتقدت أنها قد وقعت في أسر سحر قديم، فطلبت من القاضي أن يحكم على ابنتها بأن تحرق بالنار حتى الموت، وذلك حتى تكون عبرة لغيرها من الفتيات المضلّلات. الأغرب في الموضوع هي السرعة التي وافق بها الحاكم وأقرّ بها هذا العقاب، الذي تمّ الاعداد لتنفيذه على الفور، كما كان الحال وقتها مع كل السحرة الأشرار، إذ قام شباب المدينة وفتياتها، بإعداد كومة من الحطب الجاف، الذي يسهل إشعال النار فيه.

اقتيدت تكلا الى المكان، حيث نظرت حولها فلم تجد الا نظرات العداء في عيون جميع الناس، ثم رأت القديس بولس يقترب منها، هذا كان ظنها، الا أن الحقيقة هي أن هذا الشخص كان يسوع المسيح نفسه، مما جعلها تثق في خلاصها، هكذا يقول النص. رسمت تكلا على صدرها علامة الصليب، أثناء صعودها درجات السلم الى منصّة المحرقة، ثم أمسك بها الآخرون وألقوها فوق الحطب، وهي مقيّدة الأطراف، وأشعلوا النار في الحطب. ثم فجأة قبل أن تمسّها النار بمسافة قليلة، سقطت الأمطار الغزيرة على الموقع وأطفأت النار، ثم حدثت زلزلة أرضية. هكذا يقول النص. وجدت تكلا نفسها حرة، إذ أحرقت النار قيود أطرافها، ونظر اليها الناس من بعيد ولم يعودوا يجرؤون على الاقتراب منها!!!

يقول النص شارحا ما حدث إن السماء قد قررت في اللحظة الأخيرة، أنه بدلا من قبول تكلا كشهيدة للايمان، بمعمودية الدم والنار[92]، تمّ قبول معموديتها بالشكل التقليدي، أي بالماء الذي هبط عليها من السماء، والروح القدس في شكل المسيح شخصيا. هذه هي ذروة الحدث climax، الا أن النص الذي لدينا في صورته الحالية، التي وصلت الينا عبر قرون طويلة من الحذف والاضافة، يتوقّف هنا، إذ لم يخبرنا أحد بما حدث بعد ذلك، فما معنى (نظر اليها الناس من بعيد ولم يعودوا يقتربون منها)؟

المنظر التالي في الرواية ينتقل بنا الى مقبرة على بعد عدة أميال من المدينة، يقول النص (يستغرق المشي اليها نصف نهار)، استعملها القديس بولس كملجأ ومخبأ له، ومعه صديقه أونيسيفوروس وكل أفراد أسرته، ولا علم لديهم بما حدث مع تكلا. يبدو أن أقرب مدينة اليهم كانت لا تزال هي ايكونيوم، إذ لم يكن لديهم مدينة أخرى أقرب اليهم منها، فهم يرسلون أكبر أبناء أونيسيفوروس الذكور الى سوق المدينة، ليشتري لهم بعض مستلزماتهم الغذائية. هناك يقابل تكلا في سوق المدينة، ويبدو أنها كانت قد عادت الى الاقامة مع أمها في نفس المنزل، ولم يعد أحد بعد حادثة المحرقة يضايقها. قال لها أكبر الأبناء إنهم كانوا يصلّون لها خلال الأيام الستة الماضية، فعادت معه اليهم في المقبرة وشاركتهم وجبتهم المتقشّفة.

كان القديس بولس سعيدا بهروبها من ايكونيوم، ولكن لم يكن موافقا على نيّتها أن تقص شعرها وترتدي ثياب رجل وتتبعه الى النهاية، خوفا من أنها قد تكون في سبيلها الى السقوط في إغواء أسوأ من الإغواء السابق. عندما سالته عن علامة ضمان معموديتها، أي عن موعد اعتمادها كمسيحية مؤمنة، طلب منها أن تنتظر في صبر حتى يأتي الوقت المناسب، حين يحقّ لها أن تستقبل معمودية الماء والروح القدس، في الطقس الكنسي المعروف. ومع ذلك تبعت تكلا القديس بولس رغما عنه، حتى عادت معه ومع مرافقيه الى أنطاكية بسوريا، حيث حاول أن يجعلها تعود الى بلدها، بأن أنكر

كل صلة له بها، حتى حين ألقي القبض عليها بتهمة إهانة أحد كبار القادة العسكريين، ولم يتمكن بولس من إنقاذها، إذ كان هو نفسه في نظر السلطات الرومانية مطلوبا للعدالة. كان القائد العسكري في الحقيقة قد حاول التحرّش بتكلا في السوق لأنها وحدها وغريبة عن البلد، فمزّقت له عباءته وغطاء رأسه، ونظرا لغرابة أطوارها فقد قبض عليها وألقيت على الفور، في عرين الوحوش الضارية.

هنا تحدث مرة أخرى معجزة جديدة تدلّ على مدى قدسية هذه الفتاة تكلا، إذ يقول النص إن الأسود والدببة المتوحّشة رفضت أن تلمسها، بل حتى رفضت أن يهاجم بعضها بعضا كأنها استؤنست ولو مؤقتا. فأخذوها من العرين وألقوها في بركة ماء بها فَقَمات متوحّشة تتصارع، فلم يحدث لها أي شيء. فأخذوها الى اسطبلات الثيران حيث ربطت أطرافها الأربعة الى ثورين هائجين، ذراع وساق الى ثور من جهة، وذراع وساق الى ثور من جهة أخرى، فتمزّقت الحبال التي كانت قد قيدوها بها الى الثورين، دون أن تصاب بأي مكروه.

في النهاية أطلق سراحها بطلب من سيّدة لها شخصية ذات حيثية في المدينة، فحدث أن حوّلت تكلا هذه السيدة وكل أهل بيتها الى المسيحية. ثم بدأت تكلا بعد هذه الحادثة في محاولة التخفّي من جديد، باستعمال ملابس وعباءات رجالية، بدلا من ملابسها النسائية. ثم عادت من جديد الى استكمال مهمتها الأولى في البحث عن القديس بولس، حتى عثرت عليه هذه المرة في مدينة ميرا Myra في اقليم ليسيا بآسيا الصغرى، حيث رحّب بها بحرارة أكثر حتى من تلك الحرارة التي كان قد قابلها بها في مقبرة اسبانيا، لعلّه كان سعيدا بالأخبار التي وصلته عنها، فأعلنته عن نيّتها أخيرا في العودة الى ايكونيوم، فأجابها (اذهبي واستمري في تعليم كلمة الله).

عندما عادت الى موطن رأسها كان تاميريس قد مات، ولم ترغب أمها في الانصات الى كلمة الله. ذهبت الى سيلوسيا حيث عاشت بضع سنوات، وفي بعض النسخ يقول النسّاخون إنها عاشت حتى بلغت سن الثانية السبعين. الإضافات اللاحقة الى قصتها تعطينا معلومات عن انجازاتها في الزهد والتنسّك، وعن معجزاتها في شفاء الأمراض، وعن قدراتها في مواجهة حيوانات مفترسة، ليس فقط تلك التي قابلتها في أنطاكية. لكن عندما بدأت الكنيسة في العصر الحديث، في اتخّاذ مواقف أكثر تشدّدا، فيما يتعلق بحدود ما يمكن أن يوضع في كتاب العهد الجديد بين الأناجيل الأربعة والرسائل، حذفت الكثير مما كان قد أضيف الى العهد الجديد، في القرون الأولى للميلاد، وفي القرون الوسطى (من الثامن حتى الرابع عشر الميلاديين). هذه النصوص التي أسمتها الكنيسة الرسمية النصوص المحرفة أو (الأبوكريفا)، لم تحتفظ بها ضمن تراثها الديني الا الطوائف الدينية التي اعتبرتها الكنيسة الأم، طوائف منحرفة عن الطريق القويم، مثل الطائفة الغنوصية Gnostic، والطائفة الدوسيتية[93] Docetic.

لكن كان من الصعب، خاصة في سفر (أعمال الرسل)، التمييز لاحقا بين الاضافات الطائفية من جهة، والتصويبات التي أدخلتها الكنيسة الأرثوذكسية من جهة أخرى، واعترفت بها بقية الكنائس الرسمية، وأقرّت بصحتها لأغراض متعدّدة، منها القضاء على بعض خرافات القرون الوسطى، بغرض زيادة الوعي الثقافي لدى شعب الكنيسة، ومنها إعادة الاعتبار لبعض الشخصيات التي كانت

قد أهملت سابقا. لكننا بالنظر الى قصة القدّيسة تكلا، التي لها في اسبانيا الآن كنائس باسمها، وأضيفت رسميا في الفاتيكان الى قائمة أسماء القديسين والقديسات[94]، فإن التأكيد والإصرار على ضرورة أن تبقى تكلا عذراء، قد يكون في بعض الأحيان بدافع المبالغات العقائدية، وفي أحيان أخرى قد يكون لهذه العذرية صلة بالنزعات الرومانسية[95]، فهؤلاء الذين تحوّلوا الى الدين الجديد، يمكنهم أن يلمّحوا الى بعض مشاعرهم، الخاصة بقلة تقديرهم لقيمة أو لأهمية الحياة الزوجية بشكل عام، وهو الملمح الواضح في القصص حيث يندر أن تجد إشادة أو تحبيذ للعلاقات الزوجية، في مقابل الاندفاع الفيّاض نحو مشاعر تكريس الحياة كلها لخدمة أهداف الرب.

3- قصة القديس بطرس مع سمعان المجوسي

تخبرنا بعض قصص كلٍ من سفر أعمال الرسل المعترف به، وسفر أعمال الرسل غير المعترف به، عن اشتباك عدد من رسل المسيح وحوارييه، في صراعات مع سمعان الموصوف بكونه ساحرا، وهي صفة أو حرفة مورست في الزمن القديم، وبكونه مجوسيا[96]، وهي كلمة تدل على ديانة اعتنقتها أعراق فارسية قديمة مارست عبادة النار وفنون السحر. إضافة الى ذلك عُرِفَ سمعان الساحر المجوسي باسم السامري، وهي منطقة جغرافية في اسرائيل القديمة. كان ظهوره سريع الزوال في الاصحاح الثامن من سفر أعمال الرسل المعترف به. إن جاستين مارتير Justin Martyr، الذي عاش هو نفسه في نفس منطقة السامرة لاحقا، يقول (قد يكون سمعان المجوسي هو نفسه مؤسس طائفة السمعانيين [97]the Simonians- وهي طائفة دينية كانت قوية هناك في السامرة في منتصف القرن الثاني الميلادي - وقد ذهب سمعان المجوسي الى روما، على زمن الامبراطور كلاوديوس، قبل أن يقدر أيٌّ من القديسين بطرس أو بولس على الذهاب الى روما). لا يذكر جاستين مارتير أي شيء عن الصراع المحتدم الذي وقع بين سمعان المجوسي من ناحية، وبين كل من القديسين بطرس وبولس من ناحية أخرى.

ولكن حيث إن تضاد الآراء كان شديدا، بين جماعة السمعانيين من ناحية، وبين بقية المسيحيين من ناحية أخرى، كان من الطبيعي نقل هذا الصراع الى روما، وتقديم فكرة المنافسة الفكرية بين الجماعتين أمام قضاة روما. انتهى الأمر باللقاء وجها لوجه، بين زعيم الطائفة الأولى سمعان المجوسي الساحر، وبين زعيم الطائفة الثانية القديس بطرس. هنا في هذا الجزء من القصة الواردة في سفر أعمال الرسل غير المعترف به من الكنيسة، تظهر بعض عناصر الحكي الشعبي المعاصر، التي تتّسم بقدر من البلاهة الوهمية الحمقاء، بحيث كان يحق للكنيسة لاحقا اعتبار هذا السفر غير معترف به.

هناك مثلا قصة الكلب والطفل الرضيع اللذين عملا كمرسالين بين بطرس وسمعان. عندما يرسلهما بطرس الى سمعان لا يعرف الكلب الا النباح، في حين أن الطفل الرضيع يجيد الكلام. وهناك مثلا قصة التنافس بينهما على إعادة صبي ميّت الى الحياة، ففي حين لم ينجح سمعان الا في جعل الصبي يرفع رأسه وهو راقد على الأرض، نجح بطرس في جعل الصبي يقوم من مكانه، ويرتدي ثيابه، ثم يحكي أخبار رحلته بعد موته، ثم بعد عودته الى الحياة، من الأرض الى السماء ذهابا وإيابا بالتفصيل. هناك كذلك القصة التي أضافها هيبوليتوس Hippolytus الى السفر، في بداية القرن الثالث الميلادي، أن سمعان طلب أن يدفنوه حيّا، على أن يقوم هو بإخراج نفسه فيما بعد بمعرفته، ثم فشل في الخروج من موضع الدفن، وهكذا يكون قد قتل نفسه بنفسه، وانتهت حياته.

كل هذه الروايات تهدف الى الاشارة الى تفوق بطرس تلميذ المسيح، على سمعان الساحر المجوسي، الذي كانت النصوص المسيحية تميل الى وصفه بالنصّاب. هناك نسخة أخرى من قصة موت سمعان، تقول إنه ادّعى قدرته على الطيران، فقذف بنفسه من قمّة أحد أبراج المدينة، وحلّق فعلا لبعض الوقت في الهواء فوق روما، وفوق مبنى الفورام Forum بها، الا أنه سقط فجأة من ارتفاع

شاهق، ومات بسبب تحطّم عظام جسده. التفسير - يقول النص - هو أن سمعان وثق في الشيطان، الذي ساعده على الطيران، بآلة الشياطين الجهنّمية diabolic machinery، ثم تخلى عنه كما تفعل دائما كل الشياطين، في الأرض أو في السماء.

واختلطت المسائل الى حدٍ ما عندما وجدنا في بعض القصص الأخرى، أن الذي رحل الى روما لمواجهة سمعان الساحر المجوسي، هو القديس بولس وليس القدّيس بطرس، ثم بسبب أن بعض المسيحيين الأوائل، الذين كانوا قد تحوّلوا من اليهودية الى المسيحية، كانوا يكرهون بولس بسبب مواقفه العدائية من المسيحية، قبل أن يتحوّل هو نفسه اليها ويصبح من أكبر المدافعين المذهبيين عنها، وبالتالي كانوا يحاولون تشويه سمعته، ساد الاعتقاد بأن كل الفكرة وراء المنافسة على السلطة بين بولس وسمعان، هو في الحقيقة انعكاس للصراع المستتر بين المسيحيين اليهود كارهي بولس من جهة، وبين المسيحيين من أتباع بولس من جهة أخرى. ثم لاحقا ظهرت نسخ أخرى من سفر أعمال بطرس المزيّف، أو سفر أعمال الرسل الذي لا تعترف به الكنيسة، تدّعي أن الصراع الذي دار في روما في ستينات القرن الأول للميلاد، لم يكن بين بولس وسمعان، أو بين بطرس وسمعان، بل في الحقيقة كان بين بولس وبطرس.

ثم ظهرت في أوروبا تفاصيل جديدة، من قصة سمعان مع بطرس وبولس، في نسخ من كتاب يحمل عنوان (متاعب كليمنتين) the troubles of Clementine، وضعت فيه هذه التفاصيل داخل إطار الحكي السردي. كليمنت هو رجل روماني الجنسية، من أسرة تنتمي الى الطبقة المتميّزة في بلاده، تحوّل الى المسيحية ضد إرادة أسرته واختفى، ثم فقد الاتصال بكل أفراد أسرته، أي بوالديه وبأخويه التوأمين. كان هذا الموقف المتمثّل في الاختفاء المفاجىء لبعض الأفراد، كثير الحدوث في الأدب الشعبي في تلك العصور المبكرة، ومتوقّع الحدوث في الوجدان العام للكثير من شعوب العالم، حين كانت تجارة الرقيق منتشرة جدا، وتقوم العصابات بخطف الأفراد من الأماكن العامة، وبيعهم في أسواق النخاسة في المدن البعيدة، وكان هذا ممكن الحدوث لأشخاص من كل الأعمار، حتى للأطفال الرضّع، وبالتالي تتحطّم العائلات ويتفرّق أفرادها. أحيانا كان يحدث أن سعداء الحظ من هؤلاء الأطفال يجدون من يتبنّاهم ويعتني بهم، فيربّيهم ويغذّيهم ويُنْشِئهم تنشئة حسنة، بل قد يبحث لهم الشخص الذي يتبنّاهم عن أسراتهم الحقيقية، التي تتمكن من استردادهم، مجّانا أو مقابل دفع مبالغ رمزية، عرفانا بالجميل.

في النسخة اليونانية التي تحمل عنوان (عرفان كليمنتين بالجميل) Clementine recognition، ي تم توسيعها وتطويرها عبر القرون، لتحمل لاحقا عنوان (عظات كليمنتين الدينية) Clementine Homilies، دارت المعركة أولا بين القديس بطرس وسمعان، في مدن الشام التي أقام فيها اليهود المسيحيون، مثل مدن قيصرية وطرابلس وأنطاكية. ثم تنتقل النزاعات الدينية المثيرة للجدل الى روما، التي يسافر اليها القديس بولس بدلا من القديس بطرس، وتستمر النزاعات هناك مع سمعان. في روما يعود كليمنتين الى أسرته، ويسترد علاقاته الضائعة بأفرادها. الشيء العجيب هنا في هذه النسخة اليونانية، هو أن كليمنتين يتوحّد بالقديس بولس، أي يصبحان كما لو كانا شخصا واحدا، حيث لم يعد من الممكن التمييز بين بولس وكليمنتين. يقول النص إن كليمنتين كان يدين بشهرته الحالية، ثم بعد ذلك بشهرته التاريخية، الى قيادته للكنيسة الرومانية في نهايات القرن الأول

الميلادي.

ثمّ هناك شخصية أخرى ظهرت في روما لفترة وجيزة، في نفس هذه الفترة التاريخية، وهو شخص يدعى فلافيوس كليمنت، وكان منتميا الى طبقة أثرياء روما، يدين بالوثنية ككل أفراد طبقته، ثم لحقه العار عندما ظهرت عليه تحوّلات، تدعو الى الاعتقاد بأنه أصبح مؤمنا بكل الخرافات اليهودية الواردة في التوراة. المثير في الموضوع، وهو بالتالي ما يؤدّي الى بعض الخلط بين الشخصين، هو أن فلافيوس هو الآخر، كان خلال فترة من حياته، قد بيع كعبد في أسواق النخاسة، ثم استردّ حريته.

وهكذا فإنه رغم عدم وثوقنا التام في دقّة التفاصيل الواردة عن قصة حياته، الا أن هذا المدعو كليمنتين، لعب دورا تاريخيا هاما، في كنيسة كان لا يزال يغلب عليها الطابع الوثني، لحضارات ما قبل الديانة المسيحية، حضارات شرق حوض البحر المتوسط، المصرية والكنعانية والأشورية البابلية. قد يكون كليمنتين هو مؤلف الكتاب الموضوع في ذلك الوقت باللغة اللاتينية، وحمل عنوان (سفر أعمال بطرس الرسول).

هل كان تأليف هذا الكتاب وأمثاله، هو فقط لمحاولة التقليل من قيمة بولس الرسول، الذي يكرّس (سفر أعمال الرسل) الرسمي الجزء الأكبر منه لوصف أعماله؟

هل كان العداء الذي يظهر أحيانا ضد القديس بولس في بعض كتابات الحواريين ورجال الكنائس الأولى، هو في الأصل بسبب أنهم لم ينسوا معاداة بولس للمسيحية، ومطاردته للمسيحيين الأوائل؟

هل قصة سمعان الفارسي المجوسي هي قصة مختلقة؟ أنا شخصيا لا أعتقد أن كل القصص التي رويت عن البعثات التبشيرية المختلفة لرسل المسيح وحوارييه، بعد وفاة المسيح، ثم لتلاميذهم وأتباعهم وأتباع أتباعهم، في أوروبا وآسيا وأفريقيا، خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، لم توضع الا للتقليل من قيمة العمل الشاق الذي قام به القديس بولس.

4- من روايات التأسيس

هناك الكثير من أسفار أعمال الرسل الأخرى، التي اعتبرتها الكنيسة غير معترف بها، ولكنها رغم ذلك انتشرت جدا، وبشكل خاص في دول ومناطق شرق حوض البحر الأبيض المتوسط. هناك مثلا سفر أعمال (أندراوس وماتياس في مدن أكلة لحوم البشر)، وهناك سفر أعمال (بطرس وأندراوس) الذي يقوم فيه بطرس بمعجزات خرافية، مثل تمرير جمل من ثقب إبرة[[98]]. هذه الأسفار تمّ الاحتفاظ بها لفترة طويلة من الزمن، لتبرير وإعطاء شرعية لإدّعاءات بعض الكنائس، أو للدفاع عن حقوق بعض الكنائس الأخرى، في أنه كان قد تمّ تأسيسها على يد واحد أو أكثر من الرسل الاثني عشر.

إن بعض هذه الكنائس كانت تقع خارج حدود ما اصطلح على أن يكون العالم المتمدّن في تلك المرحلة التاريخية، أي خارج حدود الامبراطورية الرومانية، وبسبب عزلة تلك الكنائس، فقد حدث أن تمكنّت من اعتناق وتطوير بعض الانحرافات في العقائد والممارسات المسيحية، التي كان متعارفا عليها في بدايات الكنيسة. مثلا فإن كنيسة إيديسّا، وهي مدينة فارسية مندثرة، كانت تقع في ذلك الوقت، في الجزء الفارسي من إقليم ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) Mesopotamia، كانت قد أعطت قيمة كبيرة جدا، لسفر أعمال القدّيس تدّايوس Thaddaeus، لأنه ذكرها فيه، وكذلك وضعت ضمن أسفار أناجيلها ورسائل القدّيسين الى المدن الأجنبية، رسالة كان قد أرسل بها أحد أمرائها الى يسوع المسيح نفسه، وهو الأمير أبجار Abgar، الذي يعتبرونه مؤسس الأسرة المسيحية الحاكمة، في تلك القرون الأولى من الميلاد، وهي نفس الأسرة التي حملت لاحقا اسم أسرة أوسرحون Oserhoene.

وفي الكنيسة الوطنية الأرمينية، نجد أن لسفر أعمال القدّيس برتولومايوس Bartholomew، وهو أحد الحواريين الاثني عشر، أهمية كبيرة نسبيا. وفي الكنيسة الوطنية السورية، نجد أن لسفر أعمال القديس توماس، وكذلك لإنجيل يحمل اسمه، أهمية كبيرة، لأنه يجعل لبعض المسيحيين السوريين الفضل في تأسيس الكنيسة في الهند، بعد أن قادهم القديس توماس الى هناك. ورغم أن الهند التي تظهر في سفر أعمال هذا الرسول القديس، تختلف عن الهند حسبما جاءت في مؤلفات بعض الرحّالة اليها، فإن الاعتراض الحقيقي على ورود هذا السفر وذاك الانجيل، في النسخ المبكّرة من الأناجيل السورية، هو ورود قصص ذات طابع خرافي بهما. مثلا انجيل توماس يورد قصة نجّار كلفه أحد ملوك الهند ببناء قصر له في موضع محدّد، وأعطاه النقود اللازمة لعمليات البناء، فإذا بالنجار يعطي النقود المخصّصة لبناء القصر الى الفقراء، ويعود الى الملك ليقول له إنه قد بنى له قصرا في الجنة. فرغم الطابع الأخلاقي لهذه القصة، الا أن هذا النجار لم يكن الا شخصية عادية، فكيف سمح لنفسه بهذا الادّعاء؟ وكيف وافقه عليه الملك؟ فيما بعد سحبت كنيسة روما اعترافها بصحة سفر أعمال توماس وانجيله. من العجيب كذلك أن الكثير من مادة هذا الانجيل المزعوم، يبدو كما لو كان مستعارا من مادة الديانة البوذية.

من جهة أخرى فإن الأحداث المثيرة للعواطف، التي وقعت في فترة استشهاد القديسين بطرس وبولس، بما في ذلك الحدث المشهور للقاء بطرس مع المسيح، وسؤال بطرس له (الى أين أنت ذاهب؟)، وجوابه عليه (أنا ذاهب الى روما حيث أصلب من جديد)، ثم حقيقة صلب بطرس مع وضع

رأسه الى أسفل وساقيه الى أعلى، كل هذه الأحداث أدّت في النهاية الى زيادة عدد المؤمنين من أتباع الكنيسة في روما، وبالتالي مع مرور الوقت الى إزدياد أهمية روما كمركز للمسيحية، وكمقر للكنيسة الكاثوليكية الرسولية، وهي الكنيسة التي كان بطرس وبولس قد أسّساها قبل استشهادهما. حدث هذا في نفس الوقت الذي كانت بدأت تنهار فيه، أهمية روما كعاصمة للامبراطورية الرومانية، بل كعاصمة للعالم المتمدّن، حتى انهارت تماما مع سقوط الامبراطورية. الا أن روما عند صلب بطرس وبولس، كانت لا تزال المركز الذي تنبع منه، كل عمليات تكوين الأفكار والجماعات في العالم المتمدّن. احتفظت كنيسة روما بمتعلقات القديسين بطرس وبولس، التي تحوّلت مع الوقت الى اعتبار أنها بين كنوز الكنيسة، كما تحول موقع صلب الرسولين حيث احتفظ بعظامهما، الى قبرين مقدّسين.

5- آلام الشهداء الآخرين من الرسل وغيرهم

أن بعض الروايات المتداولة عن الشهداء المبكّرين للمسيحية، تعتمد جزئيا على ملفّات استجوابهم أمام القضاة، أو على روايات شهود العيان، الا أن الروايات اللاحقة تقدّم الدليل على أن أغلبها قد تمّ تأليفه على نسق روايات أقدم، بعد إدخال بعض التعديلات والتحويرات، من خيال الرواة الخصب، لتتناسب مع الظروف الجديدة المتغيّرة، ولتصبح في النهاية كأنها وقائع تاريخية غير مشكوك فيها. قام بهذا العمل عدد كبير من كتّاب سير القديسين اللاحقة hagiographer، حين لم يعد متوفّرا لديهم أيّة معلومات شخصية عن القديس، باستثناء اسمه وتاريخ استشهاده وموقع قبره. شهدت تلك الفترة كذلك تحوّل أعداد أكبر من الناس من الوثنية الى المسيحية، فتعمّد بعض كتّاب السير تحويل تواريخ الاحتفالات بآلهة وثنية، لتصبح هي نفسها الاحتفالات بقديسي وشهداء المسيحية.

في أزمنة اضطهادات المسيحيين، كان كل ما يسعى اليه القاضي الذي يجري التحقيقات مع القدّيس، هو أن يصل بالمتّهم (القديس) الى الاعتراف علنا بخطئه، والى الارتداد علنا عن معتقداته الباطلة، وبغرض الوصول الى تحقيق هذا الهدف، كان القضاة يتحوّلون أحيانا، الى وحوش متعطّشة للدماء، في مواجهة متهمين غالبا ما كانوا أبرياء تماما من التهم الموجّهة اليهم، وفي حضور جمهور كبير من الشعب الذي يوجّه الاتهام الى القديس، جمهور كان من الغوغاء والرعّاع والسوقة الغاضبين. في تلك الملابسات كان القديس الشهيد غالبا ما يلقي خطبة رائعة، مزيّنة بقدر كبير من البلاغة والفصاحة اللغوية، وبها قدر كبير من الثقافة الفلسفية، وهذا بالتحديد هو الجزء الذي تخصّص كتاب السير في إضافته. عندما يتقدّم الشهيد الى منصّة الاستشهاد، أو الى منصّة المحرقة، كانت المحاولة الأولى لقتله، غالبا ما تنتهي بالفشل، كأن يخطىء السيّاف هدفه، أو تنزل مياه من السماء لتطفىء النار، كأن هناك قوة عليا تراقب المشهد وترغب في الابقاء على حياة القديس. وهكذا تكاثرت قصص وروايات، عن استشهاد عذراوات مقدّسات، وأساطير عن رهبان الفيافي ونسّاك الصحراوات.

لا شك في أنه قد حدث في حالات عديدة، أن توفّرت مواد تاريخية مرويّة عن بعض الشهداء، ربما كانت كافية لاستعمالها في كتابة سيرة لكل منهم، تكون مسلية للقرّاء ومثيرة لاهتمامهم، ولكن كانت هناك دائما بعض الفجوات التي ينبغي ملؤها. إن بعض القديسين المعروفين، كانوا قد ظهروا فقط كمادة أحلام ورؤى، في عقول بعض المؤمنين بهم. ثم هناك الكثير من القديسين، الذين قدّموا الى ذويهم البراهين، إما عن بشائر الخير أو عن نذر الشر، وهم بعد في مرحلة الطفولة، أو استشعر ذووهم مسبقّا، بأنه سيكون لأطفالهم بعض المواهب الروحية، أو بعض الشهرة في أعمال القداسة، كأن ينوح الرضيع أثناء أسبوع آلام المسيح، أو كأن يرفض الرضيع أن تطعمه أمه من ثديها، في أيام الصيامات المختلفة. كما أن هناك كذلك القصص التي تروى عن عفة القديسين الشباب، عندما يحاول مجرّبوهم أن يختبروا قوّة عفّتهم، بأن يدخلوا عليهم في خلواتهم نساء متحرّرات.

إن إغراء إدخال مواد إضافية الى حياة القديسين، كان لا يمكن مقاومته، حتى لو كان من الواضح أن المادة المتاحة لكتابة سيرة قديس، وتخصّ هذا القديس وحده دون غيره، كافية في حدّ ذاتها لكتابة سيرته. مثالنا على ذلك هي سيرة القديس كيرلس الفيلسوف، أو كيرلس المتفلسف، وهي سيرة مثيرة للاهتمام، إذ إنه بدأ حياته مزارعا يفلح الأرض، ثم عقّادا يصنع الأحبال، ثم بحّارا يجوب المدن

الساحلية. ثم إنه كان متزوّجا ووالدا لطفلين على الأقل، وذلك قبل أن يفقد زوجته المحبوبة في واحدة من الحروب المحلية. عندها قرر أن يصبح راهبا متوحّدا، وكان ذلك حوالي سنة 1050 ميلادية. إن خلفياته الحياتية لم تسمح له بالحصول على الكثير من العلم أو من الثقافة العامة، ولذلك فإن المحادثات والمحاورات المنشورة على لسانه، بها الكثير من المواد المقتبسة عن غيره من القديسين أو من المفكرين.

حدث هذا باعتراف بعض مؤلفي سيرته، وبإنكار بعضهم الآخر. هذه المواد المقتبسة كانت في الغالب من أقوال فلاسفة ومفكرين مسيحيين، من فترات زمنية مبكرة، سابقة على القرن الحادي عشر الميلادي، الذي عاش فيه كيرلس المتفلسف. هؤلاء الفلاسفة والمفكرين، كانوا يستطيعون صياغة أفكارهم بشكل جيد في لغة يونانية سليمة. وقد وردت كذلك في النسخ المختلفة من سيرته أقوال فلاسفة إغريق من القرون الأولى للميلاد، أو حتى من فترة ما قبل الميلاد، وهؤلاء وردت أسماؤهم الى جوار أقوالهم، أمثال أرسطو وإفلاطون وديوجينوس.

لكن أغلب المادة الفلسفية الموجودة في سيرة كيرلس المتفلسف، جاءت من أقوال فيلسوف أقل شهرة، من القرن الثاني الميلادي، هو إبيكتيتوس Epictetus، وهو من الفلاسفة الرواقيين[99]، وقد وصلت معلومات وأقوال كثيرة عنه، عبر كتاب تمّ تأليفه في أحد أديرة القرن الخامس أو السادس الميلاديين، كان يستعمل داخل الأديرة ككتاب مدرسي تعليمي، لتلقين مبادىء الفلسفة للرهبان المستجدّين. يجب ألا ننسى أن كتابة السير في العصور القديمة والوسيطة، كانت فرعا من فروع علوم البلاغة والفصاحة اللغوية، وأن الغرض الرئيسي من كتابة سير القدّيسين، هو أن تقرأ بصوت مرتفع في الكنائس والأديرة، وفي التجمّعات العائلية إذا توفّر قارىء جيّد، لأغراض التهذيب والتثقيف والتوجيه الأخلاقي. ذلك بالاضافة الى القيمة التاريخية لهذه الكتب، التي تكمن في الضوء الذي تلقيه على بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للشعوب.

في كتاب معروف باسم (الآباء الروحيين) Patrum Spirituale، لمؤلفه جون موسكوس M، الذي عاش في فلسطين في أوائل القرن السابع الميلادي، نقرأ عن رجل مقدّس، يستيقظ أثناء الليل ليحرث قطعة أرض، هي حقل لأحد جيرانه الفقراء، ثم يبذر فيها من بذور حنطته. كان هذا الرجل يضع في جيوبه دائما قدرا من حبوب القمح، ليطعم بها الطيور. كان يحمل في جيوبه دائما، الأدوات اللازمة لاصلاح أحذية الآخرين. كان مستعدا دائما، وهو على الطريق المنحدر الشاق بين بلدته أريحا ومدينة أورشليم، لحمل الأطفال المتعبين أو المرضى، على كتفيه.

طبعا نموذج هذا الرجل يصلح لأن يكون قدوة حسنة للصبية والشباب، لكن ليست كل قصص هذا الكتاب على نفس هذا المنوال، صالحة لأغراض التعليم والتهذيب، بل إن بعضها في الحقيقة يبدو غاية في الغرابة، مثل قصة السفينة التي رفضت من نفسها مغادرة رصيف الميناء، وذلك حتى أدرك القبطان أن على متنها سيدة قاتلة. هذه القصة تضيء لنا جانبا مجهولا عن بعض المعتقدات الشعبية الفولكلورية، مثل قدرة بعض الأشياء الجامدة على الادراك والاحساس، الذي يفوق ادراك واحساس البشر، وعن بعض المقاييس الأخلاقية لذلك العصر. لكن من جهة أخرى، هذه النوعية من القصص الغريبة، استعملها المؤلفون والمؤرخّون غير المؤمنين بوقوع معجزات، للتدليل على سذاجة بعض

المعتقدات الدينية والأفكار الشعبية، مثلما فعل الأستاذ ج. ب. بيري J. B. Bury، في كتابه (حياة القديس باتريك).

6- نظم الفروسية وقصة الكأس المقدّس

لعل أكثر القديسين إثارة للاهتمام من وجهة نظر الأساطير، هم أولئك الذين ورثوا بعض الصفات من آلهة الوثنية وأبطالها. هناك مثلا القديس جورج/ مار جرجس[100]، الذي كان على ما يبدو جنديا رومانيا تحول الى المسيحية، ثم أعلن عن مسيحيته عندما قام بتمزيق اعلان امبراطوري معلّق في مكان عام في مدينة نيقوميديا، في بداية اضطهادات الامبراطور دقلديانوس[101] Diocletian. يظهر هذا القديس دائما وهو يمتطي صهوة جواد، وأصبح بعد استشهاده قديس المسيحية الحامي لجنود ولضبّاط الجيوش. اكتسب هذا القديس لنفسه عددا آخر من المناظر الرمزية، التي لم تكن في الأصل تخصّه بل كانت تخصّ آلهة وثنية. إذ كان من المعتاد أن يظهر في أيقونات الكنائس الشرقية، وفي اللوحات الجدارية في أديرة وكنائس أوروبا، على ظهر حصان تدهس حوافره حيوانا خرافيا، هو وسط بين الأفعى والتنّين، والقديس يمسك في يديه برمح طويل أو حربه، يخترق بها جسم الحيوان في مواضع مختلفة.

هذه المناظر موجودة بتنويعاتها المختلفة في كل الحضارات البشرية، ويكون دائما المقصود بها هو صراع الخير الذي يمثّله هنا القديس، مع الشر الذي يمثّله هنا الحيوان. قد يعود أقدم هذه المناظر تاريخيا الى عصور سحيقة القدم، حين كان المقصود بها في الأصل، هو انتصار الرب الخالق حامي البشر، على قوى العدم أو على الشيطان الذي عصى أوامره. بمرور الوقت أصبح القديس جورج هو البطل النموذجي للفتيات العذارى البائسات المتبتّلات، في محنة صراعهن مع الشيطان، كما كان برسيوس قد فعل في الأسطورة الاغريقية، مع الفتاة أندروميدا، التي أنقذها من الوحش الذي يلتهم الفتيات في أعماق البحر، بعد أن كان والدها قد قدّمها قربانا اليه.

إن أسطورة القديس جورج شجّعت الفرسان على الاعتقاد، بأنه يمكنهم هم كذلك أن يصبحوا قديسين، دون أن يمرّوا بمرحلة النسك والرهبنة، فقط إذا تمكن الواحد منهم من العثور على شابة صغيرة في محنة لينقذها منها، كأن تكون هذه الشابة قد وقعت أسيرة في يد قرصان أو قاطع طريق، يكون قد أجبرها على الزواج منه. في بعض أمثال هذه القصص، أدّى الاختلاف في الرأي حول مدى صلاحية مثل هذا الزواج بالإجبار، الى وقوف الفارس المنقذ في مواجهة صراع مع الكنيسة، خاصة في جنوب فرنسا، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، حيث تحوّل الاعجاب بمثل تلك القصص، وتلك الحالات من الحب بين الفرسان والفتيات، الى نوع متميّز من الكتابة الأدبية.

لكن من الضروري هنا أن نوضّح أن هناك فرقا، من ناحية بين الاستعمال الأدبي لعناصر روائية أسطورية، وعناصر رمزية من بعض الديانات الوثنية، كانت ذات خلفيات متعلقة بالخصوبة الجنسية، ومن ناحية أخرى بين الاستعمال الديني لنفس هذه العناصر الروائية والوثنية في الأساطير المسيحية، أي ببساطة هناك فرق بين كل من الاستعماليين الأدبي والديني لنفس العناصر الروائية. مع ذلك فليس من المستغرب، أن بعض الرمزية ذات الدلالات الجنسية، ظهرت في الديانات الوثنية أولا، ثم عادت الى الظهور لاحقا في الديانة المسيحية. يجب علينا كذلك أن نتذكر أن مؤلفي القصص

الرومانسية الشعرية البسيطة، لم يكن لديهم وقتها في القرنين 12 و13، ما لدينا الآن من معرفة بتاريخ الحضارات والأساطير الاغريقية والسلتية Celtic، وإنما أخذوا عناصرهم ورموزهم القصصية، من مخزون الثقافات الشعبية الفولكلورية، ومن الأساطير التي كانت تتطوّر تحت تأثير النفوذ الجديد للديانة المسيحية، بواسطة الشعوب المتحوّلة الى المسيحية، التي احتفظت في وعيها الجمعي، أو في لاوعيها الجمعي، بخيالاتها الوثنية، خلال فترات زمنية طالت أو قصرت.

إن أحد أفضل الأمثلة على الأساطير المسيحية، التي تقع خارج إطار قصص الحب الرومانسية، يمكن أن نجده في الرحلة الطويلة على الأقدام، التي قامت بها عظام القديس كاثبار Cathbar، من مكان الى مكان، في شمال انجلترا، بعد حريق لينديسفارن Lindisfarne، محمولة على أذرع الرجال الشماليين، حتى استقرت أخيرا في ديرهام Durham. إن جامعي عظام القديسين كانوا دائما من الرهبان، المعروفين في التاريخ الكنسي بأسمائهم وصفاتهم واحدا واحدا، كأسلاف لبعض العائلات الشمالية، التي أخذت على عاتقها في تلك الأزمنة المهلكة، مسؤولية حماية الممتلكات الكنسية، في هكسهام Hexham، وفي أماكن أخرى. أحد هؤلاء الرهبان اشتهر بلقب الثعلب، وهو مؤسس الأسرة التي اشتهرت بهذا اللقب، في هكسهام حوالي القرن الثاني عشر الميلادي، وكان هذا اللقب قد أطلق عليه، بدافع السخرية منه، لأنه اعتاد على سرقة قطع الجبن الممتاز من بقية إخوته من الرهبان، ولكن اسمه الحقيقي هو ايلاف Eilaff. لا شك في أن أسطورة الكأس المقدّس، كانت قد نشأت وتطوّرت في مثل تلك الأجواء من الخراب والدمار.

إن القسس الذين كان يمكنهم تلاوة القدّاسات الكنسية، في أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، كانوا نادري الوجود جدا.

بشكل عام كانت المزارات الدينية والكنائس، تحرس وتدار بواسطة العائلات المسيحية، المقيمة في الأراضي المحيطة بهذه المزارات والكنائس، خاصة جماعات النساء من بين هذه العائلات، النساء اللائي كنّ أكثر اهتماما، بحفظ القداسة لهذه الأماكن، وبإقامة الاحتفالات الدينية السنوية. أنا أودّ هنا أن أقترح أنه ربما حدث في نفس الوقت، وفي أماكن مختلفة من الجزر البريطانية ومن أقاليم غرب فرنسا، أن تولّدت عادة الاحتفاظ بكأس ممارسة طقس التناول (الافخارستيا)[[102]] في المنازل، هذا الكأس الغامض الذي تروى عنه الأساطير، كأن يقال إن من قدّمته الى الكنيسة هي عذراء مجهولة، وكان شعب الكنيسة كله واقفا في ورع ورهبة تجاه الشيء المقدّس الذي يقدّم، الذي يعرفون أنه يستخدم في سر التناول من دم يسوع المسيح، ويعتقدون أنه قد لا يزال يحتفظ ببعض الدم الحقيقي ليسوع المسيح. لكن في غياب القسّ فلا أحد على الاطلاق كان يعرف على وجه الدقة، ماذا ينبغي أن يفعل بالكأس.

هناك أدلة على وجود بعض القلق بخصوص ممارسة طقس التناول، خاصة في كنائس اقليم بريتاني من شمال فرنسا، حيث اعتادت الراهبات على بالقيام أنفسهنّ بهذا الطقس الكنسي، بداية من القرن السادس الميلادي، وهو العصر الذي تعود اليه بدايات أسطورة الملك أرثر[[103]]، إذ نعثر على بعض الدلائل التاريخية على صحّة ما قيل عنه. الآن أثناء تأليفي لهذا الفصل من هذا الكتاب، أجدني أكثر ميلا الى الاعتقاد، في وجود علاقة قوية، بين هذا الطقس المسيحي، وبين طقوس أخرى مشابهة،

ولكنها أقدم تاريخيا، مارست شعوب قديمة خلالها، نفس أسلوب التناول هذا، الذي يقوم فيه عدد من الناس بالتشارك في تناول نفس الطعام من طبق واحد، أو في تناول نفس الشراب من كأس واحد، بغرض تحقيق التوحّد بينهم. وقد يحدث أحيانا أن يقدم هذا الطعام والشراب الى أجساد الموتى، أو يترك لهم الى جوار جثثهم على أمل أن يستردّوا الحياة يوما ما، ويشاركوا هم أيضا في التوحّد نفسه.

في القصص القديمة يحدث أن تصبح الأرض جرداء إثر جفاف طويل، أو يحدث أن تقع أرض البلاد في يد العدو، ويُجْرَح ملك البلاد أثناء المعارك جروحا مميتة، تجعله يظلّ بعض الوقت بين الحياة والموت. كل هذا يمكن له أن يحدث، ويكون الحل الوحيد في مثل تلك القصص القديمة، هو العثور على الكأس المقدّس، الذي بعودته الى البلاد يمكن أن تعالج جروح الملك، وأن تعاد الأرض السليبة من يد الأعداء، وأن تعاد الخصوبة الى الأرض التالفة. وعودة الكأس المقدّس تتوقف على فارس شجاع، يذهب في رحلة البحث، تكون لديه الحكمة الكافية، والمعرفة الكافية، حتى يتمكن من طرح الأسئلة المناسبة على الناس الذين يقابلهم في رحلته، ويدلّونه على مكان الكأس، بما لديه من ذكاء وحنكة وقابلية عالية للتواصل مع الناس. تكتمل الصورة في هذه الأسطورة، بأن يعثر الفارس فعلا على الكأس، ويقدّمه الى الملك المحتضر، ليشرب الملك ما قد يكون لا يزال عالقا بقاعه، من دم يسوع المسيح، فتشفى جراحه على الفور. يظهر حول الملك في لحظة شفائه المعجزية، موكب الجنّيّات العذراوات التسع، لحظات معدودة ثم يختفين، ثم من جديد يعدن الى الظهور مع كل عاصفة شتوية ثلجية، ثم يختفين بقية العام.

تعتقد الأسطورة الشعبية البريطانية القديمة أن هؤلاء الجنيّات هنّ خادمات ملك العالم الآخر، ملك عالم الموتى على جزيرة أنوين Annwyn، وكان بعض سكان شمال فرنسا، وجنوب وغرب أيرلندا، يعتقدون أن الملك المحتضر هو ملك صيّادي السمك، وذلك لسبب بسيط يتفّق مع منطق الأشياء في تلك القرون البعيدة، وهو أن أغلب الموتى المعذّبين في حوادث، كانوا ضمن ركاب السفن الغارقة، وبالتالي فإن من يستضيف أرواح الموتى هم من بين صيّادي السمك وأهاليهم. يعود أهالي الصيّادين الى الالتقاء بتلك الأرواح المعذّبة مرة كل عام، عند مقدم الشتاء، موسم العواصف البحرية التي عادة ما تتسبّب في إغراق المزيد من السفن، ليلة الأول من نوفمبر، وهذا هو الأصل في الاحتفالات بهذا العيد في العالم الغربي، حيث يسمّى في أمريكا الهالويين، والكلمة مشتقّة من الكلمة الانجليزية hallows، التي تعني المبجّلين أو المقدّسين، وفي أوروبا يحتفل به في 1 نوفمبر ويسمّى عيد كل القدّيسين، ثم كذلك في 2 نوفمبر ويسمّى عيد كل الموتى، وهكذا يأتي هذان العيدان في أوروبا في يومين متتاليين.

في بعض أساطير اقليم ويلز ببريطانيا، تدّعي بعض شجرات أنساب العائلات القديمة، الانتساب الى العذراء مريم، حيث كان يقال كذلك إن الجنيّات التسع هنّ من بين العذراوات اللائي أحطن بالعذراء مريم، وحيث كان من الشائع الاعتقاد بأنهنّ يكنّ موجودات عند الصلاة على أرواح الموتى. إن إحدى كنّات العذراء مريم، واسمها أنّا Anna، تقول الأسطورة، هي الجدّة الكبرى لكل ملوك بريطانيا. إن المعتقد الشائع في بعض المدن البريطانية القديمة، مثل جلاستونبرى Glastonbury، أن يسوع المسيح نفسه، كان قد جاء من السماء ليبني بنفسه الكنيسة القديمة بالبلدة، التي نمت وحدها من التربة بفن بناء جديد لم يكن قد عرفه بشر بعد، ونمى حولها سور أحاط بها تكوّن وحده، من

جذوع نباتات نمت في الارتفاع من أسفل الى أعلى، حتى التحمت بأفرع أشجار تدلّت من أعلى الى أسفل، ثم قدّم يسوع المسيح هذه الكنيسة هديّة الى السيدة والدته. هذه هي واحدة من أساطير اقليم ويلز.

ثم نجد أساطير أخرى تحيط بشخصية نبي الله يوسف ابن يعقوب، الذي ذهب من كنعان الى مصر، ليبني للمصريين أهراماتهم[104]، وقد فعل ذلك ليتمكن من استعمالها في تخزين القمح والمواد الغذائية المختلفة، خلال سبع سنوات النماء والرخاء، لصالح سبع سنوات الجفاف العجاف. ثم جاء يوسيبوس Josephes، أحد أبناء يوسف، ليصبح فيما بعد الجد الأكبر والسلف الصالح لشعب بأكمله، هو الشعب الفينيقي Phonecians. ثم جاء يوشا أو خوزيه Jose/Josua، وهو النبي يوشع. وهكذا حتى جاء من جديد من يحمل اسم يوسف، ويعمل نجّارا في بلدة الناصرة بفلسطين، ويتزوّج من فتاة عذراء ظلت عذراء حتى بعد أن أنجبت طفلهما الوحيد. لكن هناك من يقول إن يوسف المقصود في الأناجيل لم يكن نجّارا بل كان نبيلا من نبلاء أورشليم، وعضوا في مجلس حكمائها السنهدرين Sanhedrin. من نافلة القول إنه كان قد حدث الكثير من التعديلات، حتى أن أحد أناجيل جماعة من العاملين في التعدين، ذكر أن يوسف زوج مريم العذراء كان عاملا في أحد مناجم القصدير. وبالتالي فإن كل الأساطير المؤسسة للمعتقدات الدينية تتحوّر وتتبدّل عددا لا حصر له من المرّات.

اسمحوا لي ببعض الهلوسة. أين الأصل في كلمة بريطانيا؟ هل هو بريت/ بروت (من بروتوس Brut)/ بران/ برون/ برايون/ برايتون Briton / برايتان/ بريتان Britain؟ هل يمكن أن نصل الى برون/ هيبرون Hebron؟ ملك السمّاكين/ أحد النبلاء/ يوسف النجار؟ الاحتفال بالموتى الأحياء/ احتفال لاحياء الموتى/ سر الافخارستيا/ كأس الافخارستيا/ Caulderon / هل يمكن أن يكون هو نفسه الكأس الذي شرب فيه المسيح أثناء العشاء الأخير؟ أسطورة سيزارا Cesara، وهي ابنة أخت نبي الله نوح/ هي نفسها سيدة أيرلندية/ لحقت بسفينة نوح للنجاة بنفسها من الفيضان/ فشلت في أن ترسو بمركبها على شواطىء جزيرة الموتى/ (سكوتا) ابنة فرعون موسى (مرنبتاح؟) التي هربت من المركب الغارق في خليج البحر الأحمر/ (في بعض النسخ) سبح أحفادها لاحقا طافين على سطح الماء للوصول الى شواطىء اسبانيا/ عثر الأحفاد على حجر المصائر stone of destinies / سبحوا حتى وصلوا الى شواطىء أيرلندا.

تقول الأسطورة إن الملك ادوارد الأول عثر على حجر المصائر في أيرلندا سنة 1296، وعاد به ى انجلترا حيث وضعه ضمن أحجار عرش التتويج، في كنيسة ودير ويستمينيستر Westminster Abbey، الذي يقع حاليا في قلب لندن، حيث أصبحت بركات وكرامات هذا الحجر، تعزى الى انتسابه الى موسى كليم الله، الذي يعود زمنه الى 1200 قبل الميلاد، هكذا اعتقد الشعب البريطاني حتى أثناء عصر النهضة الأوروبية، ثم تعزى كذلك كرامات الحجر، الى انتسابه الى سيدنا يعقوب، الذي تقول الأسطورة إنه كان قد نام عليه ذات ليلة، على أحد الطرق القديمة في أرض كنعان، حوالي سنة 1800 قبل الميلاد، حسبما جاء في سفر التكوين الاصحاح 28 الأعداد من 11 الى 17، وأثناء نومه حلم بالرؤيا النبوءة، وكذلك تعزى كرامات الحجر الى انتسابه الى سيدنا ابرهيم

نفسه، الذي جلس عليه ذات مرة حوالي سنة 2000 قبل الميلاد.

هكذا أصبح من الممكن أن يعزى تفوّق التاج البريطاني الى أساس كتابي Biblical توراتي. لكن الاسكتلنديين لا يتفقون مع الانجليز في ذلك، فيدّعون أن ذلك الحجر المدعو حجر المصائر، ما هو الا الوسادة التي كانت القدّيسة الاسكتلندية كولومبا تضع رأسها عليها لتنام، ويضيفون أنه هو نفس الحجر الذي عندما أخذته القديسة، نَقُصَ من بناء السور الذي كان يحيط بمدينة دانستافندج Dunstaffnage، وترك فجوة فيه لايزال مكانها شاغرا حتى الآن. كما ترون إنها قصص بلا نهايا

7- القديس فرنسيس والشاعر دانتي

من الواضح أن الخيالات الأسطورية كانت لا تزال على قدر كبير من الحيويّة في القرن الثالث عشر الميلادي، والدليل على ذلك هو القصص المتعلقة بحياة القديس فرنسيس Francis. إن الفكرة القائلة بأن حياة أي قديس، يجب أن تكون وفقا لنموذج حياة وأعمال يسوع المسيح لم تكن فكرة جديدة. وبالتالي فإن عذابات الشهداء مثلا كانت على غرار ما كانت عليه عذابات يسوع المسيح نفسه، الضرب بالسياط ثم الصلب ثم طعن الجسم بالرماح المسنونة. تقول القصص إن الدعوة الأولى التي تلقّاها القدّيس فرنسيس، لتكريس نفسه للحياة الرسولية ولخدمة المسيحية، جاءته عن طريق أحد نصوص الانجيل. وهو هذا النص (عندما تذهب الى الجموع، خاطبهم واعظا إيّاهم، قائلا لهم إن ملكوت السموات بين أيديهم، ثم اقذف بالشيطان بعيدا، واشف مرضاهم من المجذومين، وأقم موتاهم. وبحسب ما أعطيت كل هذه القدرات مجانا، بحسب ما ينبغي عليك أن تقدم لهم نفس هذه القدرات مجانا).

عندما قرأ الشاب فرنسيس هذه الوصية، حدث أن ذهب في الحال الى أماكن تجمّع مرضى الجُذام، الذين كانوا منبوذين ومطرودين خارج المدن، ولمس جروحهم المتقرّحة. قبل عصور العلم الحديثة اعتقد الناس أن مرض الجُذام هو لعنة من الله. كان من غير الممكن تجنّب أن يكون فرنسيس وزملاؤه، مضطرّين الى التقليد الحرفي المباشر، لكل ما كان يسوع المسيح ورسله وحواريّوه يفعلون. وقد وصل هذا التقليد الى ذروته، عندما وُجدت على قدمي فرنسيس ويديه، في السنوات الأخيرة من حياته، آثارٌ تدلّ على دق مسامير فيها استعدادا لصلبه، رغم أنه لم يصلب، ولن يصلب. يبدو الآن أنه هو الذي كان يدق المسامير في قدميه بنفسه، في ويديه بالاستعانة بآخرين، خلال السنوات الأخيرة من حياته، حتى يكون مستعدّا لوقت الصلب.

قرب نهاية حياته كانت الحركة التي بدأها صغيرة، قد تعاظمت جدا الى حدّ يفوق بمراحل كل ما يمكن تصوّره، خاصة في أزمنة انعدمت فيها وسائل الاتصال، حدّ يفوق كل قدراته التنظيمية المحدودة. وقد تحوّلت هذه الحركة لاحقا الى نوع جديد من التنظيمات الدينية، التي ستعرف باسم الأخوية Brotherhood، مثلما كان قد سبق وفعل معاصره الأقدم منه ببضع سنوات القديس دومينيك Dominic. ثم حدث أن شاهد القديس فرنسيس أثناء نومه رؤيا، عن الأسلوب الأمثل للحياة الرسولية المكرّسة للخدمة، وهي لم تكن متوافقة تماما مع متطلبات السلطات الكهنوتية، التي كان مضطرا للاذعان لها، لذلك لم يكن مستعدّا أن يجعل من مجموعته الصغيرة نسبيا، أداة في يد آليّات الحكم الكنسي[105]. إن كاتبي سيرته كانوا مهتمين بشكل خاص، بالأسلوب الذي اتبعه لتأسيس النظالم الفرنسيسكاني Franciscan، ثم بالاختلافات والتناقضات التي حدثت بين البدايات قليلة العدد البسيطة المتواضعة، وبين النهايات المعقدة التي انتهت اليها الأخويّات الدينية في نهايات القرن الثالث عشر.

إن المؤلفات الرسمية الأكثر شيوعا، والمتعلقة بسيرة القديس فرنسيس، هي تلك التي ألفها توماس تشيلانو، والقديس بونافنتورا، والأخير هو لاهوتي جامعي، حاول بكتاباته أن يعيد السلام الى الجماعات الفرنسيسكانية المتنازعة، ثم أضاف في النسخ الأخيرة من كتابه، ملحقا خاصا بمعجزات

القديس فرنسيس، وهي النسخ التي وصلت الينا في العصر الحديث، واعتمدنا عليها حتى نهاية القرن التاسع عشر، في كل معلوماتنا عنه وعن حياته وأعماله، ثم في أوائل القرن العشرين تمّ العثور على مؤلفات مجهولة لبعض تلاميذه المباشرين، أوضحت التطوّرات التي أدّت عبر فترات زمنية، الى تعقيد الأمور داخل مؤسسات الجماعات الفرنسيسكانية.

أهم مؤلفات تلاميذه أولئك هي مؤلفات الأخ ليو brother Leo، وهي الكراسات التي حين تمّ العثور عليها، كانت مخزّنة ومرتّبة حيث كان الأخ ليو قد خبّأها قبل 700 عام، أي في نهايات القرن الثالث عشر. تخيّلوا معي إن هذه المخطوطات ظلّت في مكانها دون أن تمسّ لمدة سبعة قرون. أهمية هذه المؤلفات هي أن ليو كان أقرب تلاميذ فرنسيس الى قلبه، ثم أنه كذلك كان أكثر تلاميذه ثقافة. تبيّن تلك المؤلفات جانبا مجهولا من القديس فرنسيس، إذ تظهره كرجل يميل الى التزمّت والأصولية الدينية fundamentalism، ويبدو فيها أقل بساطة وإتضّاعا عمّا كانت عليه طبيعته الحقيقية. هل كان الأخ ليو موضوعيا في أحكامه؟ تحكي كذلك عن الصراعات والتناقضات التي ظهرت في الجماعة الفرنسيسكانية بعد وفاة القديس.

هاكم قصة يوردها الأخ ليو في بداية مؤلفاته تحت عنوان (مرآة الكمال)، ليدلّل بها على حقيقة طباع فرنسيس. القصة تدور حول رجل دخل حديثا في المسيحية، وجاء الى القديس ذات يوم طالبا منه نسخة من كتاب مزامير داود النبي، حتى يمكنه أن يستعملها في تلاواته الخاصة به في أي وقت. وكان هذا هو ردّ القديس عليه (بعد أن تكون قد حصلت على نسختك الخاصة بك من كتاب المزامير، ستصبح مشتهيا وراغبا في أن تكون لديك نسختك الخاصة بك من كتاب الصلوات اليومية، ثم بعد أن تكون قد حصلت على نسختك الخاصة بك من كتاب الصلوات اليومية، ستجلس على مقعد مذبح الكنيسة، كواحد من كبار الأساقفة). ثم تروي القصة أن القديس بعد أن قال هذا الكلام، أخذ قدرا من رماد المدفأة، التي كانوا يجلسون حولها، ونثره فوق رأسه، ثم بدأ في دعك رأسه بأصابع يديه في دوائر، كما لو كان يغسل رأسه بالرماد أو بتراب الأرض، وهو يردد (أنا كتاب صلوات، أنا كتاب صلوات). ما هي طباع القديس التي يمكن الاستدلال عليها من هذه القصة؟ الاتضاع؟ التزمّت؟

لكن ينبغي علينا في الحقيقة معرفة بعض وقائع تلك الفترة التاريخية من القرن الثالث عشر. في بلدة مسقط رأس القديس فرنسيس، وهي بلدة أسّيسي Assisi، كانت راهبات دير الراهبات لا يحتفظن داخل الدير الا بنسخة واحدة مخطوطة من كتاب الصلوات، يستعملنها كلّهنّ معا أو منفردات. ويشاع أنها هي هي نفس النسخة التي حصل عليها فرنسيس منهنّ عندما بدأ خدمته، واستعملها معه ومن بعده كل تلاميذه. ويشاع أن نفس هذه النسخة قبل أن تصل الى دير الراهبات، كانت تخصّ أحد القسس في كنيسة صغيرة تقع خارج روما، وقد ترك بعض ملحوظاته وكتاباته على هوامشها، وهو نفس ما فعله كذلك الأخ ليو لاحقا. منذ اكتشاف مجموعة مخطوطات الأخ ليو، هناك اعتقاد بأن كتاب الصلوات هذا، هو أقدم أو على الأقل من أقدم كتب الصلوات التي تمّ العثور عليها، بشكلها المتعارف عليه حاليا، أي أن يحتوي كتاب الصلوات على كل المادة الكتابية Biblical، التي يمكن استعمالها في السبع صلوات اليومية القانونية[106].

في زمن القديس فرنسيس، كانت كتب الصلوات غالبا ذات حجم كبير جدا، بحيث أن الكتاب منها

المفتوح على صفحتين، يسمح لمجموعة من عشرة أخوة بالقراءة معا فيه، أما كتب الصلوات صغيرة الحجم، فكانت نادرة جدا، ويمكن العثور عليها فقط في أيدي كبار القساوسة، أو رجال البابا، الذين يدعوهم عملهم الى التحرّك الدائم، والى التنقّل بين الأماكن المختلفة. أما قسس الكنائس الفقيرة المتطرفة بعيدا عن المدن، فكانوا يلجأون الى حفظ هذه الصلوات عن ظهر قلب، مع ضرورة توفّر نسخة من الكتاب المقدّس لديهم لزوم القراءات اليومية. أما عند ظهور الأخويّات، مثل أخويّة حركة مجموعات الدومينيكان ثم الفرنسيسكان، فقد ظهرت الحاجة الى كتب صلوات صغيرة الحجم، بحيث يمكن حملها بسهولة في جيب القس أثناء تحركه الدائم، لزوم استعمالها على الطرقات، أثناء التنقّل بين المدن، أو لقيادة صلوات المجموعات الصغيرة من السكان. لكن هذا التطوّر في حجم كتب الصلوات لم يحدث الا بعد زمن القديس فرنسيس. لكنه ما كان له أبدا أن يتخيّل الوضع الحالي، بعد انتشار الطباعة في كل دول العالم ورخص تكاليفها، لدرجة أن لكل شخص الآن أن يمتلك نسخة أو أكثر من كتب الصلوات.

في الواقع إن الشاعر دانتي Dante، بحكم انتمائه الى القرن 13، يقف هو الآخر، مثل أفراد مجموعات الفرنسيسكان، على الحافة بين عالمين، عالم المخطوطات اليدوية من جهة، وعالم المطبوعات من جهة أخرى. ليس هذا فقط، بل إن دانتي مثل معاصريه كان شديد التأثر بالأساطير القديمة. فهو في الكوميديا الالهية يكتب بنفس الطريقة، وعن نفس الموضوعات، التي كتب عنها مؤلفون كبار من أمثال افلاطون وفيرجيل والقديس بولس. إن الكوميديا الالهية تحتوي على قدر كبير من المناظر الطبيعية، حتى أنها يمكن أن تؤخذ على أنها، مقال في وصف جغرافية الأرض والسماء. كيف لدانتي أن يصف الرحلة بين الأرض والسماء؟ ويصف ما يمر به المسافر من جبال وأنهار وبحار وسماوات متتاليات متتابعات؟

دانتي في رسالته الى كان جراندي Can Grande، يشرح له ما كان ينتويه، يقول (لأننا كثيرا ما نرى بعقولنا أشياء، لا يمكننا التعبير عنها بكلمات)، وهو ما سبق أن أشار اليه افلاطون في كتبه، عندما تمكن على ضوء قدراته الذهنية، من رؤية أشياء لا يمكن لقدراته اللفظية التعبير عنها، رغم الاستعارات والكنايات. ثم في نفس الرسالة يقارن دانتي ذلك بتجربة القديس بولس، كما أخبرنا بها في رسالته الثانية الى أهل كورنثوس، في الاصحاح 12 في الأعداد من 1 الى 3. يقول (إن الافتخار لا ينفعني شيئا، ولكني سأنتقل الى ما كشفه لي الرب من رؤى واعلانات، أعرف انسانا في المسيح، خُطِفَ الى السماء الثالثة، قبل أربع عشرة سنة، أكان ذلك بجسده؟ لا أعلم، أم كان بغير جسده؟ لا أعلم، الله وحده يعلم، وأنا أعرف أن هذا الانسان، أبجسده أم بغير جسده؟ لا أعلم، الله وحده يعلم، قد خُطِفَ الى الفردوس، حيث سمع أمورا مدهشة، تفوق الوصف، ولا يحق لانسان أن ينطق بها)[[107]].

الفصل الثامن

رؤى من العالم الآخر

لم تتقبّل الثقافتان اليهودية والاغريقية (اليونانية القديمة) بسهولة فكرة الحياة بعد الموت، التي كانت عقيدة واضحة في الديانة المسيحية. إن أرض الموتى عند اليهود، التي يسمّونها شيول Sheol، كانت معتمة بقدر إعتام أرض الموتى عند الاغريق، التي يسمّونها هادس Hades. كانوا يرفضون فكرة الحياة بعد الموت لكنهم كانوا يتقبّلون فكرة أن يعود الموتى الى الحياة على الأرض، بعد أن يقدّم الأحياء من أجلهم ذبائح من حيوانات حيّة يتقبّلها الأرباب، ولا تقبل أبدا الذبائح من حيوانات ميّتة، وذلك لشرط أن يسيل دمها على المذابح أثناء ذبحها، حتى تكون الذبيحة حلالا. لكن عودة المتوفى من عالم الموتى الى عالم الأحياء، هي دائما عودة مؤقّتة، يعود بعدها المتوفى من جديد من عالم الأحياء الى عالم الموتى. بهذا الخصوص كان اليهود والاغريق أقرب الى معتقدات أهل بابل، منهم الى معتقدات المصريين القدماء.

لكن في المقابل كانت كل شعوب العالم القديم، حتى بعد مجيء يسوع المسيح، تعتقد في وجود الأسلاف الموتى، الى جوار الأحياء من أحفادهم في حياتهم اليومية، كما هو حال بعض الشعوب الأفريقية حتى الآن في نهاية القرن العشرين. هذا الوجود ليس فقط بوصف الأسلاف ذكريات قديمة، ولكن كذلك بوصف الأسلاف قوى حالية معاصرة قادرة على لعب أدوار في الحياة اليوميّة، وقادرة مثلا على تكوين فصيل قوي من المحاربين في جيش القبيلة، عند الاحتياج اليهم في حالة الصراع مع قبائل أخرى، ويمكن في تلك الحالات أن يعزى اليهم، تحقيق النصر المفاجيء على قبيلة أخرى، كانت تبدو أكثر عددا أو أقوى عتادا. فيما بعد في الديانة المسيحية، ستحل جيوش من الملائكة محل فصائل المحاربين الأسلاف، وسيعزى النصر في تلك الحالة الى جيش الملائكة.

كانت قد جاءت الى الثقافتين اليهودية والاغريقية، بعض الأفكار المتعلقة بامكانية وجود أشخاص مخلّدين أبد الدهر، يكونون في بداية حيواتهم الأرضية من بين البشر الفانين، ثم يحدث أثناء تلك الحيوات الأرضية ما يجعلهم يتميّزون عن غيرهم من البشر، فيما يتعلق بمسألة استثنائهم من الفناء، وتحوّلهم الى بشر خالدين. حدث هذا خلال القرنين السادس أو الخامس قبل الميلاد، بفضل انتقال بعض المعتقدات المصرية القديمة، عبر الامبراطورية الفارسية، التي كانت في ذلك الوقت، قد نجحت في احتلال أجزاء من مصر القديمة، خلال ما يعرف باسم عصر نهاية الأسرات، خاصة بين الأسرة رقم 27 والأسرة رقم 30 أو 31، وانتشار هذه الأفكار بين أراضي الامبراطورية الفارسية الشاسعة، ومنها الى فلسطين وآسيا الصغرى واليونان. قد تكون بعض تلك الأفكار قد جاءت أيضا من الحضارات الهندية القديمة.

يفنى الجسد وتظل الروح خالدة. هذا هو المعتقد الرئيسي الذي قامت عليه الديانة المصرية القديمة، وانتقل منها الى الديانة المسيحية. إن فكرة خلود الروح، تتضمّن منطقيا أفكارا أخرى، مثل سبق وجود الروح على وجود جسد صاحبها، وفكرة بقاء الروح خالدة بعد فناء جسد صاحبها. انتقلت هذه الأفكار الى اليونان القديمة في القرون السابقة على الميلاد، وظهرت في كتابات بعض المفكرين

والفلاسفة اليونانيين، مثل فيثاغورس وأفلاطون، ثم لاحقا في كتابات تلاميذ افلاطون الذين من المؤكد كان بعضهم على اطّلاع بالحضارة الهندية، وليس فقط واقعا تحت تأثير مصر القديمة ومكتبة الاسكندرية.

بعض الاغريق الأخرين من أمثال الأورفيين the Orphics، وربما كذلك بعض المنتمين الى جماعات دينية سرية، اعتنقوا فكرة أن الخلود هو هبة تقدّمها آلهة بعض الديانات، الى المؤمنين الجدد بهذه الديانات، الذين قد يتعرضّون للاضطهاد بسبب إيمانهم، وقد تشبّه بهم المسيحيون في ذلك، واعتقدوا أن البعث من عالم الموتى الى عالم الأحياء، هو هبة من يسوع المسيح، الى أولئك الذين آمنوا به، وكانوا مستعدّين لتقبّل العذاب من أجله، بل وللتضحية بحياتهم من أجله.

في كتاب العهد الجديد، الذي يضمّ الأناجيل الأربعة، نجد الى جوارها كتابا معروفا باسم (سفر رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي)، وهو الجزء المعني بصفة خاصة بيوم الحساب، وبالأحكام التي سيصدرها الرب في نهاية الأيام، على شعب اسرائيل، وعلى الكنيسة المسيحية، وعلى العالم أجمع. في سفر الرؤيا هذا هناك القليل من الأحكام الالهية التي تخصّ الموتى، إذ ليست هناك تفاصيل كثيرة باستثناء أن الخطاة سيحاسبون في يوم الحساب الأخير، وأن المرفوضين من العليّ سيلقى بهم في بحيرة النار، التي يسمّيها النص جهينا Gehenna، حيث سيتمّ حرق كل من هو بلا نفع، وكل ما هو بلا نفع، وهي نار لا تنطفىء أبدا، والدودة التي ستجد نفسها في تلك النار، لن تموت أبدا، بل ستظل تتعذّب ولن تفنى الى ما لا نهاية.

1- سفر نهاية العالم وفقا للقديس بطرس

كان الكتاب الذي يحمل العنوان عاليه، بين الأعوام 150 و175 ميلادية، على نفس الدرجة من الشهرة التي كان عليها كتاب (سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي)، واستمر اعتبار سفر رؤيا القديس بطرس من ضمن أجزاء العهد الجديد، في بعض مناطق العالم المسيحي، حتى القرن الخامس الميلادي. إن النسخة اليونانية لهذا السفر لم يعد لها وجود، ولا يتبقى منه الا بعض الشذرات المتفرّقة في نسخ مختلفة، منها مثلا نسخة أثيوبية يمكن الوثوق فيها، وتعطينا فكرة لا بأس بها عمّا كانت عليه النسخة اليونانية الأصلية. كان مؤلف السفر، الذي قد يكون فعلا القديس بطرس، مشغولا بخصوص موضوع كان يشغل كل مسيحيي عصره، ويتعلق بمصير الموتى، الأخيار منهم قبل الأشرار، حيث سيكونون بعد الموت في العالم الآخر.

النص يشير أولا الى رؤيا تتعلّق بالموتى الأخيار، الذين تبدو أجسامهم بلون بشرة يجمع بين الأبيض الممتزج بالوردي، فلون الذراعين أو ما يبدو من الساقين هو أبيض ناصع البياض، أكثر نصاعة من الثلج، دليل الطهر والبراءة، في حين تبدو وجوههم باللون الوردي الدال على الصحة. كانت شعور رؤوسهم متألقة ومتدفّقة على أكتافهم، كما لو كانت أكاليل زهور من كل نوع، ومن كل لون من ألوان قوس قزح السبعة، التي تظهر في السماء بعد المطر. كانت هذه هي أول إشارة الى الاشعاع النوراني الذي يحيط برؤوس القديسين، والذي سينتهي الى الظهور لاحقا في شكل هالة القداسة. كان كل ما يحيط بهم يتكون من مادة النور شديد الضياء، الضوء المشع القوي المتألق، ورائحة الهواء المحيط بهم كأنها من عبق العطور والأطياب والفواكه الطازجة. وكلهم كانوا متساوين في الحجم الدال على التساوي في المجد، ينشغلون طول الوقت بحمد الرب وتمجيده، وشكره على أفضاله، بأصوات متناسقة متناغمة. يشتركون كلهم في التسبيح، وكل منهم باق في مكانه.

ثم تأتي في النص رؤيا تتعلق بالموتى الأشرار، وتسمّى فقرة يوم الحساب الأخير، حيث يؤخذ الرائي (القديس بطرس) الى حفرة في الأرض أو خندق، حيث تقف النساء مغمورات حتى أعناقهنّ، في مزيج غير واضح المعالم من القمامة والقاذورات، تسيل منه الدماء في مواضع مختلفة، وعلى ما يشبه ضفّة نهر بالقرب من النساء، يرى الرائي مجموعة أطفال رُضّع يتلوّون من الألم ويصرخون ويبكون. تنطلق من وجوه الأطفال شرارات من نار، باتجاه وجوه الأمهات، لتصطدم بهنّ في عيونهنّ. يشرح النص أن هؤلاء الأطفال هم الذين رفضتهم أمهاتهم، أو عرضتهم للبيع للتخلّص منهم، أو ألقت بهم في مياه الأنهار. ثم يقول النص إن هؤلاء الأطفال هم الآن في رعاية الملائكة، الذين يتولّون تعليمهم، وتغذيتهم حتى ينموا ويكبروا ويصبحوا أشخاصا ناضجين بالغين. سيكون مصير الأمهات اللائي رفضن في السابق رعاية وإرضاع أطفالهن، ان تلتهمهنّ وحوش من آكلي لحوم البشر. وذلك لأن العقاب القاسي يتناسب مع حجم الجريمة.

الفيلسوف السكندري أوريجانوس، من القرن الثالث الميلادي، تمكن من الوصول الى مقارنة هذا النص، بنص آخر أقدم منه ببضعة قرون، كان قد جاء في التوراة، في سفر أشعياء النبي، الاصحاح رقم 50، العدد رقم 11، الذي يقول (انظروا يا جميع موقدي النار، الذين يضيئون لأنفسهم مشاعل، سيروا في نور نيرانكم، وعلى وهج مشاعلكم التي أوقدتموها، وهذا ما تنالونه من يدي، تضطجعون

وأنتم تتضوّرون من الألم).

ثم يذهب في كتابه (المبادىء الأولية)، في الفصل العاشر من الجزء الثاني، الى القول (وكما يحدث في الجسم البشري، فإن وفرة الطعام المأكول، التي لا تتفق مع طبيعة الجسم، تؤدّي الى ظهور أمراض ذات أشكال مختلفة، فإن هذا يحدث أيضا مع النفس التي أخطأت بكثرة، التي تظهر فيها كتلة الشر المتجمّعة، تحترق وتحرق معها النفس التي تحتويها، فهذا هو عقاب الرب). ثم يضيف (ويرى الضمير أمام عينيه، استعراضا لأفعاله الشريرة، ولسلوكه غير المنضبط). وسنعود مرارا الى مقابلة نفس هذه الأفكار في كل كتابات فلاسفة المسيحية عن الحياة بعد الموت.

إن أقدم وأوضح صلاة مسيحية تتلى لصالح الموتى، هي في كتاب (قصة آلام واستشهاد القدّيسة بربيتوا Perpetua)، وكان أخوها الأصغر منها سنا واسمه دينوكراتيس، قد مات في سن صغير، بسبب مرض كان مجهولا في ذلك الوقت، ويؤدّي الى ظهور تقرّحات مؤلمة في جسم المريض، فشاهدته في رؤيا متألّما، وهو يحاول العثور على ماء يلطّف به من آلام جسمه، واقفا الى جوار نبع مائي، يقع في مستوى مرتفع عنه وبالتالي لا يستطيع الوصول اليه. صلّت القديسة من أجل أخيها مرات كثيرة في أيام متتالية، فظهر لها من جديد في رؤيا جديدة، وقد انخفض مستوى النبع المائي، وبالتالي تمكّن الشقيق من الحصول على الماء الذي كان يبحث عنه، وقد بدت على وجهه علامات السعادة. من البديهي طبعا أن تجمع كل التفسيرات في كل المصادر، على أن هذا النبع المائي هو الرمز الدال على المعمودية المسيحية.

هذه القصة ترينا كيف أمكن للأخ الصغير وهو في عالمه السماوي، أن يستفيد من صلاة أخته وهي في عالمها الأرضي، وقد أعيد استعمال هذه القصة في زمن القديس أوغسطينوس، عندما قال إن الأطفال الذين يموتون قبل تعميدهم، يكون مصيرهم هو الذهاب الى الجحيم، فردّ عليه الناس المنصتون بهذه القصة قائلين إن هناك أملا في إنقاذ هؤلاء الأطفال بالصلاة من أجل خلاصهم. فردّ عليهم القديس أوغسطينوس قائلا إنه لا يوجد في هذه القصة ما يشير الى أن الطفل لم يتمّ تعميده أثناء حياته وقبل موته المبكّر، وأنه بفضل معموديته تمّ خلاصه.

لكن ساد الاعتقاد بأن عذاب الموتى المدانين، حتى لو كانوا موجودين فعلا في الجحيم، يمكن أن يخفّفه الرب الى حدّه الأدنى، لو وجد الرب أن هناك من يصلي بإلحاح لصالح هذا المعذّب المدان. وقد كانت هذه النوعية من الأفكار هي السبب في ظهور المطهر Purgatory في الفكر المسيحي الغربي. وهو ما ظهر بوضوح في أعمال الشعراء منذ عصر دانتي، الذي كوّن المطهر جزءا هاما من كوميدياه الآلهية. ولم يظهر المطهر أبدا في الفكر المسيحي الشرقي، حيث تقل بشكل عام أيضا مناظر الحساب الأخير، مقارنة بالفكر المسيحي الغربي.

هناك مثلا لوحة حائطية كبيرة من الفسيفساء الجدارية mural mosaic، في قاعة طعام بأحد أديرة شبه جزيرة جبل آتوس في اليونان، وكذلك لوحة حائطية أخرى على الحائط الغربي لكاتدرائية تورتشيللو Torcello، وهي شبه جزيرة بالقرب من مدينة البندقية الايطالية، وهاتان اللوحتان الحائطيتان هما من أعمال فنانين بيزنطيين[108] من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلاديين،

وتبدو فيهما بوضوح المعاني الرمزية المتضمنة في فن التصوير الجداري البيزنطي. نحن نرى فيهما سلسلة متصلة من المناظر الدالة على وقائع وأحداث رحلة الذهاب الى العالم الآخر، وفقا لمعتقدات الفكر الغربي في القرن 12 الميلادي.

نرى أنه عند إطلاق النداء الأخير من البوق، تبدأ عملية وزن الأرواح[109]، يتمّ بعدها فصل المبروكين الى اليمين، والملعونين الى اليسار. نرى بعد ذلك مباشرة الملعونين وقد بدأت النيران في حرق أقدامهم، ونستطيع أن نميّز بينهم واحدا يجلس وسط النيران (أو خلفها) على كرسي عرش، واضعا فوق رأسه تاج مملكة الموتى Hades، هو الشيطان الأكبر (أو المسيح الضد anti Christ). ثم نرى منظرا لأولئك الذين ذهبوا الى أعماق حفرة الجحيم، فنجد أن بعضهم يحترق في النار، بينما بعضهم الآخر يتجمّد وسط الثلوج، ويبدو في مستوى أعلى، أربعة آخرون عراة، وهم يقفون حائرين بين النار من جهة، والثلج من جهة أخرى، ينظرون في اتجاهات مختلفة، بينما الرؤوس التي يمكن أن نراها أسفل مكان وقوفهم، إما أنها تشتعل فيها النيران، أو أنها تأكلها الديدان.

ثم نرى مجموعة من الأطفال الذين تبدو البراءة على وجوههم، وهم يقفون تحت شجرة الحياة، ينظرون من على بعد الى صورة يبدو فيها سيدّنا ابراهيم وهو يحتضن يسوع المسيح. ثم نرى على مستوى نظر مختلف، اللص التائب[110] وقد وقف معه القديسان بطرس وميخائيل، وهم يقفون جميعا الى جوار تابوت مفتوح، يمكن أن نرى بداخله المتوفى الذي، بفضل صلاحه تحوّل جسده الى روح، في شكل طفل بريء له أجنحة صغيرة يرفرف بها[111]، وهو من بين من ستسمّيهم المسيحية لاحقا الساروفيم والشاروبيم.

في طرف اللوحة الحائطية يمكننا أن نرى سلّما يتجه الى أعلى مستوى في اللوحة، في نهايته العليا يمكننا رؤية باب نصف مفتوح، تأتي من خلفه أضواء مشعّة مبهرة، وكان من الشائع تفسير ذلك بأنه الباب الذي يوجد خلفه الرب، ومعه وحوله أنبياء الرب، وهم يصلّون له ويتقرّبون اليه. من الشائع كذلك في مثل هذه اللوحات الحائطية، أن يشغل الجحيم ربع الصورة، ربع المساحة المتاحة للرسم أو للصق الفسيفساء، ومع ذلك يبدو الجحيم دائما مزدحما بسكانه، في حين يشغل الفردوس مساحة أكبر، ويكون غالبا مأهولا بعدد أقل من السكان.

2- البوّابات والجسور

إن التراتيل الخاصة بالقديس إفريم St Ephrem، والمكتوبة في الأصل باللغة السيريانية، في القرن الرابع الميلادي، والتي ترجمت بعد ذلك وانتشرت باللغة اليونانية، ومنها الى اللغات السلافية في شرق أوروبا، تمتلىء بالصور الوصفية الزاخرة بتفاصيل الحياة في السماء، بداية من الحجرات المتتابعة التي يمرّ بها المتوفّى حتى يصل الى نهاية الطريق، وفقا لما تقوده اليه أفعاله الدنيوية، فقد يحدث أن تتوقّف الأرواح الخاطئة عند الحجرة الأولى، وقد تستمر الأرواح الخيّرة الى الحجرة الأخيرة[112]. إن عظة القديس إفريم المعروفة عن يوم الحساب الأخير، هي التي أوحت الى عدد من الكتاب اللاحقين عددا من مؤلفاتهم، فهناك مثلا المؤلِّف الروسي المجهول صاحب الكتاب المعروف باسم (في الحديث عن القوى السمائية on the celestial powers)، والذي يعتقد البعض أنه قد يكون من تأليف القديس ابراهام من مدينة سمولنسك Smolensk، ومن القرن الثاني عشر.

وهناك مثلا ممن أوحت اليهم العظة بمؤلفات، القديسة تيودورا Theodora، وهي التي تروي لنا كيف أن روحها بعد موتها، ذهبت في رحلة طويلة الى مملكة السماء، بصحبة ملاكين، كان أحدهما على يمينها والآخر على يسارها، وكيف أنهما عبرا بها عددا من البوّابات، التي تكون مغلقة عند وصولهم اليها، ولا تفتح الا بعد أن يسمع حرس البوّابة اعتراف القديسة تيودورا بخطاياها، التي ارتكبتها أثناء حياتها[113]، الاعتراف بعدد معيّن من الخطايا المختلفة أمام كل حارس من حرّاس البوّابات. الغريب هو أن نص تيودورا يسمح بالاعتقاد أن حرس البوابات كانوا يعرفون مسبّقا، الأجوبة الحقيقية على الأسئلة التي يوجّهونها للمتوفى، بحيث إنه لو كذب عليهم لا يسمحون له بالعبور، فالمتوفى لا يمكنه خداع حرّاس البوّابات.

سمح أحد الكتاب الساخرين لنفسه أن يشبّه هذه الصورة، بصورة مرور الركاب أمام بوّابات جمارك القسطنطينية، حيث يقابل المسافر عذابات شبيهة بتلك الواردة في قصة تيودورا، الا أن الفرق هنا هو أنه بدلا من الكلمات السرية أو الاعترافات، هناك المبالغ المالية التي تدفع كرشوة، أو هناك رسائل التوصيّات. وقد عاد أسقف كريمونا المدعو ليوت براند Liut Prand، الى ذكر نفس هذا التشبيه، عندما ظل محتجزا ثلاثة أسابيع في جمارك القسطنطينية سنة 968ميلادية، وكان السبب في احتجازه هو الشك في سلوكه، وفي احتمال أن يكون قد نقل ضمن أمتعته، بعض الأنسجة الحريرية قرمزية اللون، من مخصّصات الامبراطور البيزنطي.

وقد اشتكى في نصّه بمرارة من العبث بأمتعته، ومن إلقاء عباءاته الثمينة على الأرض. من طرائف ذلك العصر أن جمارك الامبراطورية كانت أحد المصادر الهامة لدخلها، خاصة الضرائب المفروضة على نوع معين من الصابون، كان من المعتقد الشائع أن له صفات قوية على أجزاء معيّنة من أجسام الرجال، فمنعت الامبراطورية تداوله في الأسواق، ثم منعت استيراده الا بعد دفع رسوم مالية كبيرة.

في رؤيا تيودورا كان الطريق بين بوّابة وأخرى شديد الانحدار، وإذا نجح عابر البوّابات في

اجتيازها كلها، كان عليه بعدها أن يعبر جسرا متهالكا، معلّقا بين مكانين مرتفعين، بحيث يقع الجحيم في عمق الهوّة بينهما. في الطرف الآخر من الجسر، كان يمكن للعابر المتفائل أن يرى المجاز الضيّق (البرزخ)، المؤدّي في نهايته الى بوّابة الفردوس. إن صورة هذا الجسر، ولكن دون هذه البوّابات، سبق لها أن وردت سنة 580 ميلادية، في قصة قيلت للقديس جريجوري، أثناء إقامته في القسطنطينية، ثم أوردها في كتابه (المحاورات the Dialogues)، ضمن مجموعة أخرى من القصص، عن أشخاص ماتوا، أو كانوا قد أوشكوا على الموت، ثم عادوا الى الحياة، ليحكوا وقائع ما حدث لهم.

أحدهم وهو صديق للقديس جريجوار، وقف على جسر الرهبة والفزع، وهو يرى أمامه في نهاية الطريق الى الجهة الأخرى من الجسر، أرض السعادة الموعودة للأخيار ومنازلها العامرة، ولكن جاءت فجأة أدخنة مروّعة من أسفل، في نفس اللحظة التي كان الرجل، يضع فيها قدمه على الحافة، بين نهاية الجسر وبداية الطريق الى المجاز، وفي اللحظة التالية مباشرة، ظهرت مجموعة من الملائكة تحاول جذب الرجل الى أعلى، في حين ظهرت مجموعة من الشياطين تحاول جذب الرجل الى أسفل، وظلوا لبعض الوقت يتنازعونه فيما بينهم، بعد ذلك عاد الرجل الى الحياة. حكى أنه أثناء مروره فوق الجسر تمكّن من رؤية أحد كبار القادة الدينيين بين أولئك المعذّبين في الجحيم، وكان قد اشتهر عنه في حياته أنه كان يجد لذّة شخصية في توقيع العقاب بنفسه، على المذنبين الذين كانوا يقعون بين يديه، ولا يعاملهم حسب أوامر الطاعة المسيحية.

سيصبح القديس جريجوري لاحقا، بين 590 و604 ميلادية، بابا للكنيسة في روما، وسيقول ذات يوم (أعتقد أنه فيما يتعلق بحالة الموتى في العالم الآخر، إن المزيد من المعلومات قد أصبحت متاحة لنا الآن). ثم يورد لنا حالة الشمّاس خادم الكنيسة والقدّاس، المدعو باسخاسيوس Paschasius، الذي كانت من ضمن معجزاته، أن ثوبه الكهنوتي وحده فقط، قد أصبح قادرا على شفاء الأمراض، إذ إن أحد المرضى العقليين شفي من مرضه العقلي، الذي طالما عذّب به والديه، بمجرد لمسه لثوب الشمّاس. ومع ذلك، أي ومع ماله من قداسة بادية للعيان، يحكي جريجوري (فوجئت بالأسقف جرمانوس يذكر لي أنه رأى باسخاسيوس، واقفا في المياه الساخنة الملتهبة في حمّامات سانت أنجلو، التي يذهب اليها الأسقف للعلاج من الآلام الروماتيزمية، وعندما سأل الأسقف الشمّاس عن سبب وقوفه هناك، قال إنه يعذّب نفسه بنفسه عن أفعاله الرديئة). ثم يروي قصة أخرى عن ديوس ديديت Deus dedit، الذي قال إنه يستطيع أن يرى المنزل الذي يخصّه في فردوس النعيم، أثناء قيام الملائكة ببنائه له، الا أنه لا يستطيع رؤية هذا المنظر، الا في أيّام الآحاد عند ذهابه الى الكنيسة وتوزيعه الصدقات على الفقراء.

وهكذا أحدثت أمثال هذه القصص أثرا كبيرا في تطوير وتنميط أساليب التفكير في الغرب المسيحي، خاصة في بلاد غرب أوروبا اللاتينية، فيما يتعلق بالتصوّر المقبول عن الحياة بعد الموت، حيث انتشرت كتابات وحوارات القديس جريجوري. الا أن الأفكار الشعبية في الشرق المسيحي عن نفس هذه الموضوعات كانت مختلفة، وهو ما يمكن رؤيته في كتاب أو سفر (نهاية العالم وفقا لرؤيا القديس بولس)، وهو السفر الذي وُضِع في شكله الحالي، قرب نهاية القرن الرابع الميلادي، وكذلك يمكن رؤيته في ما عرف لاحقا باسم (نهاية العالم وفقا لرؤيا السيدة العذراء)، وكلاهما ينظر بشفقة

شديدة الى أرواح المعذّبين في نيران الجحيم.

3- مشكلة التوبة المتاخّرة

بيد المبجّل the venerable Bede، يقدّم الينا رؤيتين مختلفتين لعلاج هذه المشكلة. الأولى مستوحاة من حياة فورسا Fursa، وهو أيرلندي ذهب في إرسالية دينية الى اقليم أنجليا الشرقية East Anglia، وأثناء إرساليته حدث أن مات فحملته الملائكة على أذرعها الى السماء، ثم طلبت منه الملائكة أن ينظر الى أسفل - أثناء الطيران فوق فوّهة الجحيم - ليشاهد كيف أن النيران تأكل مرتكبي المعاصي. من بين أفعال فورسا الخيّرة أنه اشتهر عنه إنقاذ الأرواح الضالة، في لحظاتها الأخيرة قبيل الاحتضار، وذلك بجعلها تتوب الى الله. كانت هذه هي مقدّمة كتاب (بيد المبجّل). ثم بعد المقدّمة جاءت فقرات طويلة عن موضوع (كيف ينبغي لنا أن نساعد أولئك الذين يتوبون وهم على فراش الموت).

هو نفس الموضوع الذي يعالجه كتاب آخر هو (رؤيا دريثلم Drythelm)، وهو رجل أيرلندي أيضا، كان يعيش حياة عادية، مع زوجته وأولاده في اقليم نورثامبريا Northumbria، حين ترك كل شيء وذهب الى دير ميلروز Melrose، ليصبح راهبا سوّاحا anachorite، غير مرتبط بدير واحد، بل يقضي حياته كلها سائحا بين الأديرة المختلفة. وقد أصبح كتاب دريثلم مقروءا بشكل واسع جدا في كل الجزر البريطانية، مما يفسّر السبب في كونه أصبح نموذجا يحتذى، في كل المؤلفات الشبيهة اللاحقة المتعلقة برؤى سماوية. يجوز كذلك أن كتاب دريثلم قد كتب بأسلوب وجد استحسانا لدى الأيرلنديين.

يحكي لنا أنه ذهب برفقة صديقه الملاك، الى إتجاه يقع في الشمال الشرقي من البلاد، حيث وصلا الى ما يشبه الوادي العريض العميق، فوجدا نارا مشتعلة في أحد جانبيه، بينما وجدا في الجانب الآخر ويا للعجب ثلوجا. قال له الملاك إن هذا ليس الجحيم وإنما هو حافة الجحيم، التي يمكن أن تقود الى الحفرة تحت مستوى الأرض حيث الجحيم. وبصفة دريثلم تائبا متأخرا، فقد بدأ يترنّح في وقفته، ويتمايل كالسفينة في بحر هائج يتقاذفها الموج، فيقترب حينا من النار حتى يكاد يسقط فيها، وحينا آخر من الثلوج حتى يكاد يسقط فيها، وقد وقف دريثلم وحده ذات مرة، مهتزّا على شفا حفرة النار، لمدة لحظات قصيرة بدت له طويلة، اضطربت خلالها أحاسيسه بشكل مؤلم، حتى جاء الملاك وجذبه من ذراعه.

بعد تلك التجربة اقتاده الملاك باتجاه الجنوب الشرقي، الى أن وجدا حائطا طويلا عاليا مرتفعا، ولكنهما بطريقة ما نجحا في الصعود عليه وارتقائه وصولا الى قمّته، وهناك شاهدا الى الجهة الأخرى من الحائط، حقلا عريضا كما لو أنه كان بلا حدود، يبدو مبهجا جدا بألوان مزروعاته الخضراء، وبأشجار فاكهته متعدّدة الألوان. قال له الملاك إن هذا ليس الجنّة، ولكنه الطريق المؤدّي اليها. العبرة التي ينتهي بها الكتاب هي (إن أولئك الذين يجدون أنفسهم وقد تمكنوا من الصعود الى قمّة الحائط، عليهم أن يتأكدوا من خلاصهم، أما أولئك الذين لا يجدون من ينقذهم من التمايل أمام حافة حفرة النار، فعليهم أن يتأكدوا من هلاكهم، فابحثوا لأنفسكم عمّن يشفع لكم بعد موتكم).

كانت لمشكلة التوبة المتأخرة، تأثيرات هامة على الممارسات الدينية في العصور الوسطى. ففي

عصر القديس أوغسطينوس كانت قدّاسات تخليد ذكرى المسيحيين المتوفّين منذ عام أو منذ بضعة أعوام، كلها متشابهة. يقول أوغسطينوس (إن هذه القدّاسات لم تكن الا صلوات شكر، يتقدّم بها المحتفلون بذكرى المتوفّى، للربّ على قبوله المتوفّى - حتى لو كان خاطئا - في جنّات خلده). ثم يقول (أمّا المتوفّون الذين كان معروفا عنهم، رداءة أخلاقهم واستحالة غفران خطاياهم، فلم يكن أحدٌ يقيم لهم لا قدّاسات ذكرى ولا صلوات شكر).

وقد أكد أوغسطينوس على عدم إقامة قدّاسات باسم الأشرار، لأنها لن تكون ذات أي نفع لهم في الآخرة، وذلك لأنه كان عليهم أن يتوبوا عن خطاياهم وهم لا يزالون أحياء، أما بعد الموت فلا شفاعة تنفع. هذا كان الرأي على زمن أوغسطينوس، وكان هذا هو السبب الذي من أجله ظهرت، في تاريخ المسيحية الأوروبية، عادة إحضار كاهن على وجه السرعة، الى فراش المريض المقبل على موت شبه مؤكد، حتى يتسنى للكاهن أن يحصل من المحتضر، على اعتراف بخطاياه، ثم يتمكن الكاهن بعد ذلك من طلب الغفران من الرب للمحتضر التائب.

وهكذا بدأت الكنائس في إقامة قدّاسات تخليد الذكرى، فقط لمن تصالح مع الرب قبيل وفاته، ولمن مات فجأة موتا طبيعيا، كالموت بأزمة قلبية مثلا، وكذلك لمن مات موتا غير طبيعي، كمن يموت في حادثة طريق، فهؤلاء جميعا حتى لو كان معروفا عنهم الأخلاق السيئة، سمحت الكنيسة بصلوات توبة لأرواحهم، على أساس أنه من المحتمل أنهم لو كانوا قد عاشوا لفترة أطول لكانوا قد قدّموا اعترافات بخطاياهم وطلبات توبة عنها. وشاع الاعتقاد بأن أرواح الخطاة تظل تلف وتدور حول الكنائس، لا تريد أن تذهب الى السماء، حتى تحصل على غفران من الرب لخطاياها، حين تقوم تلك الكنائس بعمل صلوات توبة لهم، فيتصالحون مع السماء ويكملون طريقهم اليها في أمان.

ثم ظهرت فئة جديدة أعفيت تماما من شرط أن يكون معروفا عن أفرادها شرط الأخلاق الحميدة، حتى تقام لهم صلوات التوبة، وهم فئة المقاتلين الذين يموتون في معارك من أجل الوطن، وكذلك فئة الناس الأبرياء الذين يذبحهم الأعداء عند مهاجمة قراهم. تطورت الأوضاع لاحقا حتى أصبح قدّاس التوبة المتأخرة أكثر أهمية لدى جموع شعب الكنائس، من قدّاس شكر الرب، وذلك دليل على أن الخطاة كانوا أكثرية وأنهم لم يكونوا يتوبون توبة حقيقية. أصبح كل شخص يتمنى في حياته، أن يحصل لنفسه ولجميع أفراد أسرته، ولو مرة واحدة لكل فرد، على قدّاسات توبة متأخّرة وصلوات توبة، وبذلك يتغلب على مشاعر القلق على مصيره الشخصي وعلى مصائر أفراد أسرته، في العالم الآخر. أدّت هذه الممارسات، بالاضافة الى ظهور باباوات فاسدين على رأس الكنيسة الكاثوليكية، الى ظهور صكوك الغفران.

في النصف الأول من القرن الحادي عشر، أصبح الاحتفال بعيد كل الموتى في الأول من نوفمبر عيدين، بحيث خُصِّص الأول من نوفمبر لعيد كل الموتى القدّيسين All saints، والثاني من نوفمبر لعيد كل أرواح البشر الآخرين All souls. كان الاحتفال بالأول من نوفمبر في أيرلندا القديمة، معروفا بكونه الاحتفال بمقدم فصل الشتاء، وكانوا يسمّونه سامان Samain، وكانوا يقدّمون فيه ذبائح من الماشية أمام ربّ الشتاء. على مرّ القرون ضمّ احتفال الأول من نوفمبر أسماء بعض الأبطال القوميين، الى جانب أسماء القدّيسين المحليين والعالميين، وأصبح احتفال الثاني من نوفمبر،

في صورة قدّاس توبة متأخرة لكل البشر، الذين لم تتح لهم التوبة قبيل موتهم، سواء أكانوا من الأخيار، أو من أنصاف الأخيار، أو كليّة من الأشرار، بشرط وحيد فقط لا غير هو أن يكونوا قد أظهروا إيمانهم الواضح الصريح خلال حيواتهم.

هناك قصة أخرى لرجل دائم التجوال، قادم من اقليم أكيتان Aquitaine بفرنسا، كان معتادا أثناء تجواله الدائم على زيارة دير كلوني Cluny، وفي وثائق الدير وجدنا هذه القصة، أنه قابل ذات يوم على إحدى الجزر اليونانية، أحد الرهبان دائمي التجوال مثله، كان على معرفة وثيقة بعالم الجن والشياطين، قال ذات يوم للرجل القادم من اقليم أكيتان (إن الجن والشياطين في حالة غضب عارم، ينوحون وينتحبون نهارا وليلا فجيعتهم، بسبب أن الصلوات المتكررة التي يقوم بها الرهبان لصالح الموتى، والصدقات المتكررة التي تقدّم للفقراء باسم الموتى، أدّت كلها من خلال رحمة الرب، الى أن أرواح الآلاف من الخطاة المدانين، قد تحرّرت من عذابها المحتوم، وتخلّصت من نار الجحيم). وقد أكد الراهب دائم التجوال، على أن الصلوات القادمة من جهة رهبان دير كلوني على وجه الخصوص، هي الأكثر تأثيرا في شمول رحمة الرب، لكل المدانين بالعذاب الأبدي، وبالتالي تتعاظم سعادة من في السماء، ويزداد حزن الشياطين.

4- مطهر القدّيس باتريك

هنا سنعالج قصة القديس براندون Brandon، وهو قدّيس أيرلندي من القرن التاسع الميلادي. هذه القصة تقدّم الدليل على أنه وفقا للتقاليد الشعبية الأيرلندية، فإن الجزيرة المخصّصة للمبروكين تنقسم الى جزئين، أحدهما يمكن الدخول اليه بسهولة، الذي سيطلق عليه لاحقا اسم المطهر، بينما الجزء الآخر يكون من الصعب جدا الدخول اليه، وهو جنّة فردوس النعيم، وهذا شيء شبيه بما سبق أن قابلناه في قصة رؤيا دريثلم. الا أن جزيرة المبروكين بجزئيها، وكذلك الجزيرة الأخرى الموجود عليها الجحيم، هما جزيرتان موجودتان في موقع بعيد جدا من المحيط الأطلنطي، الذي كانت جغرافيته في ذلك الوقت المبكر تعتبر مجهولة تماما، حتى أن أساطير الكثير من شعوب أفريقيا وأوروبا كانت تسمّيه بحر الظلمات.

في بعض نسخ قصة القدّيس براندون، نجد أن حافة الهاوية المؤدّية الى الجحيم، هي نفسها حافة بركان قابل للثورة في أي وقت. تشير بعض المصادر الحديثة الخاصة بتفسير بعض النصوص القديمة، أن جزيرة الجحيم التي يتوفّر فيها وجود الشرطين الواردين في الروايات المختلفة، أي شرط وجود حافة البركان القابل للثورة في أي وقت، وكذلك شرط وجود كتل الثلوج طوال العام، هي جزيرة آيسلند في أقصى شمال المحيط الأطلنطي. الا أن القديس براندون لم يغامر كثيرا في رحلته، فلم يذهب الى أماكن بعيدة عن مكان إقامته، وإنما ذهب الى ساحل البحر القريب منه حيث التقى عند صخرة، بيهوذا الاسخريوطي، تلميذ المسيح الآبق الذي سلمه الى أعدائه، الذي عرف منه القديس براندون أن عقاب يهوذا على فعلته، هو أن يظل يحترق مثل كتلة ملتهبة من الرصاص في بوتقة نهارا، ويحترق ليلا في قاع البركان.

في دراسة طوبوغرافية قديمة، عن طبيعة تضاريس أرض الجزيرة الأيرلندية، تعود الى سنة 1196 ميلادية، من تأليف جيرالد من ويلز Gerald of Wales، نجد أن أيرلنده مقسّمة الى جزئين، الجزء الخيّر الذي تقع فيه الكنائس، التي يزورها الملائكة والقدّيسون، والجزء الشرير الذي يتكوّن من صخور متعرّجة شديدة الانحدار، تسكنها الشياطين. في الجزء الصخري يمكن العثور على تسع حفرات غائرة في الأرض، إذا سقط شخص ما في واحدة منها، أو غامر بالدخول في واحدة منها، فإنه سيعذّب عذابا شديدا خاصة عند حلول الليل. ثم يضيف جيرالد الطوبوغرافي (الا أن من يتعرّض للتعذيب في إحدى هذه الحفرات، مرة واحدة لمدة ليلة كاملة، فإنه إذا سقط من جديد مرة ثانية في واحدة من تلك الحفرات، لا يُعَذَّب مرة أخرى، الا إذا كان أثناء الفترة بين المرّتين الأولى والثانية، قد ارتكب المزيد من الخطايا والآثام)، وهي الفكرة التي تقترب كثيرا مما يحدث في المطهر الذي يتطهر فيه الخاطىء من خطاياه، وهو ما يفهم منه أن جيرالد كان يؤمن بأن العذاب في المرة الأولى، يمكنه أن يمحو فقط آثار الآثام المقترفة قبل المرة الأولى.

يضيف النص أن فارسا أيرلنديا أصوله من ويلز واسمه (أو- وين)، وهو من فرسان الملك ستيفن، حاول النزول في واحدة من تلك الحفرات، قبل أكثر من 40 سنة من تأليف هذا الكتاب، أي في حوالي سنة 1153، بعد أن كان قد أخذ الإذن بذلك، من كل من الأسقف المحلي ومن رئيس أقرب الأديرة، وهو يعلم أنها تجربة مميتة قد يكون ثمنها هو حياته نفسها. أقيم له ليلة النزول قدّاس توبة

خاص به وبمجموعة الفرسان الذين سينزلون معه. ثم اقتيدوا في موكب الى مدخل إحدى الفتحات. بعد نزولهم تمّ اغلاق مدخل المطهر عليهم وهم بداخله، ثم تركوهم بداخل الحفرة، على أن يعودوا اليهم في صباح اليوم التالي. يفترض النص أن هذه التجربة هي لصالح الفرسان الذين قرروا أن يخوضوها، على أساس أنهم قد يتعرّفون خلالها على المزيد من التجارب التطهّرية، أو قد يمارسون خلالها المزيد من التمارين التكفيرية، فإذا خرج الفرسان في الصباح، فهذا يعني أنهم أخيار، أما إذا لم يخرجوا في الصباح التالي فهذا غالبا يكون معناه، هو أنهم وقعوا أسرى في أيدي الشياطين، بسبب كونهم ليسوا على درجة كافية من الصلاح. عند خروجهم في الصباح التالي كانوا لا يزالون في حالة طيبة، ثم ذكروا أنهم أثناء الليل حبسوا في مكان مغلق، غمرته أبخرة ساخنة كانت ذات تأثير مخدّر عليهم، فناموا عدّة ساعات، لكنهم تمكنوا من تخليص أنفسهم.

لدينا قصة أخرى تعود الى سنة 1409، يرويها لنا ويليام من سترانتون، الذي دخل الى واحدة من تلك الحفرات، وهو بالمناسبة يسمّيها كهفا، وظل يتلو صلواته لتحميه الملائكة من الأرواح الشريرة، ثم مثل سابقيه سقط في نوم عميق، ثم خطر له في حلم أنه قابل اثنين من قدّيسي المناطق الشمالية، اللذين قاما بإعطائه الإرشادات اللازمة، ليسير في الطريق القويم، ثم أسرعا لانقاذه لاحقا عندما وجد نفسه في موقف صعب، وجد نفسه فيه وجها لوجه مع شقيقته التي كانت قد ماتت قبل سنوات طويلة، بسبب وباء الطاعون، ثم قابل معها كذلك الرجل لذي كانت الشقيقة قد أحبّته خلال حياتهما الأرضية. المشكلة هي أن ويليام كان قد اعترض على إتمام زواج شقيقته من ذلك الرجل، ولهذا فهي عندما قابلته اتهمته بأنه وقف في سبيل إتمام سعادتها، عندها تدخّل القديسان الشماليان في الحوار الدائر بين ويليام وشقيقته، قائلين ما يفهم منه أنهما ينتقدان موقف ويليام من شقيقته، ثم أضافا (رغم أن هذه مسألة شخصية، الا أن علينا أن نؤكد أن اعتراض الأخ على زواج أخته، من شخص تحبّه ويناسبها من كافة الأوجه، في نظر الكنيسة هو إثم في حق الديانة المسيحية). يضيف ويليام الى روايته المنظر الذي شاهد فيه، أحد أساقفة الكنيسة المتفاخرين بثروات كنائسهم وفخامة ثيابهم، وهو يعذّب بواسطة عدد كبير من الثعابين التي كانت تخرج من بين طيّات ثيابه الثمينة.

أغلق مطهر القديس باتريك أبوابه سنة 1497، بأمر من البابا الكساندر السادس، بسبب شكوى أخوية دينية في هولندا، أثبتت عليه أنه عملية نصب وخداع. الا أن مطهرا كاثوليكيا أيرلنديا آخر، اكتشف في جزيرة أخرى أصغر حجما من الأولى، تسبّب في الكثير من المضايقات لحكومات بريطانية كثيرة، خلال الفترة بين نهاية القرن 17 وبداية القرن 18، وكان كذلك مصدرا لكثير من التعليقات الساخرة، من طرف الأيرلنديين البروتستانت الساخرين من الأيرلنديين الكاثوليك، وقد كتب عنه الشاعر كالديرون Calderon أحد أعماله المسرحية.

تخيّل المؤلف أن اقليم أولستر Ulster، وهو أيرلندا الشمالية الحالية، هو الذي وصل اليه الرحّالة الاغريقي الأسطوري أوليس، ونزل عنده الى العالم السفلي. فإذا كان موقع السماء قد أصبح أقل تحديدا ووضوحا، منذ التحوّل من علم الفلك البطلمي، في أسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد، الى علم الفلك الكوبرنيكي، في أوروبا القرن السادس عشر الميلادي، فإن باطن الأرض لم يتغيّر كثيرا، إذ إنه كان ولا يزال معروفا بكونه شديد السخونة، وكذلك كان ولا يزال معروفا إن مداخل ومخارج الجحيم هي فتحات البراكين. وقد استمرت مناهج المدارس التعليمية تدرّس للتلاميذ كتب أساطير الأقدمين،

على أنها كتب كل المعلومات المتاحة في التاريخ والجغرافيا، حتى نهايات القرن الثامن عشر، وبالتالي فقد درس فيها التلاميذ أن الموقع الجغرافي الدال على وجود المطهر، يقع عند مستوى القشرة الأرضية، بين عالمي الفردوس الموجود في السماء، والجحيم الموجود في باطن الأرض.

5- اختلاف وجهات النظر بين الشرق والغرب

خلال القرون الوسطى، كانت التناقضات بين العالم المسيحي في شرق حوض البحر المتوسط، والعالم المسيحي في غرب أوروبا، قد بدأت بالاتهامات التي وجّهتها كنائس غرب أوروبا الكاثوليكية اللاتينية، الى الكنائس الأرثوذكسية اليونانية، التي تتعلق أساسا بعدم اعتقاد الشرقيين في مسألة وجود مطهر، وفي مسألة التطهر بالآلام الجسدية لتخليص المذنب من أدران الخطيئة، في أثناء حياته الأرضية، أو بعد موته الجسدي مباشرة. فخلال اللقاءات المسكونية المتتالية (أي التي جمعت كنائس المسكونة كلها)، عبر قرنين من الزمان، بغرض توحيد شطري الكنيسة، منذ اللقاء الأول في مؤتمر مدينة ليون الفرنسية سنة 1274، والى اللقاء الأخير في مؤتمر مدينة فلورنسا الايطالية سنة 1438، لم تصل الكنائس الى إتفاق نهائي تام.

لكن حدثت بعض التنازلات، فقد أقرّ الشرقيّون بأن الأرواح التائبة يمكن أن تختبر مدى قوة توبتها، ببعض الآلام التطهيرية. وكان الطرفان يتفقان كذلك على ضرورة إقامة صلوات لصالح الموتى. الا أن نقاط الخلاف ظلت في أن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، كانت مستعدّة لاقامة صلوات موتى لعدد أكبر من الخطاة، أي أن قائمة المقبولين للتوبة لديها، ظلت أطول بكثير من قائمة المقبولين للتوبة لدى الكنيسة الكاثوليكية. بالاضافة الى الخلاف الرئيسي ظلّ يدور حول مسألة عدم اعتقاد الشرقيين، في أن نيران الجحيم يمكنها أن تؤثّر على الأرواح النورانية الأثيرية التي غادرت أجساد الموتى. كيف للمادي أن يكون له التأثير المدمّر على غير المادي.

وتفصيل ذلك أن أحد المتخصصين في علوم اللاهوت الذين شاركوا في مؤتمر فلورنسا، وهو مارك من إفسوس (مدينة يونانية) Mark of Ephesus، دخل في جدل حول النصوص التوراتية والانجيلية، التي تشير الى النيران، وتؤكد أنه لا وجود لمثل هذه النيران الا بعد يوم الحساب، قال (إن التصوّر المناسب للحالة غير المادية للروح، أي حالتها الروحانية spiritual soul، حين تكون هذه الروح خاطئة الى حد ما، وقابلة لدخول المطهر للتخلص من أدران ما يتبقى من خطاياها، هو أن تكون النيران التي تتعرّض لها هناك، هي الأخرى نيرانا غير مادية، أي أن تكون نيرانا روحانية (spiritual fire.

وقد كتب الشاعر الايطالي دانتي كوميدياه الالهية في أجواء شبيهة بتلك الخاصة بمثل هذا الجدل، وكان قد وقع تحت تأثير التصوّرات التي تشيعها الكنائس الكاثوليكية الأيرلندية، ولهذا فقد وضع في كوميدياه الآلهية الجبل الذي يقود بعد عبوره الى الجنة الأرضية، في نهاية المحيط الواقع غرب أوروبا (الأطلنطي). أي على المتوفّى أن يعبر أولا المحيط الأطلنطي الى نهايته، ثم يصل ثانيا الى الجزيرة التي يعبر ثالثا جبلها، حتى يجد نفسه رابعا عند المطهر، الذي قد يؤدّي به خامسا الى أبواب الجنة. الفرق الرئيسي بين كوميديا دانتي والفولكلور الديني الأيرلندي، هو أن الكوميديا تضع المطهر عند مدخل الجنة، في حين يضعه الفولكلور الأيرلندي عند مدخل النار. في كوميديا دانتي كانت النيران روحانية، وهذا هو ما يربطه أكثر بالتقاليد الكلاسيكية اليونانية القديمة، التي ربما تكون قد وصلته عن طريق كنائس رافينا Ravenna، حيث عاش أغلب حياته في المنفى. ثم إن أفضل امبراطور مسيحي في نظره هو راعي الكنائس جوستينيان[114] Justinian،

وليس المحارب شديد البأس شارلمان[115] Charlemagne.

وقد أضاف دانتي كذلك الى كوميدياه، موقع ما يعرف بالليمبو Limbo، وهو موطن أرواح الأطفال الذي ماتوا قبل تعميدهم، وبالتالي يحرمون من دخول الجنة، ولكنهم لا يذهبون الى جهنّم. وقد اتّبع دانتي التقاليد الغربية في جعل فيرجيل Virgil هو الآخر يعود الى مكانه في الليمبو. كان دانتي وفيرجيل في الكوميديا الآلهية، قبل عودة فيرجيل الى الليمبو، قد ذهبا في رحلة طويلة لاستكشاف المطهر، ثم الوصول الى المدخل المؤدّي الى الفردوس الأرضي. إن تبسيط الأمور يمكن أن يؤدّي بنا الى القول، بأن الفرق الرئيسي بين تصورات الشرق وتصورات الغرب عن العالم الآخر، هو في الحقيقة الفرق بين تصورات دانتي وتصورات القديس باتريك.

إن أولئك الذين قاموا بالرحلة الى لوج ديرج [116]Lough Derg، كانوا يعرفون أنهم يذهبون الى أرض بها قدر كبير من المخاطر، مثلما يفعل الآن علماء الطبقات الأرضية المتخصصين في البراكين، الذين يدرسون فتحات الكهوف والمغاور speleologist، عندما يذهبون في محاولة استكشاف الأماكن المجهولة، فيأخذون معهم أحيانا، عند نزولهم الى باطن الأرض وسيطا روحيا mediu. كان دانتي على وعي تام بإحكام بنائه الشعري، الا أنه لم يكن على نفس الدرجة من الوعي بمضمون كوميدياه الآلهية، ومع ذلك فإن أي شخص على دراية بعملية الخلق الشعري، سيتولد لديه قدر من الشك في أن خيالات دانتي الشعرية، قد تكون مبنية على أساس تجربة شخصية في الاتصال بأرواح الموتى، وهو ما لا يمكن اعتباره غريبا عن التقليد المسيحي أو غير متوافق معه، رغم انتمائه كذلك بما لا شكّ فيه الى عوالم الأساطير والألغاز والمعجزات والنبوءات. ويظل البعض الى الآن ينظر الى عمل دانتي على أنه نوع من النبوءة، رغم أننا لا يمكن أن نفسّر كل ما ورد فيه تفسيرا حرفيّا، خاصة لو وضعنا في الاعتبار، الانجاز العلمي الذي حدث في عالمنا، خلال أكثر من سبعة قرون.

الفصل التاسع

ضرورة وجود الأساطير

إن حاجتنا الى الأساطير تبدو واضحة جدا، خاصة عندما نكون في مواجهة الموت، لأن القليلين منا فقط، هم من يستطيعون أن يتقبّلوا فكرة أن الموت هو النهاية التامة لوجودهم. بالتالي فإن الأخذ بمذهب اللاأدريين Agnostics، يعتبر مخيّبا للتوقّعات وللآمال. إن الفيلسوف هوايتهيد ٧، وهو من بين أكثر فلاسفة العصر الحديث الذين كرّسوا تفكيرهم لهذا الموضوع، تحدّث عن الخلود الموضوعي Objective immortality، الذي قصد به أنه (بطريقة ما فإن نتيجة مجموع حيواتنا ونتائج أعمالنا، يمكن الاحتفاظ بها في عقل واحد فقط لا غير، قادر على استيعابها كلها). هذه الفكرة هي التي أمكن تطويرها الى رؤية حديثة لموضوع الحساب الأخير. هذه الفكرة تحتاج الى كل الجهود التي بذلت فيها، والتي ستبذل فيها، بغرض إعادة صياغتها، وقد حدث من قبل أن أعيدت صياغة بعض الأساطير القديمة بغرض تطويرها.

هناك مثلا الأساطير المتعلقة ببعض قدّيسي المسيحية في العصور المبكّرة، التي تمّ تطويرها وإعادة صياغتها، لتظهر في صورتها النهائية، مثل تلك الموجودة في الكنائس الشرقية في شكل مجموعة من الأيقونات التي تلخّص أهم أحداث حياة القدّيس، وأهم أعماله، في مجموعة من المناظر المتتالية. كما ظهرت في الكنائس الغربية، مجموعات ضخمة من اللوحات الحائطية، التي تحكي قصصا كتابية في شكل مناظر متتالية. في هذا النوع من الأعمال الفنيّة، تظهر غالبا شخصيات سماوية كالأنبياء والملائكة، أو شخصيات كتابية كالحواريين، كما يظهر أحيانا بعض الشياطين أو الأشباح. بل إن صورة الربّ نفسه حسبما تصوّره أسفار العهد القديم (التوراة)، في شخص رجل عجوز ذي لحية بيضاء، ووجه متأمّل حكيم، قد ظهرت على حوائط وأسقف العديد من كنائس ايطاليا في بداية عصر النهضة (مثلا على سقف كنيسة سيستين في روما بريشة الفنّان ميكل أنجلو سنة 1512).

لقد فكرت كثيرا في أن بعض التجارب والخبرات، التي اعتبرت مؤكّدة لعملية انتقال أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة، في رحلات ذهاب وإياب متكرّرة بين العالمين، يمكن تفسيرها بشكل أفضل، على أنها التأثير الباقي لشخص من جيل سابق، على شخص أو أشخاص من الأجيال الحالية، في اللحظات المصيرية الحرجة. هناك مثلا ما أشيع ويشاع، عن إمكانية تواصل أرواح بعض كبار المؤلّفين الموسيقيين العالميين، من القرنين السابقين على القرن العشرين، مع أرواح مؤلفين موسيقيين حاليين، ما زالوا يعيشون بيننا في عالم الأحياء، وهو التواصل الذي يتمّ، بغرض رغبة الموسيقيين المتوفّين، في إنهاء أعمالهم الموسيقية، التي ظلت ناقصة بعد موتهم. أما إذا حدث اختلاف بين الأسلوب المعروف للموسيقي المتوفى، وبين أسلوب الموسيقي الذي عمل وسيطا، فيعزى هذا الاختلاف الى خلل في الوساطة، وتشويش في عملية الاتصال، أو قد يصل الأمر الى التشكيك في صدق الموسيقي الذي يدّعي لنفسه القدرة على التواصل.

مع مرور الزمن ظهرت صعوبات عديدة، أمام بعض الأفكار التي روّجت لها الأساطير المسيحية، مثل فكرة الكون ثلاثي الطوابق، أي أن السماء والفردوس هما فوق في الطابق الأعلى، وأن الجحيم

هو تحت في الطابق الأسفل، وأننا بني البشر نعيش في الطابق الأوسط فيما بينهما. الا أن الصعوبات الحقيقية حاليا ترتبط أكثر بالمشاكل الزمانية منها بالمشاكل المكانية. هناك خريطة تعود الى القرن السادس الميلادي، رسمها بحّار سوري اسمه كوزماس إنديكو بلوستوس Cosmas Indico Pleustes، يبدو أنه كان نشيطا ومجتهدا في محاولاته لتفسير التوراة والانجيل، على أساس من الحقائق التاريخية.

كما رأينا في الفصل السابق، فإن المؤتمرات المسكونية لم تنجح في جمع شعوب العالم المسيحي حول تصوّرات واضحة للعالم الآخر، مثل مواقع الجحيم والمطهر والفردوس، حتى نهايات العصور الوسطى. كذلك كان الاعتقاد السائد هو أن القديسين والملائكة دائمو الحركة في كل مكان من عالمنا الأرضي. لكن كان هناك إصرار عام من طرف كل كنائس الأرض على صحّة فكرة البعث، أي على صحّة فكرة ضرورة قيامة كل الموتى، وضرورة عودتهم من جديد الى الحياة، وأن هذا ينبغي له أن يحدث يوما ما في المستقبل، في زمن قادم غير محدّد موعده بدقّة، وأن هذا سيحدث هنا، على نفس هذه الأرض التي نعيش عليها الآن.

مع مرور الزمن أصبحت فكرة يوم الحساب الأخير، أكثر وضوحا وأكثر أهمية. إن أولئك الذين عبروا البوّابات السماوية، أو تسلقوا الجبال العالية، في طريقهم الى المطهر ومنه الى جنّات النعيم، يمكن اعتبارهم من بين الناجين، ومن بين من سيكون لهم النصيب الصالح في مملكة السماء، ربّما ليس على الفور، ولكن بعد يوم قيامة كل الأموات، وتوقيع كشف الحساب الأخير عليهم جميعا. يوم الحساب الأخير هو ذروة الذرى في كل القصص المتعلقة بنهاية العالم، وهذا هو فعلا ما يحتاج الى تفسير. فالموت على ما يبدو ليس انقطاعا تاما لوجودنا الجسدي، بل هو فقط مجرّد انتقال من حالة مادية الى حالة مادية أخرى مختلفة، مجرّد اختلاف في شكل هذا الوجود. لقد أصبحنا بفضل علم النفس الحديث، على وعي كامل بالتفاعل الحاصل بين النفس والجسد، حتى أن فكرة وجود نفس دون جسد، تبدو فكرة مبهمة.

الحل قد يكون في فكرة جديدة، هي أن يحدث في يوم البعث، أن تحل الأرواح في أجساد جديدة، غير تلك الأجساد التي استعملتها واستهلكتها هذه الأرواح في حيواتها الأرضية. قد يحدث هذا بطريقة غير مفهومة لنا في الوقت الحاضر. قد تكون قدرة بعض أرواح البشر الحاليين، على الاتصال عن بعد te، أو على ممارسة بعض الخوارق الأخرى، كمقاومة أجسامهم للجاذبية الأرضية وتعلّقها في الهواء، هي ببساطة بسبب أن هذه الأرواح هي لموتى حلّوا في أجساد جديدة. مجرّد لمحات من العالم الآخر.

ورغم إصرار بعض اليهود المتعصّبين، على التفسير الحرفي لمعاني النصوص التوراتية، فإني سأكون أكثر ميلا الى تفسيرات غير حرفية، مختلفة عن تلك التي تعصّب لها اليهود. مثلا النصوص التي تتحدّث عن أشكال وحوش البحار والسبوع المفترسة التي تبتلع ضحاياها في لمح البصر، التي نجدها غالبا في الوصف التوراتي ليوم الحساب الأخير، ما هي الا دليل على أن تخيّل طبيعة يوم الحساب الأخير، يرتبط بالتخيّلات البشرية في العصر الذي كتبت فيه هذه النصوص، والتي تشير الى نوعيات المخاطر التي تعرّض لها المغامرون القدامى، أثناء عبور البحار والصحراوات.

ثم حدث سنة 1690 في أوكسفورد، والعالم على عتبة عصر العلم الحديث، أن بدأ العلماء في مناقشة

فكرة أن البعث يمكن أن يقوم على أساس علمي، ورغم أن البداية في ذلك التاريخ المبكر كانت بسيطة، الا أنها كانت مبنية على حقيقة أن لكل جسد بشري شفرة رقمية لجزيئاته، وأن الله وحده هو القادر على إقامة أجساد الموتى، على أساس أنه هو وحده الذي يعرف الشفرات الرقمية لكل الأجساد التي خلقها، وبالتالي يمكنه أن يعيد خلقها من جديد، حتى لو كان ذلك بعد فناء تلك الأجساد بآلاف الأعوام.

هذه النظرية عرفت في الانجليزية بهذه العبارة the resurrection by the same numerical particles. كنا في بداية عصر جديد للبشرية، عصر تراجعت فيه الخيالات الشعرية، وتركت مكانها للتفكير العلمي، العصر الذي طُرِحَت فيه على مائدة البحث، كل ما كانت العصور الوسطى تعتقد أنه حقائق، لمعرفة مدى الحقيقي فيها ومدى الباطل، باستعمال البراهين العلمية.

إن مشكلتي الموت والبعث هما جزء من مشكلة أكبر، هي مشكلة طبيعة الروح. فعلى ضوء الاعتقادات السائدة في الهند وفي غيرها من بلاد الشرق الأقصى، فإن الأرواح الشريرة تكوِّن جزءا من مجتمع أكبر، يتكوَّن من الأرواح البشرية وغير البشرية، الصالحة والطالحة، التي تعيش كلها سابحة في الفضاء، هائمة في عالم الخيالات، وعلى الأرواح البشرية الصالحة، أن تجاهد للخروج من هذا المجتمع.

هم في حضارات الشرق الأقصى تلك، يعتقدون أن عمليات مثل خلق الله للبشر، ثم سقوط آدم وحوّاء في خطيئة معصية الله، ثم عقابهما وخروجهما من الجنة، هي عمليات متداخلة ومتشابكة، بل وغير مترابطة الأوصال، وقد تصل الى درجة أن تكون عمليات وهمية، وذلك لأن العالم المادي الذي يبدو لنا أننا نعيش فيه، ما هو الا مجموعة من الأوهام التي خلقتها رغباتنا البشرية. قد تكون كل تلك القصص ما هي الا مجموعة من الأوهام البشرية.

نحن في حضارة العالم الغربي الحالية، نعتقد أن هذا العالم المادي هو العالم الحقيقي، وهو العالم الوحيد المناسب لنا تماما، في ظل ظروفنا المادية الراهنة. أما من وجهة النظر المسيحية، فإنه لاشك في أن لديهم الاعتقاد في أن هذا العالم هو من صنع الله، خالق جميع الكائنات، الذي إختار انسان الجنس البشري، حتى يكون أفضل مخلوقاته لديه، نوعه المفضّل على سائر ما عداه، من أنواع الكائنات الحيوانية والنباتية الأخرى، الذي انتوى له الله منذ البداية أن يكون سيّدا مسيطرا على بقية مخلوقات الله. ثم كان سقوط أول انسان في الخطيئة، هو نتيجة مباشرة لحصول هذا الانسان على قدر من حرية الاختيار، التي ميّزه بها الله، لأنه وهبه العقل الذي يستطيع أن يميّز به.

لا يوجد في الواقع أي تناقض، بل في الحقيقة هناك حتى إتفّاق واضح، بين اختيار الله أن يكون الانسان متفوّقا على ما عداه من مخلوقات، وبين القوانين التي بدأ العلم في التوصّل اليها منذ منتصف القرن التاسع عشر، والخاصة بالتطوّر البيولوجي (الحيوي) وفقا للانتخاب الطبيعي، فكل من هاتين النظريتين العقائدية والبيولوجية، يتضمّن نفس الرؤية الخطيّة للتطوّر linear evolution في التاريخ، وبهذا المعنى هما يقفان معا، ضدّ أيّة نظرية لا ترى في الحياة الأرضية، الا تكرارا مملا

سخيفا لنفس الموضوع.

ثم إن هناك في جزء كبير من تفكيرنا المتعلق بالتطوّر، يوجد قدر كبير من الخلط والاضطراب في المفاهيم، غير معترف بهما، الخلط والاضطراب بين الفرضيّات العلمية بخصوص الصفات الوراثية Genetics، والطفرات mutations، وأصل الأنواع the origin of species، من ناحية، وبين المنظور الارتقائي لتطوّر evolution أشكال الحياة، من ناحية أخرى. فالتطوّر مذهل بين شكل المادة البدائية لأول أشكال الحياة، المادة الغروية اللزجة التي تفرزها الأسماك على الشواطىء، وبين شكل الانسان المعاصر، وربّما شكل ما سيأتي بعد هذا الانسان المعاصر، فالتطور مستمر ولكنه بطيء جدا. هذه هي الفكرة القادرة على إثارة الخيال العلمي. ليس هناك ما هو أكثر تأثيرا من الدلائل العلمية التي نحصل عليها بأساليب العصر الحديث.

الأساطير تستدعي وجود بدايات ونهايات، ولهذا فبين البداية والنهاية لكل أسطورة لا مناص من حدوث تطوّر ما، وبالتالي فلا مناص كذلك من تدخّل مفسّرين كثيرين، لشرح ما هو غامض ومبهم على الناس. قد يكون هناك توافق في أسلوب العمل، بين الاستبطان introspection الذي يولّد الأساطير، وبين الإبداع الذي يولد النظريات العلمية. لكن لا الاستبطان ولا الإبداع يمكنهما أن يصلا الى وضوح العلم، عندما يحاول أن يتأكد من صحة فروض علمية.

لا يقترب من دقّة العلم الا التاريخ. لكنه هو الآخر قابل بسهولة للتحوّل الى أسطورة، وذلك يحدث عندما يكتشف كاتب التاريخ، أن الأحداث المذكورة إذا ذكرت دون أي تحوير فيها، ستصبح غير مثيرة للخيال، بل حتى يمكنها أن تصبح مملّة. لهذا فإن قدرا كبيرا من البحوث التاريخية الحالية، يهدف أساسا الى تقويض الأساطير، والى الوقوف ضدّ اتجاه تحويل التاريخ الى أساطير. إن أكثر نتائج تلك البحوث التاريخية إثارة للاهتمام، ليست هي الحقائق المجرّدة، التي لا يمكننا أبدا في الواقع الحصول عليها، بسبب عدم وجود ما يمكن تسميته بالعدالة التامة والتجرّد التام والموضوعية التامة، ولكن المثير للاهتمام حقا هو معرفة الدوافع، التي أدّت الى تحويل التاريخ الى أساطير.

أمّا فيما يتعلق بمشاكل البحث في أصول المسيحية وجذورها، فلدينا مادة دسمة في رسائل القديس بولس، التي يعتبر المتخصّصون، أن خمسا منها على الأقل، لا شك على الاطلاق في كونها، بقلم القديس بولس نفسه، في حين أن بعض تلك الرسائل الأخرى تحيط بأصالتها بعض الشكوك. إن الأسئلة المعاصرة المتعلقة بحقيقة شخصية يسوع المسيح، تحوّلت في الوقت الراهن الى البحث في الدراسات التي تقارن بين صورة المسيح في رسائل القديس بولس، الذي لم يقابل المسيح في حياته أبدا، وصورته في البشائر الأربع للقديسين متى ومرقص ولوقا ويوحنا، الذين عاش بعضهم مع المسيح أو الى جواره بضع سنوات.

إن لهذا الموضوع خلفية قديمة، منذ بدأت الدراسات الخاصة حول ما أثير سابقا، من أسئلة تتعلق بمدى دقّة المادة التاريخية، الموجودة في البشائر الأربع. فخلال العصور الوسطى كانت رسائل القديس بولس، أكثر فائدة للباحثين في الجدل الدائر حول المسائل اللاهوتية، من نصوص البشائر الأربع. ثم عندما جاءت حركات الاصلاح الديني البروتستانتية في القرن السادس عشر، قامت دراساتها اللاهوتية في الأساس على نصوص رسائل بولس، لا على نصوص البشائر الأربع. كما أن

الكثير من الأسئلة المتعلقة بسقوط الانسان في الخطيئة، واعتماد الانسان على رحمة الرب في الخلاص من العقاب، تكون الاجابات التي تحصل عليها الكنائس الكاثوليكية حتى الوقت الراهن، هي من نصوص الرسائل لا من نصوص البشائر.

في أسفار العهد الجديد يبدو حدث عودة المسيح الى الحياة، ظاهرا أمام أعين كل تلاميذه وحوارييه، فقد ظهر لهم فرادى ومجتمعين عدة مرات، وقد أدّى هذا الى عدم تفريق المسيحيين الأوائل، من ناحية أولى بين بعث المسيح من عالم الموتى، وبين بعث كل جماعة موتى المسيحيين هم أيضا من عالم الموتى، ومن ناحية ثانية بين بعث موتى جماعة المسيحيين وبين عودة جماعة الموتى اليهود من العالم الآخر. الا أن هذه التصوّرات تفكّكت، بسبب ظهور موضوع التفاصيل الخاصة بتأجيل يوم الحساب الأخير، الى مستقبل بعيد غير واضح المعالم.

عاد الجدل من جديد بعد عدة قرون، عندما ظهر الى الوجود إحتمال جديد، وهو إمكانية حدوث تحوّلات للأرواح في لحظة الموت، كل روح منها منفردة عن غيرها، فتترك الروح جسدها القديم الفاني، وتدخل في حالة جسمانية جديدة ومختلفة رغم أنها لنفس الجسد القديم الفاني. إن بعث الجسد وبداخله الروح، له معنى مهم لدى المسيحيين، وهو معنى مشاركة يسوع المسيح في تجربته الفريدة، أي أن يبعث بنفس الجسد الذي صلب به وتعذّب ومات[[117]].

كان لاهوتي من روما قد كتب (إن قوة بعث المسيح من الموت، تخترق كل مجالات التفكير المسيحي، ويعاد استثمارها فيه)، ثم يقول (إن كلا منا نحن البشر، سيبعث من الموت مثل المسيح، الحيّ الأزلي الحيوية). إن الدور الذي تلعبه الكنيسة، هو الحفاظ على تماسك وتعاضد جماعة المؤمنين المسيحيين، وشراكتهم كلهم مع المسيح في موته وبعثه من جديد[[118]].

من الغريب أن الجدل الذي كان دائرا، حول التفسير الحرفي لنظرية الكون ذي الثلاثة طوابق، لا يزال دائرا حتى الآن، بما يعنيه ذلك من استمرار إعتقاد الناس من ديانات مختلفة، في وجود طبقات السموات الى أعلى، وطبقات الجحيم الى أسفل، رغم ظهور نظرية الكون طبقا لعالم الفلك البولندي كوبرنيكوس في أوائل القرن السابع عشر، وحلولها محلّ النظرية الأقدم لبطلميوس من القرن الثالث قبل الميلاد. أتردّد في قول إن هذا التقدّم العلمي لم يكن له لدى غالبية شعوب الأرض أي معنى، ولكني أرى في هذه الظاهرة، الدور الذي تلعبه الأساطير في الديانات.

ففي جميع الديانات تسود أفكار من نوع (الوحي القادم من السماء)، حيث ينظر الأنبياء الى أعلى في إتجاه السماء، وقوى الخير عادة تهبط من السماء، فنحن عندما ندعو الى الله ننظر الى سقف الحجرة التي نجلس فيها. في حين أن قوى الشر، مثل الشياطين والبراكين والزلازل، فتأتي من باطن الأرض الملتهب كالجحيم.

ولكننا مع ذلك لا ندرك بدقة حقيقة علاقة هذه الاتجاهات الى أعلى والى أسفل، بالمقارنة بالفضاء الخارجي outer space، وبالكون universe المحيط بالكرة الأرضية، فالاتجاهات الى أعلى والى أسفل لا معنى لها على الاطلاق، في علاقة كرتنا الأرضية بالفضاء الخارجي. وهكذا نرى

بوضوح أن الأسطورة لا تزال تعيش بيننا في القرن العشرين.

فهناك أسطورة لازالت تتكرر في عالمنا المعاصر، وفي أماكن جغرافية شديدة التباين، هي أسطورة ظهور السيدة مريم العذراء. لا شك في أن الكتب التي ألّفت عن الحيوات المختلفة للعذراء مريم، لعبت دورا هاما في قوة العقيدة المريمية، خاصة فيما يتعلق بشهادات عيان رؤية صعود القدّيسة مريم العذراء الى السماء بالروح والجسد. هكذا ترون أن الأسطورة ما زالت مستمرة.

الفصل العاشر

المصادر التي استقيت منها مادة الكتاب

مصادر الفصل الأول:

1- نظريات حول الديانات البدائية/ Theories of primitive religions / مجموعة محاضرات/ للبروفيسور إيفانز بريتشرد/ Evans – Pritchard.

2- عقل الانسان المتوحّش/ the savage mind / لكلود ليفي شتراوس Claude Levi – Strauss.

3- مؤلفات ميرسيا إلياد Mircea Eliad، التي تحمل العناوين التالية: الأساطير Myths / - الأحلام والأسرار Dreams and Mysteries / - الأسطورة والحقيقة/ Myth and Reality – أسطورة العود الأزلي/ the Myth of the Eternal Return.

4- المملكة والآلهة (عن مملكة بابل)/ Kingship and the Gods /تأليف هنري فرانكفورت Henri Frankfort /.

5- ما قبل الكتاب المقدّس/ Before the Bible من تأليف سايرس جوردون/ Cyrus H. Gordon.

6- الهند في ما قبل التاريخ/ Prehistoric India من تأليف ستيوارت بيجوت/ Stuart Piggot.

7- مولد الحضارة الهندية/ The Birth of Indian Civilization من تأليف بريدجيت أولتشين/ Bridgett Allchin.

8- العقيدة والجدل في الفلسفة الهندية/ Doctrine and Argument in Indian Philosophy / من تأليف نينيان سمارت/ Ninian Smart.

9- الفكر البوذي في الهند/ Buddhist Thought in India من

تأليف إدوارد كونز/ Edward Conze.

10- الحيوات المبكّرة ليسوع/ The Earliest Lives of Jesus من تأليف آر إتش جرانت/ R. H. Grant.

11- العمل المعنون (التقليد الرسولي/ للمؤلف هيبوليتوس)/ The Apostolic Tradition of Hippolytus / والكتاب مؤلف سنة 217 ميلادية وترجمه الى الانجليزية دوم جريجوري ديكس/ Dom Gregory Dix.

12- استعمال الكنيسة للكتاب المقدّس/ The Church s Use of the Bible / من تأليف البروفيسور دينيس نينهام/ Denis Nineham.

13- تاريخ الكتاب المقدّس/ من إصدار جامعة كامبريدج/ The Cambridge History of the Bible.

14- التاريخ القديم لبريطانيا/ British Antiquity من تأليف تي دي كيندريك/ T. D. Kendrick.

15- علماء الانجليز بين 1660 و1730/ English Scholars / من تأليف دافيد دوجلاس David Douglas.

16- فيلوكاليا/ Philokalia مجموعة قيّمة من المقالات الصوفية/ طبعة كورينثوس وجبل آتوس/ Corinth and Mount Athos / فينيسيا سنة 1782.

مصادر الفصل الثاني:

17- الأسطورة والطقوس والملكية/ Myths, Rituals and Kingship / إس إتش هوك/ S. H. Hook / 1958.

18- دراسات في المَلَكية الالهية في الشرق الأدنى القديم/ Studies in Divine Kingship in the Ancient Near East / من تأليف إيفور انجنيل Ivor Engnell.

19- المتاهة/ the Labyrinth / من تأليف أوبري جونسون/ Aubrey Johnson.

20- الطقوس والعبادات الأساسية/ Basic Liturgy / مطبعة الايمان/ Faith Press / 1966.

21- مخطوطة من نهاية القرن السابع الميلادي بعنوان/ Missale Gallicanum Vetus / وتبدأ بقدّاس لعيد القدّيس جرمانوس الأوكسيري، ثم تأتي صلوات للعذارى والأرامل، ثم طقوس الاعداد لطقس المعمودية، وللاحتفال بالجمعة الكبيرة وبأحد عيد الفصح/ حقّقها إل اتش مولبرج/ L.H. Mohlberg وآخرون.

22- مخطوطة من القرن العاشر بعنوان / Liber Sacramentorum / حقّقها دوم ماريوس فيروتين/ Dom Marius Ferotin.

23- الجزء السابع من مجموعة الصلوات المجمّعة المعروفة باسم الدساتير الرسولية/ the Apostolic Constitutions.

24- بواسطة الضوء/ By Light / من تأليف إروين جودإناف/ Erwin Goodenough.

25- مصادر العقيدة المتعلقة بسقوط الانسان والخطيئة الأولى/ The Sources of the Doctrine of the fall and of original sin / للمؤلف دي موندي أوبيفيتشيو/ De Mundi Opificio.

26- كتاب أسرار إينوخ/ the Book of the Secrets of Enoch / مترجم عن اللغة السلافية بواسطة دبليو آر مورفيل/ W.R.Morfill.

27- ما هو فوق الطبيعي/ surnaturel / من تأليف هنري دي لوباك/ Henri de Lubac / 1946.

28- الوعظ الرسولي/ Apostolic Preaching / وهي مجموعة عظات ألقاها عدد من قدّيسي المسيحية مثل سانت ايرينايوس وسانت أوغسطين.

29- مدينة الرب/ the City of God / الجزءان 13 و14، يحكيان قصة آدم وحوّاء.

30- القديس أوغسطين والافلاطونية المسيحية/ St Augustine and Christian Platonism / محاضرة ألقيت في فيللانوفا بالولايات المتحدة/ بواسطة هيلاري أرمسترونج/ Hilary Armstrong.

مصادر الفصل الثالث

31- أفكار حول السقوط في الخطيئة الأولى/ Ideas of the Fall and the Original sin / للمؤلف إن بي ويليامز/ N.P.Williams / 1924.

32- خرافات اليهود/ Legends of the Jews / من تأليف لويز جينزبرج/ Louis Guinzberg.

33- الرب واللاوعي/ God and the Unconscious / من تأليف فيكتور وايت/ Victor White.

34- خرافة المسيح الضدّ/ the Anti-Christ Legend / تأليف ويليام بوسّيه/ William Bousset / 1895.

35- ضد الهرطقات/ Against Heresies / للقديس ايرينايوس/ St Irenaeus.

مصادر الفصل الرابع

36- أسطورة العودة الأزلية/ Myth of the Eternal Return / تأليف ميرسيا إلياد/ Mircea Eliade.

37- فصول ربيع الخلق/ the Springs of Creativity / تأليف هاينز ويستمان/ Heinz Westman.

38- يهْوَه وأرباب كنعان/ Yahweh and the Gods of Canaan / من تأليف دبليو إف أوالبرايت/ W.F.Albright.

39- فلسفة هيبوليت/ the Philosophy of Hippolytus / من القرن الثاني الميلادي.

4- التاريخ الكنسي/ Ecclesiastical history / تأليف يوسيفوس/ Eusibius / من القرن الرابع الميلادي.

41- باناريون من تأليف ايبيفانيوس/ Panarion of Epiphanius / الذي يعود تأليفه الى 375 ميلادية.

42- آباء الكنيسة من اليونان واللاتين/ Patrologia Greaco-Latina.

43- كتاب كهف الكنوز/ the Book of the Cave of Treasures / والنص الأصلي بالسيريانية من القرن السادس للميلادي/ من ترجمة السير والاس بادج/ Sir Wallis Budge / 1927.

44- كتاب النحلة/ the Book of the Bee.

45- الحوليّات (الأحوال السنوية)/ the Annals / من تأليف افتيخوس السكندري/ Eutychius

of Alexandria / المكتوب باللغة العربية والمنتهى من تأليفه سنة 937 ميلادية.

46- آثار المقتنيات المقدّسة/ Reliquiae Sacrae / من تأليف مارتين روث/ Martin Routh.

47- كتاب أسرار اينوخ/ the Book of the Secrets of Enoch / آر اتش تشارلز/ R.H.Charles.

48- التاريخ الخرافي للصليب/ the Legendary History of the Cross / من تأليف جون أشتون/ John Ashton.

49- الخرافة الذهبية/ the Golden Legend / من تأليف جاكوب فوراجين/ Jacob de Voragine.

50- دراسات حول البحث عن الكأس المقدّس/ Etudes sur la Queste del Saint Graal / الصادر في باريس 1921/ من تأليف ألبير بوفيليه/ Albert Pauphilet.

51- قاموس الآثار المسيحية وممارسات الطقوس/ Dictionnaire d archeologie chretienne et de liturgie / المعروف اختصارا بالحروف DACL.

مصادر الفصل الخامس

52- الأسفار المخفيّة عن كتاب العهد الجديد/ New Testament Apocrypha / التي حقّقها ونشرها دبليو شنيملشر/ W.Schneemelcher / وترجمها الى الانجليزية آر ويلسون/ R. Wilson -53 أقدم الأشكال المعروفة لكتاب ما قبل الانجيل من وضع جيمس – أو يعقوب - (وهو أخ غير شقيق ليسوع المسيح)/ La Forme la plus ancienne du Protevangile de Jacque / الذي حقّقه إميل سترايكر/ Emile de Strycker / والمطبوع في بروكسل سنة 1964.

54- وثائق طقس المعمودية/ Documents of the Baptismal Liturgy.

55- معمودية الفن/ the Baptism of Art / للمؤلف الروسي فلاديمير فيدليه/ Vladimir Weidle / صدر سنة 1949.

56- أوريجانوس/ Origen / من تأليف دانييلو/ Danielou.

57- القصة الرمزية والحدث/ Allegory and event / من تأليف آر بي سي هانسون/ R.P.C. Hanson.

58- فكرة التكفير عن الخطايا في علم اللاهوت المسيحي/ the Idea of Atonement in Christian Theology / من تأليف هاستينجز راشدال/ Hastings Rashdall / تحت عنوان (محاضرات بامبتون سنة 1915/ Bampton Lectures of 1915)/ والمطبوعة في ماكميلان سنة 1920/ Macmillan.

59- تاريخ عقيدة عمل المسيح/ the History of the Doctrine of the Work of Christ / تأليف آر إس فرانكس/ R.S. Franks.

60- أعظم الخطب الدينية/ the Great Catechetical Oration.

61- مدينة الرب/ City of God / للقديس أوغسطين/ St Augustine.

62- لماذا تحوّل الرب الى انسان/ Why God was made man / باللاتينية Cur Deus Homo / للقديس آنسلم/ St Anselm / المتوفي سنة 1112.

مصادر الفصل السادس

62- الأناجيل القبطية المخفية/ Coptic Apocryphal Gospels / حقّقها فوربز روبنسون/ Forbes Robinson.

63- التاريخ السرياني للعذراء المباركة مريم/ Syriac History of the Blessed Virgin Mary / حقّقه وطبعه سير واليس بادج/ Wallis Budge.

64- بردية بودمر/ Papyrus Bodmer / حققها إميل سترايكر/ Emile Stryker.

65- القديس متى وسكان اقليم غلاطية/ St Matthew and the Galatians / من تأليف ثيوفيلاكت البلغاري/ Theophylact of Bulgaria.

66- دورية الكنائس الشرقية الربع سنوية/ Eastern Churches Quarterly / المجلد العاشر سنة 1954.

67- دراسة في أصول الأيقونات المسيحية/ Christian Iconography, a study of its origins / تأليف أندريه جرابار/ Andre Grabar.

مصادر الفصل السابع

68- أصول تقديس الشهداء/ Les Origines du culte des martyrs / للأب هيبوليت ديلاهاي/ Hippolyte Delahaye.

69- الآباء الروحيّون/ Patrum Spirituale / تأليف جون موسكوس/ John Moschus.

70- الدراسات البيزنطية ومقالات أخرى/ Byzantine Studies and other Essays / نورمان بينز/ / Norman Baynes 1947.

71- نزهات انجليزية/ English Picnics / جورجينا باتيسكومب/ Georgina Battiscombe

72- تطوّر خرافة الكأس المقدّسة/ The Evolution of the Grail Legend / دي دي آر أوين/ D.D.R. Owen.

73- الدراسات الفرنسيسكانية/ Franciscan Studies / تأليف اس جي بي فان دايك/ S.J.P. Van Dijk / سنة 1949.

74- أصول الممارسات الطقسية الحديثة في كنيسة روما/ / The Origins of the Modern Roman Liturgy فان دايك وهازلدن ووكر/ Hazelden Walker.

مصادر الفصل الثامن

75- نهاية العالم وفقا للقديس بطرس/ Apocalypse of St Peter.

76- فيما يتعلق بالقوى السماوية/ on the Celestial powers / تأليف جورج فيدوتوف/ George Fedotoff.

77- الذهنية الدينية الروسية/ the Russian Relegious Mind / تأليف جورج فيدوتوف.

78- أعداد من مجلة الكنائس الشرقية/ / Eastern Churches Review 1976.

79- الحوارات/ the Dialogues / للبابا جريجوري/ Pope Grigory / الكتاب الرابع.

80- تاريخ الكنيسة في انجلترا/ Church History in England / تأليف بيد/ Bede.

81- حيوات القدّيسين/ Lives of the Saints / تأليف جي إف ويب/ J.F. Webb / طبعة البنجوين/ Penguin Books / سنة 1965.

82- جريدة الدراسات اللاهوتية/ the Journal of Theological S tudies / أعداد سنة 1921/ مقالات جون سيمور/ John Seymour.

83- مطهر القدّيس باتريك/ St Patrick s Purgatory / تأليف توماس رايت/ Thomas Wright.

84- الأساطير الغريبة في العصور الوسطى/ Curious Myths of the Middle Ages / تأليف إس بارينج جولد/ S. Baring-Gould.

مصادر الفصل التاسع

85- الأناجيل العارية/ the Naked Gospels / تأليف أرثر بيري/ Arthur Bury.

86- حزب الكنيسة العالية بين 1688 و1718/ the High Church Party / تأليف جورج إفري/ George Every.

87- الطوبوغرافية المسيحية/ Christian Topography / تأليف كوزماس إنديكوبلوستوس/ Cosmas Indicopleustes.

المحتويات

Notes

[←1]

الأسطورة myth: الكلمة من أصل لاتيني، وتعني نص أو قراءة، اشارة الى أن أسلوب انتشار الأسطورة كان في الغالب هو وجودها داخل نصوص مكتوبة، لها طابع ديني، بحيث تتكرر القراءة في المناسبات الدينية المتكررة خلال العام، أو أن يقرأ النص مرة واحدة في العام، ولكن عبر قرون طويلة. والكلمة تعني حاليا قصة خيالية، ترتبط بشخصيات ذات أهمية في الديانات المختلفة، خاصة الديانات البدائية، وتتمَثَّل فيها ظواهر الطبيعة في تجسيدات ساذجة، في محاولة لتفسير هذه الظواهر، مثلما فعل المصريون القدماء، مع ظاهرة الشمس التي تشرق من جهة لتقطع السماء ثم تغرب في الجهة المقابلة، فاخترعوا قصة اله الشمس الذي يبحر في مركبه من الشرق الى الغرب كل يوم في بحر السماء، أمّا أثناء ساعات الليل، فيكون اله الشمس مشغولا بعبور عالم الظلمات، في باطن الأرض، من الغرب الى الشرق. وقد كتبت هذه الأسطورة وسجلت على حوائط حجرات دفن ملوك مصر الفرعونية، بداية من الأسرة الخامسة، أي حوالي القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، ثم سجلت على لفائف ورق البردي خلال العصور التالية. والأسطورة لا ترتكز في الأساس على حدث تاريخي، بل هي غالبا تقع خارج الإطار الزمني، أو فيما وراء الزمن out of time أو timeless.

وقد جاء في معجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إن الأساطير هي الأباطيل والأحاديث العجيبة، وفي التنزيل العزيز (إن هذا الا أساطير الأولين). وجاء في لسان العرب لابن منظور أن الأساطير هي الأباطيل، وهي أحاديث لا نظام لها، واحدتها أسطورة بضم الهمزة. وجاء أيضا أن أساطير الأولين، هي ما سطره الأوّلون، أي ما كتبوه في شكل سطور ودوّنوه، من أحداث غالبا ما تكون خارقة للعادة. وما أشبه كلمة أسطورة بكلمة هيستوريا اليونانية التي تستعمل كأصل لغوي لكلمة تاريخ في اللغات اللاتينية والأنجلوساكسونية، فهي في الانجليزية history وفي الفرنسية hitoire، وتدل هذه الكلمة في بعض هذه اللغات على معنى القصة المرويّة.

[←2]

رغم الاختلاط الواضح في المعنى الوارد في المعاجم والمراجع المختلفة، بين هذه :legend الخرافة فالخرافة هي الأخرى قصة خيالية، ولكنها غالبا لا ،myth وبين كلمة أسطورة ،legend الكلمة خرافة تتعلق بأحد الأرباب، بل تتعلق بشخص تاريخي، في زمن محدّد، أحد القديسين مثلا أو الأنبياء، الذي كان معروفا كشخصية تاريخية، أي أنه كان موجودا في مكان محدد خلال زمان محدد، أو أن تكون هناك من الأدلة والوثائق ما يكفي للاستدلال على حقيقة وجوده، ولكن تضيف اليه الخرافة بعض القدرات الخاصة، مثلا قد يستطيع أن يطير في الهواء أو أن يمشي على الماء. وأصل الكلمة في اللغة وهو فعل القراءة، إشارة الى الأسلوب المتبع حتى الآن، ،legere مأخوذ من الفعل ،legenda اللاتينية في أغلب كنائس العالم، من قراءة فقرات تتعلق بقصة حياة قديس أو قديسة، ويسمى قديس اليوم أو قديسة اليوم، حيث إنه تم توزيع أيام العام في الكنائس الكاثوليكية، على عدد 366 قديسا وقديسة، فهناك يوم لكل قديس، أو قديس لكل يوم، جابرييل أو جيروم أو كاترين أو كلير، وتقرأ هذه القراءات الخاصة بالقدّيسين والقدّيسات، أثناء الاحتفال الأسبوعي بطقوس القداسات الكنسية، وهو ما سمح عبر القرون، باضافة أفعال معجزية الى حيوات أولئك القديسين والقديسات، لخلق التأثير المطلوب في جمهور تلك الكنائس، الذي يحضر تلك الطقوس.

[←3]

كان الشعر في كل الحضارات القديمة، لسهولة حفظه شفهيا، هو الأسلوب الأمثل في :poetry الشعر تسجيل أخبار الأبطال في الحروب وفي المعارك القتالية، وذلك قبل اختراع الطباعة، وأساليب التسجيل الأخرى المعروفة في العصور الحديثة، فنجد مثلا أن أشعار هوميروس في الالياذة والأوديسا، تتحدث عن أبطال المعارك التي خاضتها اليونان القديمة، في الفترة السابقة على القرن الثامن قبل الميلاد.

[←4]

أسرار الكنيسة: مثل سر التناول communion من قربان جسد ودم يسوع المسيح، وهو طقس يمارس في نهاية قداسات الأحد في الكنائس الكاثوليكية الغربية، وكذلك في الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، وهو الطقس الذي يتحوّل خلاله الخبز والنبيذ (غير المتخمّر) الى جسد ودم يسوع المسيح، وهذا الطقس يسمح للمؤمن بالاتحاد بطريقة معجزية (سرية) بجسد ودم يسوع المسيح. وقد مارس المسيح نفسه هذا الطقس، حسب ما جاء في الأناجيل المختلفة، في العشاء الأخير له مع حوارييه الاثني عشر، ليلة القبض عليه وسجنه وجلده وصلبه.

[←5]

حركة الاصلاح البروتستانتي Reformation: هي حركة قام بها عدد من القسس الأوروبيين، في النصف الأول من القرن السادس عشر، من أمثال مارتن لوثر وكالفن، وعرفت فيما بعد حركتاهما باسميهما، اللوثيرة والكالفينية، وعرفتا اجمالا مع غيرهما من الحركات الاصلاحية المتمردة على نفوذ وفساد باباوات روما، باسم الكنيسة المحتجّة (أي البروتستانتية protestant).

[←6]

كشفت علوم دراسات الانسان والسلالات البشرية :modern savages البدائيون المعاصرون (الأنثروبولوجي)، وكذلك كتابات الرحالة الجغرافيين، أن هناك بعض القبائل البدائية، كانت لا تزال حتى القرن العشرين، تعيش في عزلة تامة عن العالم المعاصر وانجازاته العلمية، مثل تلك القبائل التي لا تزال تعيش في حوض نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية، وكذلك في بعض غابات أفريقيا.

[←7]

كانت ظاهرة الارتباطات العائلية وفقا لنظام القبيلة أكثر أهمية في :extended family العائلة الممتدّة العصور القديمة والوسطى، منها في العصور الحديثة، وذلك حين سمحت سهولة التنقل بتفكيك تلك الظاهرة. ومع ذلك مازال يمكننا أن نلاحظ وجود هذه العائلات الممتدّة، التي يرتبط عدد كبير من أفرادها ببعضهم البعض، في عصرنا الحديث أوائل القرن الواحد والعشرين، في بعض المجتمعات المتماسكة، فنجد مثلا خمسين فردا منهم مجتمعين حول مناسبة ما، مثل حفلات الزواج أو مناسبات مولد الأطفال، لذبح حيوان كالخروف في قبائل البدو في صحراء سيناء، أو كالعجل في المناطق الريفية بدلتا النيل.

[←8]

هو الاسم الذي يُطلق في القبائل البدائية، على رجال القبيلة الذين يمارسون مهنة :shaman الشامان أي الذي يستطيع أن يدل أفراد القبيلة على المستقبل، ،(fortune teller قراءة المستقبل (العرّاف وكذلك مهنة الساحر أو المعالج الروحي، وهو الشخص الذي غالبا ما يستعمل السحر في علاج بعض أو الكلمات ذات الايحاء القوي، ويمكنه كذلك spells الأمراض، بواسطة النطق ببعض التعاويذ استعمال بعض الوصفات الطبية من الأعشاب ومن أجزاء معينة في أجسام بعض الحيوانات. في مصر القديمة نجد وصفات طبية تستعمل مسحوق جلود بعض الحيوانات. وفي بعض قبائل آسيا كان أو الوخز acupressure الشامان يستعمل طريقة الضغط والتدليك لبعض نقاط معينة في الجسم .في علاج بعض الآلام acupuncture بالإبر لهذه النقاط

[←9]

أستاذ تاريخ الديانات في جامعة شيكاجو، من أصول رومانية، عاش في :MirceaEliade ميرسيا إلياد
أمريكا وحصل على جنسية الولايات المتحدة، وكانت حياته بين 1907 و1986.

[←10]

يمكن في هذا الصدد ذكر عشرات الأمثلة المتعلقة بقدرة الكهنة على إحداث التغيير السياسي المطلوب، بالاتفاق المدفوع الثمن مع صاحب المصلحة في التغيير، ومن أهم تلك القصص ما حدث من كهنة آمون في معابد الكرنك بطيبة (الأقصر)، قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة، أي حوالي نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حين توقف موكب تمثال الاله آمون أمام القائد العسكري حورمحب، وقيل للشعب إن هذا التوقف أمام هذا القائد، هو الدليل على رغبة آمون في اعتلاء حورمحب عرش البلاد.

[←11]
هي نصوص مقدّسة تعتبر في الهند المرجع الأقدم المؤسس للديانة :(Vedas الفيدا (أو الفيداس sacerdotal، البراهمانية، وهي عبارة عن مجموعات من الترانيم الدينية، والتلاوات الطقسية الكهنوتية المكتوبة باللغة السنسكريتية، ويمكن تقسيمها الى أربع مجموعات: ريجيفيدا/ سمافيد/ ياجورفيدا/ آثارفيدا. أما الأوبانيشاد Upanishad: فهي نصوص يمكن اعتبارها الجزء الأكثر غموضا في الفيدا، وهي مجهولة المؤلّف ومكتوبة كذلك باللغة السنسكريتية، وغير محدّدة التاريخ بدقّة، أقدمها قد يعود الى حوالي سنة 500 ق. م.، بعضها نثري، وبعضها الآخر شعري، وهي نصوص ذات أطوال متباينة.

[←12]

هو الأحد السابع بعد الأحد الخاص بعيد قيامة المسيح والصعود الى :Whit Sunday عيد العُنْصُرة وفي العنصرة تهبط الروح ،Easter السماء، أي 49 يوما بالتحديد، وهي المناسبة التي تسمّى بالانجليزية الحواريين) الاثني عشر مجتمعين معا، مختفين من) apostles القدس من السماء لتحلّ على الرسل السلطات الرومانية خوفا من القتل أو من الاضطهاد، فتأتي روح القدّوس وتظهر لهم لتعضّدهم.

[←13]

طقس المعمودية baptism: هو الطقس الذي يشير الى الميلاد الثاني الجديد للطفل، من الماء والروح القدس، بعد ميلاده الأول الجسدي من أبيه وأمه، وهو الطقس التقليدي المتبّع في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولكنه غير متبّع في الكنيسة البروتستانتية، وتتم ممارسته بواسطة تغطيس الطفل ثلاث مرات في الماء، اشارة الى قضاء يسوع المسيح ثلاث ليال في القبر قبل قيامته من الأموات، وميلاده الثاني الجديد، كما أنه إشارة الى زيارة يسوع المسيح ليوحنا المعمدان (النبي يحيى) في نهر الأردن، في بداية بعثته التي لم تدم الا ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وعندما نزل المسيح الى مياه النهر نزلت عليه الروح القدس من السماء في شكل حمامة.

[←14]
لدى الطوائف المسيحية، الى عهد Bible ينقسم الكتاب المقدّس :New Testament العهد الجديد في جوهره هو الأسفار الخمسة الأولى من توراة Old Testament قديم وعهد جديد. العهد القديم موسى، التكوين/ والخروج/ والتثنية/ والعدد/ واللاوين، ثم تأتي أخبار ملوك بني اسرائيل، وأخبار نبوّات أنبياء بني اسرائيل. أما العهد الجديد فهو الأناجيل الأربعة لمتّى/ ومرقُس/ ولوقا/ ويوحنا، التي تخبر بميلاد وحياة يسوع المسيح، بالاضافة الى أعمال الرسل خلال السنوات الأولى للكنيسة، والرسائل التي أرسلها تلاميذ المسيح وحواريوه، الى شعوب العالم خلال القرن الأول الميلادي، لابلاغهم بخبر وصول المسيح.

[←15]

قصة التجلّي Transfiguration: وهو قصة روتها الأناجيل، عن ظهور السيد المسيح فوق قمّة جبل، واقف يتكلم مع اثنين من أنبياء العهد القديم، هما موسى وايليا، وقد أحاطت هالات من نور برؤوسهم، بالطريقة المعتادة في التقاليد والمعتقدات المسيحية عند تصوير شخصيات مقدّسة. وكان ثلاثة من حوارييه في انتظاره بالقرب منه، فلمّا رأوه مع النبييّن، ذهبوا اليه سائلين: أنصنع لكم مظلّة تحميكم من الشمس؟ فأتت على الفور سحابة واستقرّت فوق رؤوسهم وظلّلتهم. ولكن لم يذكر أيٌّ من الأناجيل الأربعة الموضوع الذي كان الأنبياء الثلاثة يتحدّثون فيه.

[←16]

الشخصيّة التاريخيّة historical personality: هو الشخص الذي ذكرته مصادر تاريخية، مثل كتابات المؤرّخين والرحّالة القدامى، على أنه شخصٌ كان موجودا فعلا في الواقع المعاش، ولم يكن فقط مجرّد شخصية أسطورية أو دينية، لم يرد ذكرها الا في أسطورة أو في كتاب مقدّس لواحدة من الديانات. كما أنه يمكن في العصر الحديث الاستفادة من علوم الآثار القديمة archeology، في العثور على دلائل مادية تثبت وجود الشخصية التاريخية، كأن يكون مرسوما أو منحوتا بشكله وباسمه على حائط قديم، أو على عملة نقدية أو قطعة من الحليّ.

[←17]

الناموس: هي كلمة موجودة في معاجم اللغة العربية كمرادف لكلمة القانون، خاصة فيما يتعلق بقوانين الحضارات القديمة، وقد استعملت كلمة الناموس في الترجمة العربية للتوراة عند الاشارة الى القانون الذي تسلّمه النبيّ موسى من الله (الناموس لموسى أُعْطى). ويعتقد بعض علماء المصريات Egyptology في مصر القديمة تستعمل للاشارة الى (nemes أن الأصل في هذه الكلمة هو كلمة (نِمِس الفرعون، لأنها الكلمة الدالة على غطاء الرأس الملكي.

[←18]

يقول سفر التثنية، وهو ثالث أسفار التوراة، في الاصحاح رقم 34، في الأعداد 1 :Pisgah رأس فسجة
و3 و6 و7، أي في الآيات التي تحمل هذه الأرقام (إنه يوم وفاة نبي الله موسى، صعد الى رأس فسجة،
فأراه الرب جميع الأرض، من جلعاد الى دان، وأرض افرايم، وجميع أرض يهوذا الى البحر الغربي، ثم
مات ودفنه الرب بنفسه في أرض موآب، ولم يعرف انسان موقع قبره الى الآن).

[←19]

يقول سفر الملوك الثاني اصحاح رقم 2، الأعداد من 1 الى :chariot of fire عجلة حربية نارية (في نهاية أيامه ذهب ايليا الى نهر الأردن، مع النبي ايليشع، وضرب ايليا النهر بردائه فانشق الماء، فسار النبيّان على اليابسة، ثم جاءت من السماء، مركبة حربية من نار، ومعها فرسان من نار، وحملت ايليا الى السماء).

[←20]

سفر أعمال الرسل: هو أحد أسفار العهد الجديد، وغالبا سيكون من كتبه هو لوقا الطبيب وأحد كتبة الأناجيل الأربعة، وفيه وصف تفصيلي للفترة الحرجة التي تلت موت يسوع المسيح، والأحداث التي وقعت خلال الأيام والأسابيع الأولى من اجتماع الحواريين معا مختبئين بسبب خوفهم من الجنود الرومان، الى ظهور جسد يسوع المسيح لهم يوم العُنْصُرة، ثم بداية تحرّكهم وسط الجموع، وبداية دعوتهم يهود فلسطين الى الايمان بالنبوّة الجديدة. تأتي بعد ذلك أخبار رحلات الحواريين الى الدول والشعوب المجاورة لابلاغهم بنبأ حياة وممات يسوع المسيح، من سواحل تركيا الحالية التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية، وصولا في النهاية الى روما نفسها.

[←21]

العشاء الأخير: هو العشاء الذي جمع لآخر مرة بين يسوع المسيح وحوارييه الاثني عشر، مساء يوم الخميس، ليلة جمعة القبض عليه بتهمة التجديف واثارة الجماهير، ومحاكمته المتعجّلة وصلبه، وفي أثناء ذلك العشاء قام المسيح بتقسيم رغيف خبز الى اثني عشر جزءً، وبتوزيع الأجزاء على الحواريين، ثم قام بتوزيع كأس نبيذ غير مسكر عليهم جميعا، بحيث شرب كل منهم جرعة صغيرة، مؤسسا بذلك ما عرف لاحقا في القدّاس الكنسي، بطقس اقتسام جسد المسيح ودمه، المعروف اختصارا بطقس التناول. بعد ذلك مباشرة طلب المسيح من يهوذا الاسخريوطي أن يغادر مائدة العشاء لأنه كان يعرف مسبّقا أن يهوذا خائن، وأنه سيسلّمه الى الكهنة مقابل ثلاثين من العملة الفضّية المستعملة في ذلك الزمان.

[←22]

القدّيس بولس: لم يكن بولس من بين حواريي المسيح الاثني عشر، ولا حتى كان من بين تلاميذه السبعين، الذين أحاطوا بالمسيح في عامه الأخير، بل كان اسمه شاول الطرسوسي، وكان من بين مضطهدي المسيح وأتباعه، ولم يؤمن به الا بعد وفاته. وفي سفر أعمال الرسل، هناك وصف تفصيلي لأعمال الاضطهاد التي قام بها ضد جماعة المسيح، وكيف أنه آمن بالمسيحية بعد ظهور رؤيا سماوية له.

[←23]
رسائل القدّيس بولس: عندما كان هذا القدّيس يخطّط للسفر الى مدينة ما، مثل أنطاكية أو أفسس أو روما أو غلاطية، كان يكتب أولا رسالة الى من يعرفهم فيها من المؤمنين الجدد بالمسيحية، من المقيمين هناك، ليخبرهم بنبأ استعداده للسفر الى تلك المدينة، حتى تكون تلك الجماعة المؤمنة في استقباله عند وصوله، خاصة بعد أن كان السن قد تقدّم بهذا القدّيس، وبغرض توفير مكان لاقامته، ولحمايته من احتمالات إعتداء الجنود الرومان عليه. كما أنه قد كتب بعض الرسائل الى مدن لم يسافر اليها. لاحقا تم جمع هذه الرسائل واضافتها الى أسفار الأناجيل الأربعة، ومعها سفر أعمال الرسل.

[←24]

النسخة السبعينية للعهد القديم: قام بطلميوس Ptolemaios الثاني ملك مصر البطلمي حوالي سنة 28 قبل الميلاد، بدعوة سبعين عالما يهوديا الى مكتبة الاسكندرية، ليقوموا بترجمة نصوص التوراة، من العبرية القديمة الى اليونانية، التي كانت بمثابة اللغة العالمية في ذلك الوقت، المقابل الموضوعي للغة الانجليزية في عالمنا المعاصر. ظهرت فيما بعد خلال القرون التالية، احتجاجات من بعض علماء وحكماء اليهود، الذين قالوا إن الكلمات اليونانية كانت تعجز أحيانا عن التعبير عن بعض الموضوعات المكتوبة بالعبرية القديمة.

[←25]

عاش الشعب اليهودي على أرض فلسطين منذ خروج بني :dispersion/ diaspora الشتات اليهودي اسرائيل من أرض مصر مع النبي موسى، في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، غالبا على زمن الملك مرنبتاح، ابن الملك رمسيس الثاني ووريثه على عرش مصر، وأحد ملوك الأسرة التاسعة عشر المصرية. أسس اليهود دولتهم على أرض فلسطين، وهي الدولة التي شاهدت ملوكا عظاما في القرن العاشر قبل الميلاد، مثل الملكين النبيين داوود وابنه سليمان. ثم تعرّض شعب اسرائيل في القرن السادس قبل الميلاد للسبي البابلي، وللتدمير الأول لمدينتهم أورشليم ولمعبد ملكهم النبي سليمان. وقد قادهم الملك البابلي (نبوخذ نصّر) الى الأسر في بابل، ولم يعودوا الى فلسطين الا بعد ثلاثة قرون، حيث بقوا فيها من جديد أربعة قرون تقريبا، حتى التدمير الثاني لأورشليم ولمعبد الملك سليمان سنة 70 ميلادية. وبالتالي فمنذ نهايات القرن الأول للميلاد، وحتى إنشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين، في منتصف القرن العشرين، ظل الشعب اليهودي في شتات لمدة تقترب من ثمانية عشر قرنا من الزمان، إذ تفرّقوا في بلاد العالم كله، بين العراق ومصر وبلاد المغرب العربي وأوروبا الشرقية والغربية، ثم الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يجتمع شملهم من جديد، الا بتأسيس دولة اسرائيل سنة 1948.

[←26]

وكنائس شرق catholic طبيعة يسوع المسيح: كان الخلاف الرئيسي بين كنيسة روما الكاثوليكية قد نشأ منذ القرن الرابع الميلادي، في المجامع ،orthodox حوض البحر المتوسط الأرثوذكسية المسكونية المتتالية، أي المجامع التي جمعت كل شعوب المسكونة، أي كل شعوب الأرض، كان الخلاف حول مسألة طبيعة المسيح، وهل كانت طبيعة واحدة (باللاتينية مونو فيزيت monophysite/ monophysitic/ monophysitism) يختلط فيها العنصر الالهي بالعنصر البشري في طبيعة جديدة، وهو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية، أم كان المسيح ذا طبيعتين لا تختلطان، احداهما بشرية تعرّضت للتعذيب والصلب، والأخرى الهية قامت من الأموات وصعدت الى السماء، وهو مذهب الكنيسة الكاثوليكية. ثم جاءت الكنيسة البروتستانتية Protestantism لتحتج على الكنيستين الأخريين معا.

[←27]

تلاميذ يسوع المسيح: من المعروف أن بعثة المسيح لم تستمر لأكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، بين عامه الثلاثين وعامه الثالث والثلاثين، ومن المعروف كذلك أنه كان قد اختار في بداية تلك السنوات الثلاث، اثني عشر رجلا رسولا apostles، من كتبة الرسائل epistles، سمّوا فيما بعد الحواريون، لأنهم كانوا يجرون معه الحوار الدائم بغرض التعلّم منه، وبغرض سؤاله في كل ما يعنّ لهم من مسائل. هؤلاء معروفون للجميع بكل تفاصيل حياتهم، والمهن التي كانوا يمارسونها قبل اختيارهم حواريين أو رسلا، وكان عددٌ كبيرٌ منهم من بين صائدي الأسماك في بحيرة طبرية. الا أن يسوع المسيح قرب نهاية تلك السنوات الثلاث اختار سبعين آخرين، من بين التلاميذ disciples الذين كانوا يتبعونه منذ بعض الوقت، ليرسلهم في شكل ثنائيّات، الى القرى والمدن القريبة، لابلاغ الناس بأخبار بعثته ودعوته. هؤلاء غير معروفين كلهم.

[←28]

القديس بطرس: كان شابا قويا أكبر من يسوع ببضعة أعوام، يعمل صائدا للسمك في بحيرة طبرية عندما دعاه يسوع المسيح اليه ترك كل شيء وتبعه. خلال سنوات .Simon واسمه الأصلي سمعان البعثة الثلاث كان من أقرب حواريي يسوع الى قلبه. طلب منه يسوع قرب النهاية أن يكون أول من Petros يؤسس كنيسة في أورشليم. أطلق عليه اسم بطرس وهو غير اسمه الأصلي، وذلك لأن بطرس باليونانية تعني الصخرة الصلبة التي سيؤسس عليها الكنيسة. مع ذلك فعند القاء القبض على يسوع في خميس العهد، تبعه بطرس من على بعد، متخفيا عن العيون حتى لا يراه أحد، وأنكر علنا تبعيّته له ثلاث مرات، خوفا من أن يلقوا القبض عليه هو أيضا. كرّس بقية حياته، أكثر من ثلاثين عاما، لنقل أخبار البشارة الى الشعوب المختلفة، ومات مصلوبا في روما حوالي سنة 68 ميلادية.

[←29]

اللفظ مشتق من اللاتينية ويعني الفلسفة المدرسية، وهي :scholasticus الفلسفة السكولاستية الفلسفة التي كانت سائدة في أيديولوجية المجتمع الاقطاعي بأوروبا الغربية، خلال القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، بين القرنين الخامس والخامس عشر الميلاديين. وكان السكولاستيون يرون في الدفاع عن الديانة المسيحية هدفهم الرئيسي. ولم تكن السكولاستية متجانسة فكريا، ولكن المثالية كانت المسحة الغالبة عليها. وقد ارتكزت المذاهب السكولاستية على أفكار الفلسفة اليونانية (أفلاطون وأرسطو خاصة فيما يتعلق بمفهومهما لما تعنيه عبارة ما وراء الطبيعة)، والفلسفة العربية الاسلامية (ابن سينا وابن رشد)، المؤوّلة بروح المسيحية. لقيت السكولاستية صياغتها المتكاملة في أعمال توماس الأقويني. وقد تمحورت اهتمامات السكولاستيين حول مشكلة العلاقة بين الايمان والمعرفة، أي بين الدين والعقل، فنشبت بينهم خلافات حول امكانية اثبات العقائد الدينية عن طريق العقل. وكان الارتباط الوثيق بالدين، وراء ايغال المذاهب السكولاستية في التجريد، وابتعادها عن الحياة الواقعية، فصارت السكولاستية مرادفا للتنظير الجاف العقيم، والتمسّك الشديد بالتعاليم والتقاليد الخاصة بها.

[←30]

أو الأشياء المرتبطة ارتباطا وثيقا بحياته أو بموته، مثل :relics المقتنيات الشخصية لأحد القدّيسين المنديل الذي أشيع أنه يحمل ملامح وجه يسوع المسيح، وهو يمشي بصليبه على كتفه يوم موته، أو الأجزاء الخشبية من هذا الصليب. كما تحتفل الكنيسة القبطية مثلا بأجزاء من الأكفان الخاصة بقدّيسيها، التي قد تتحلّل بسبب القِدَم، فتقوم الكنائس بتوزيعها في شكل نتف قماشية متناهية الضآلة، ملتصقة على قطع من الورق المقوّى، وتوزّع على آلاف المؤمنين كمصدر للبركة، ويسمّونها حنوطا.

[←31]

التقليد الرسولي apostolic: هو فيما يتعلق بنصوص الكتاب المقدّس، التقليد الذي وضعه واتّبعه الرسل حواريو المسيح الاثنا عشر، في القرن الأول الميلادي، الخاص بتفسير محدّد لبعض النصوص والطقوس والمفاهيم، واستمر العمل به في كل الكنائس، حتى جاءت حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر الميلادي، فتوقّف العمل به في الكنيسة البروتستانتية وحدها، لكن استمر العمل به فيما عداها من كنائس.

[←32]

بروتوس Brutus: يعتقد أنه قد يكون معاصرا للنبي ايليا في اسرائيل، أي القرن السابع قبل الميلاد، وأنه إحدى الشخصيات الأسطورية الذائعة الصيت في حروب طروادة، التي كتب عنها الشاعر الاغريقي هوميروس أعماله المعروفة باسم الالياذة والأوديسا. ويختلف المؤرخون في تقدير الزمن الذي عاش فيه هوميروس، فبعضهم يضعه في زمن حروب طروادة أي حوالي القرن 12 قبل الميلاد، وبعضهم يضعه في القرن السابع قبل الميلاد. يُعتقد أن بروتوس قتل والده عن طريق الخطأ، فهرب بمركبه من الجزر اليونانية الى ايطاليا، ثم الى سواحل فرنسا القديمة، ولا تذكر الأسطورة دورانه حول شبه جزيرة أيبيريا، وبالتالي ربّما يكون قد عبر بلاد الجال (فرنسا الحالية)، من شواطئها الواقعة على البحر المتوسّط، الى شواطئها الواقعة على المحيط الهادئ، ثم أخذ مركبا من جديد، رست به عند توتنس في الجزيرة التي ستحمل اسمه، إذ يُعتقد حسب نفس تلك الأسطورة أن كلمة بريطانيا مشتقة من اسم بروتوس. يستقر فيها ويبدأ في عمرانها بذريّته.

وكان تاريخ بريطانيا القديم حتى القرن السابع عشر، يجعل من بين ذرّيته ملوكا معروفين مثل الملك لير Lear، الذي كتب عنه شيكسبير احدى مسرحياته، وكذلك الملك أرثر Arthur، صاحب فكرة فرسان المائدة المستديرة.

[←33]

الشاعر ميلتون: جون ميلتون (1608/ 1674)، يعتبر واحدا من أعظم الشعراء الانجليز، ومن أشهر أعماله (الفردوس المفقود Paradise lost)، وكان معاصرا للسياسي ورجل الحرب البريطاني أوليفر كروموبل، وكذلك كان معاصرا لتوماس مور مؤلف (يوتوبيا/ المدينة الفاضلة)، في تلك الفترة من التاريخ البريطاني التي حدثت فيها مواجهات دامية بين الكنيسة البروتستانتية الاصلاحية الوليدة، والكنيسة الكاثوليكية البابوية التليدة، خاصة في أيرلندا بين شمالها الذي تحوّل الى البروتستانتية، وانضم لاحقا الى المملكة المتحدة، وجنوبها الذي استمر على كاثوليكيته. كانت انجلترا قد تحوّلت مبكرا جدا من الكاثوليكية الى البروتستانتية، حوالي سنة 1534 على زمن الملك هنري الثامن، الذي أراد تطليق زوجته الأولى للزواج من زوجته الثانية، وكانت الكنيسة البروتستنتية الوليدة، هي الوحيدة بين كل كنائس العالم التي تبيح الطلاق.

[←34]

الكأس المقدّس the holy grail: هو كأس ظهر في الأساطير الاغريقية القديمة مرتبطا بقصة طروادة، التي حكاها هوميروس في أشعاره، ثم عاد الى الظهور في الأساطير المسيحية الأوروبية منذ القرن الثاني عشر الميلادي، ليشير هذه المرة الى الكأس الذي استعمله يسوع المسيح في طقس التناول من جسده ودمه، الذي أسّسه يوم خميس العهد ليلة القبض عليه وموته. وقد استعمل هذا الكأس لاحقا في أشكال فنية مختلفة، منها لوحات حائطية على جدران كنائس أوروبا في العصور الوسطى، وقطع من القماش المطرّز المعروضة حاليا في متاحف أوروبا، للاشارة الى دم المسيح.

[←35]

المقصود هنا هو أن الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة، كانوا يرون تفاصيل وجوه الشخصيات وواجهات المباني وألوان الطبيعة، بعيونهم البشرية، التي قد لا ترى كل عينين منها لشخص واحد، الا فقط أجزاء معيّنة من المنظر، ولا ترى منه أجزاء أخرى.

[←36]

جبل يقع في شبه جزيرة، تبلغ مساحتها الكلية حوالي 335 كيلومترا :Mount Athos جبل آتوس مربعا، بطول يصل الى حوالي 50 كيلومترا، ومتوسّط عرض حوالي سبعة كيلومترات، داخل بحر ايجة، طوبوغرافيا يتميز الجبل بوجود منحدرات حادة عليه، ويصل ارتفاع أعلى قممه الى ألفي متر، وتتميّز المنطقة البحرية المحيطة بشبه الجزيرة بوجود صخور كثيفة مرتفعة داخل مياه البحر، مما يمنع وصول السفن اليه، وهو ما يزيد من حصانة موقعه. أما جغرافيا فتقع شبه الجزيرة بالجزء الشمالي الشرقي من دولة اليونان الحديثة. يسمّيه الشعب اليوناني في الوقت الحالي الجبل المقدّس، وذلك لوجود عشرين ديرا من أديرة الكنيسة الأرثوذكسية عليه، ومن الجدير بالذكر أن عصور بناء هذه الأديرة، تغطّي كل التاريخ المسيحي، فأقدمها يعود الى العصر البيزنطي، الذي يبدأ بتحويل بيزنطة الى عاصمة لدولة الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الرابع الميلادي، في حين أن أحدثها يعود الى العصر الحديث.

[←37]

سفر رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي the Revelation of saint John: هو السفر المعروف كذلك باسم سفر كشف الحجاب عن القديس يوحنا اللاهوتي، الا أن أشهر أسماء هذا السفر هو (سفر نهاية العالم Apocalypse)، وفيه يحكي القديس يوحنا، وهو أحد حواريي المسيح الاثني عشر، الرؤيا التي جاءته قرب نهاية حياته، وقد عاش حتى قارب المئة عام، وبها وصف تفصيلي لعلامات نهاية العالم. وليس بهذا السفر تفاصيل كثيرة عن العالم الآخر، أو عن الجنّة والنار. وقد ضُمّ هذا السفر الى العهد الجديد، وهو آخر أسفاره.

[←38]

الكلمة من أصل يوناني قديم، وقد استعملت منذ القرن الخامس :Apocryphal الأسفار الأبوكريفا الميلادي، في وصف الأسفار المخفّية، وأعاد الاصلاحي مارتن لوثر استعمالها في القرن السادس عشر الميلادي. سبب الإخفاء أنها كانت مشكوك في صحّتها. هذه الأسفار كانت موجودة في بعض النسخ القديمة من الكتاب المقدّس، في الجزء من الكتاب الذي يقع بين أسفار التوراة (العهد القديم) التي تسبقها، وأسفار الانجيل (العهد الجديد) التي تتبعها.

[←39]

الزيجّورات ziggurat: هي أبنية ذات أشكال هرمية، انتشرت في معابد بلاد الرافدين، وكتب هيرودوت أنها قد تكون بتأثير من الاتجّاه المصري في بناء أهرامات، وذلك رغم كون الأهرامات المصرية وقريناتها البابلية، تعود تقريبا الى نفس الفترة الزمنية، أي بين 3000 و2500 ق م، بالتالي أصبح من غير الممكن حاليا تحديد أيهما كان صاحب التأثير على الآخر. قيل كذلك أن الكلمة البابلية قد تكون مشتقة ومتحوّرة من كلمة سقّارة المصرية (زجّارة/ زيجّورة)، وهو موقع جبّانة الدولة المصرية القديمة، حيث يقع جغرافيا العدد الأكبر من الأهرامات المصرية. أو قد يكون العكس هو الصحيح. ويرجّح العلماء حاليا أن الكلمة كانت في الأصل أكّادية (بابلية) لأنهم قد اكتشفوا في اللغة الأكادية، أنها تعني (البناء فوق مكان مرتفع)، في حين أنه كان قد قيل في مصر القديمة، أن كلمة سقّارة قد اشتقت من كلمة (سوكر)، وهو الاله التمساح الذي كان أحد آلهة العالم السفلي في عصر الدولة المصرية الاقديمة. كما كان بعض الرحّالة العرب قد ذكروا أن أصل الكلمة قد يكون كلمة (صخر) العربية.

[←40]

عيد الفصح اليهودي: هو أهم أعياد الديانة اليهودية، الذي أصبح فيما بعد كذلك أهم أعياد الديانة المسيحية. في اليهودية هذا العيد يشير الى عبور شعب اسرائيل الماء هربا من فرعون مصر، ويشير كذلك الى بداية حياتهم الجديدة، أولا في بريّة سيماء، ثم ثانيا في بريّة أرض كنعان (فلسطين وإسرائيل). أما في المسيحية، فنفس هذا العيد يشير الى موت يسوع المسيح على الصليب، وبعثه بعد دفنه بثلاثة أيام، وهو الفعل الرمزي الذي يشير الى الخلاص من خطيئة بني البشر الأولى، خطيئة آدم وحواء، التي نتج عنها طردهم من الجنة، والحكم عليهم بالشقاء أبد الدهر، إذ قدم لهم فداء المسيح الأمل من جديد في الخلاص.

الكلمة في الأصل، وفي اللغة العبرية، وفي اللغات الهندأوروبية، واللاتينية واليونانية، هي البصخة، عيد البصخة المقدّس، والكلمة تشير الى عبور الماء، وفي اللاتينية هي pass + aqua، والكاف تتحول بسهولة الى خاء في تاريخ تطور الكلمات.

[←41]

والاسم يتكون من اسمي الهين من آلهة قدامى ،Hermaphrodite كائن ثنائي الجنس هرمافروديت الاغريق الأول ذكر وهو هرمس، والثانية أنثى وهي أفروديت. ومن المعروف أن من بين أرباب مصر القديمة كان واهب الحياة (حابي) اله النيل يعتبر هرمافروديت، ويصّور كثيرا في شكل رجل مكتمل النمو، بذراعين قويين، وساقين رياضيين، ولكنه بثديي أنثى، وببطن منتفخة بشكل يوحي بأنها بطن سيدة في نهاية الحمل، وعلى وشك أن تضع مولودها. ومن المعروف كذلك في مصر القديمة أن الاله رع رب الشمس، خلق السماء (نوت) والأرض (جبت) والماء (تفنوت) والهواء (شو) من إفرازاته الجنسية.

[←42]

السبي البابلي: نتيجة للصراع الطويل بين مصر الفرعونية والعراق الأشوري البابلي، على مناطق نزاع تقع بين الدولتين، انتهزت بابل فترات الضعف الطويلة التي مرّت بها مصر، في نهاية عصر الأسرات المصرية، لتبسط نفوذها على مناطق من الشام وفلسطين. وتفسير ذلك أن شيشانق ملك مصر في الأسرة 22، هاجم فلسطين حوالي 920 ق م، وقد يكون هذا في نهاية حكم الملك سليمان، وبسط النفوذ المصري من جديد على مملكة اسرائيل، الا أن غزو الأشوريين سنة 740 ق م أعادها اليهم. ثم جاء ما يعرف بالسبي البابلي عندما غزا الملك الأشوري نبوخذ نصّر أرض فلسطين، وحطّم أورشليم والجزء الأكبر من معبد الملك سليمان، وعاد الى بلاده بما لا يقل عن أربعين ألفا من شعب اسرائيل، وكان ذلك في حدود عام 586 ق م.

[←43]

تجديد معبد الملك سليمان: كان هذا التجديد قد تمّ في الفترة التي عاد فيها اليهود الى الاقامة في أورشليم، بعد أن عادوا اليها من السبي البابلي بعد هزيمة بابل أمام فارس، الا أن هذا المعبد تهدّم من جديد عندما غزت قوات الامبراطورية الرومانية أورشليم سنة 70 ميلادية.

[←44]

الخطيئة الأولى: يقول المتخصصون في الديانة المسيحية، إن هذا التحريم كان فقط لمجرد اختبار قدرة آدم وحوّاء على طاعة الله، ولكني أسألهم إذا كان الله يعرف مقدّما نتيجة هذا الاختبار، فأين هي حرية الاختيار المزعومة. الحقيقة هي أن كل شيء أراده الله وقدّره هو حتمي الوقوع.

[←45]

كانت مهنة المرضعة، منتشرة جدا في كل بلاد العالم القديم، وحتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، حيث توجد سيّدات يكنّ غالبا من طبقات فقيرة، لا يجدن رزقهنّ اليومي، الا بالذهاب الى بيوت السيدات المستورات، وتقديم خدمة الرضاعة اليهنّ، ولكن كان هذا يعني أيضا أن الأطفال الذي يرضعون منهنّ، كانوا يجدون غالبا قدرا من المنافسة على اللبن القليل بين بعضهم البعض. لم تختف هذه المهنة تماما من الوجود، الا باكتشافات العلم الحديث، في أهمية أن تقوم الأم نفسها بارضاع ابنها، لأسباب نفسية سيكولوجية، وكذلك لأسباب تتعلق بالمناعة الطبيعية، التي تنمو في جسم الطفل مع لبن أمه.

[←46]

الهيولية في فلسفة أرسطو هي المادية، والهيولي هو المادي الذي يمكن لمسه ومسكه، لأن له جسم ثلاثي الأبعاد، ولا تكون صورة بغير مادة الا صورة الله، وكذلك صورة النفس الانسانية قبل حلولها في الجسم البشري، ثم كذلك صورتها بعد مغادرتها للجسم البشري عند موت الكائن البشري. والمادة مستعدّة لأن تكون أي شيء، فإذا ما حلت فيها صورة شيء بعينه، صارت المادة هي هذا الشيء بعينه، والله هو المحرّك لهذه المواد ليتحرك الكون نحو هدفه الأسمى. وتقع النباتات التي هي أرقى من الجماد، في أسفل السلم الهيولي، ثم يأتي في درجتين أعلى منه الحيوان الذي تميّز عن النبات بالحسّ، ثم الانسان الذي تميّز عن الحيوان بالتفكير.

[←47]

استعمال بناء بشري كدرج أو سلّم، يتمكن الانسان به من الصعود من الأرض الى السماء، هي إحدى الأفكار المتكررة في النصوص الدينية المختلفة للشعوب المختلفة، ففي مصر القديمة مثلا جاءت هذه الفكرة في (نصوص الأهرامات) منذ هرم الملك أوناس في الأسرة الخامسة، التي تتوافق زمنيا تقريبا مع القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، ثم عادت الى الظهور في سفر التوراة في حلم يعقوب، والد سيدنا يوسف وابن اسحق وحفيد سيدنا ابراهيم، الذي رأى فيه سلّما يصل الأرض بالسماء ويصعد عليه البشر، ويعقوب يتوافق زمنيا مع القرن الثامن عشر قبل الميلاد. أما نص الأسفار الخمسة الأولى من التوراة وأولّها هو سفر التكوين، فتعود حسب المعتقدات اليهودية الى سيدنا موسى، الذي يتوافق زمنيا مع القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

[←48]

الأسطورة البابلية القديمة تشير الى أحد أرباب بابل القديمة، الذي كان قليل المعرفة بأشياء كثيرة، منها مثلا أن علمه لم يكن يحيط بالحقيقة الخاصة بمدى ارتفاع السماء عن الأرض، وهو يقدّر بملايين من الكيلومترات، ولذلك كان يخشى من بناء برج مرتفع، قد تتمكن به خليقته البشرية، من الوصول الى السماء.

[←49]

في نظريات الخلق في مصر القديمة، التي تعود الى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد، أي الى زمن الأسرة الفرعونية الأولى، كان الاله القومي الأول (بتاح)، يقوم بخلق الكائنات، عن طريق نطق الكلمات. كان هذا قد حدث قبل 1800 سنة من ظهور نبيّ الله موسى، وخروج شعب اسرائيل من أرض مصر، وتلقّي الوحي بالتوراة على جبل التجلّي في سيناء.

[←50]

سقوط أورشليم في يد الجيوش الرومانية: تأكد الاحتلال الروماني لمصر ولاسرائيل، بعد سقوط جيش وأسطول كليوباترا المصري البطلمي، وهزيمته في موقعة أكتيوم البحرية سنة 31 ق. م.، أمام الجيش والأسطول الروماني، لكن شعب أورشليم اليهودي ثار سنة 66 ميلادية ضد المحتل الروماني، فجاءت قوات رومانية بقيادة تيتوس، الذي سيصير امبراطورا لروما في مستقبل أيامه، وحاصر أورشليم سنة 70 ميلادية، ثم دخلها ودمّرها، في العام نفسه، وكان من بين ما دمّره، معبد الملك سليمان.

[←51]

سقوط الامبراطورية الرومانية: أهم مصادر معلوماتنا بهذا الخصوص، هو كتاب (سقوط الامبراطورية الرومانية) لادوارد جيبون Gibbon، المطبوع سنة 1776، وطبقا لما جاء فيه فإن كل أنظمة الحكم في الدولة، كانت تتحلل ببطء عبر القرنين الرابع والخامس الميلاديين، سياسيا واقتصاديا وعسكريا، بالاضافة الى مجموعة من الحروب الأهلية داخل الامبراطورية، ومجموعة من الغزوات الخارجية. يتخّذ جيبون من 376 ميلادية تاريخا دالا، عندما اخترقت أعداد كبيرة من القوط Goths ومن برابرة أقاليم البلقان، الحدود الشمالية للامبراطورية، ثم في سنة 406 عبرت قبائل جرمانية نهر الراين، في طريقها الى روما، وسنة 410 وهو تاريخ حصار روما، ثم أخيرا سنة 476 حين تمكن رئيس القبائل الجرمانية، من اسقاط الامبراطور رومولوس أوجاستوس Romulus Augustus.

[←52]

هناك فرق بين القرون الوسطى في تاريخ أوروبا، وبينها في التاريخ العربي. ففي أوروبا هي قرون الظلام الممتدة بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن التاسع الميلادي، وقيام حركة النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي. في حين أن تلك الفترة في تاريخ العرب كانت فترة ازدهار ورخاء. أمّا قرون الظلام في التاريخ العربي فهي تبدأ إمّا بسقوط بغداد في يد المغول (1258م) أو بسقوط الأندلس في يد القوط الغربيين (1492م)، وليس هناك بعد تاريخ محدّد لنهايتها.

[←53]

يوحنا الانجيلي: كان الأصغر سنا من بين حواريي المسيح، وأقربهم الى قلبه، وهو الذي وضع المسيح - وهو على الصليب - بين يديه مريم أمه، ليعتني بها حتى نهاية حياتها، وقد عاش يوحنا حتى بلغ من العمر أرذله، وكتب سفرين من أسفار العهد الجديد، انجيل يوحنا وسفر الرؤيا، ويقال إنه حضر بداية القرن الثاني الميلادي.

[←54]

المذهب المادي الذي قامت عليه، أسس الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، يقول بأن القيم والأهداف العليا الوحيدة، التي تستحق أن يقوم عليها بنيان الأمم، هي تلك التي تتمثّل في الرفاهية المادية، وفي تعزيز التقدّم المادي.

[←55]

كارل بارت: ولد ومات في بازل بسويسرا، بين 1886 و1968، ويعتبر أهم عالم متخصّص في علوم اللاهوت المسيحي، في القرن العشرين، وعمل كأستاذ للمادة في جامعات برن وبرلين، ومن مؤلفاته الهامة: الرسالة الى الرومان Epistle to the Romans، والمسيح وآدم Christ and Adam.

[←56]
هو اسم يطلق على الكنيسة الصغيرة داخل فناء أحد الأديرة، والمقصود بها :catholicon كاثوليكون
هنا في النص الكنيسة التي تحتوي على قبر المسيح.

[←57]

سفر القضاة: أو كتاب القضاة، هو سابع أسفار العهد القديم (التوراة)، وغالبا سيكون كاتبه هو النبي صموئيل، في زمن الملك شاولِ، أول ملوك بني اسرائيل، الذي جاء بعده الملكان الأكثر شهرة وهما النبيّان داود وسليمان. في بداية هذا السفر يحكي المؤلف عن كيفية تقدّم أسباط بني اسرائيل، في احتلال أجزاء من أرض كنعان.

[←58]

يظن عدد كبير من المؤلفين الغربيين يشكل عام، والمؤلفين اليهود بشكل خاص، أن قبّة الصخرة قد أقيمت على أطلال معبد الملك سليمان.

[←59]

من الفعل شنا في اللغة العبرية، ويعني الدراسة والمراجعة، وهو أول نصّ عبري حوّل :Mishnah ميشنا الموروث الشعبي الشفاهي، الذي كان يعرف باسم التوراة الشفهية، الى نصوص مكتوبة. قام بهذه المهمّة الحاخام يهودا حاناسي بين 180 و220 ميلادية، بعد أن أدّت الاضطهادات والمذابح الى نقص عدد حفظة هذا التراث.

[←60]

الخيمة tabernacle التي استعملها اليهود كهيكل للصلاة، وقدس أقداس لأماكن عبادتهم، بعد خروجهم من مصر، أثناء تنقّلهم الدائم في سيناء، ثم استمروا في استعمالها حتى بعد استقرارهم في فلسطين، حتى استغنوا عنها بعد بناء معبد الملك سليمان.

[←61]

السامريون: شعب قبيلة سكن مدينة السامرة في أرض كنعان، فلسطين الحالية، وقد ذكروا مرارا في التوراة والانجيل.

[←62]

أفريقيا الفينيقية: هي سواحل منطقة قرطاج في تونس الحالية، التي احتلتها الدولة الفينيقية القادمة من لبنان الحالية، في القرن الثالث قبل الميلاد. وقد ظلت تونس تسمّى أفريقيا في المؤلفات العربية لوقت طويل.

[←63]

مزامير داود: هو أحد أسفار التوراة، ويشتمل على 150 مزمورا متفاوت الطول، يناجي فيها داود ربه. ومن المعروف أن النبي داود قبل أن يصبح ملكا على شعب اسرائيل، كان راعيا للأغنام، وأنه كان يتمتع بصوت جميل، وبالقدرة على عزف الآلات الموسيقية، كالمزمار والقيثار. وتتلي أجزاء من هذه المزامير أثناء الصلوات والقدّاسات، في الكنائس المسيحية في العالم أجمع، بصرف النظر عن كونها كاثوليكية، .أو أرثوذكسية، أو بروتستانتية

[←64]

اللاويون: هم أحد أسباط اليهود الاثني عشر، بعدد أولاد نبي الله يعقوب، وهم نسل لاوي ابن يعقوب، وكانوا ثلاثة ذكور أسس كل منهم لنفسه عشيرة، وكان من هذه العشائر موسى (نبي الله) وهارون. في بريّة تيه سيناء عندما نقض الشعب اليهودي عهده مع الرب، وعاد الى عبادة العجل الذهبي، كان سبط اللاويين هو السبط الوحيد الذي ترك عبادة الوثن، وعاد من تلقاء نفسه الى عبادة الرب، وبالتالي فبدلا من تكريس كل بكر من أبكار كل أسباط العبرانيين، وقع الاختيار على اللاويين وحدهم للقيام بالخدمة المقدّسة في معابد الرب. وهو ما يسميه المؤلف هنا كهنوت اللاويين، أي الرجال من سبط لاوي الذين تمّ تكليفهم بالاهتمام بالخدمة المقدّسة، منذ اختيار هارون ليكون أول كاهن للرب، ثم أصبحت هذه الخدمة وراثية.

[←65]
الذهب واللبان والمرّ: هي نفس نوعية الهدايا، التي تقول الأناجيل، إن الملوك المجوس قد حملوها الى الطفل يسوع عند مولده في مدينة بيت لحم باقليم الناصرة، واللبان يستعمل كبخور، أما المرّ فهو الصمغ الراتنجي الذي يخرج من ساق شجرة المرّ.

[←66]

يوحنا المعمدان: هو النبي يحيى ابن النبي زكريا، الذي أنجبه أبوه بعد أن كان قد بلغ مرحلة الشيخوخة. عاش يوحنا في الصحراء بالقرب من نهر الأردن، يرتدي جلود الحيوانات، ويأكل الجراد، حيث كان يقوم حسب طقس قديم من طقوس التوراة، بتعميد المؤمنين في مياه النهر، وتلاوة الصلوات عليهم، وذلك بغسل الرأس والذراعين والساقين، أو بالتغطيس في الماء لمن سمحت صحتهم بذلك، كعلامة على طهارة الجسد، وكان كذلك يبشّر الناس بقرب وصول يسوع المسيح، الذي كان آخر من جاء لينال معموديته على يدي يوحنا. بعد ذلك تروي لنا الأناجيل أن سالومي ابنة هيروديا قد رقصت أمام هيرودس، نائب الامبراطورية الرومانية، فنالت اعجابه ووعدها أن يحقق لها أي شيء تطلبه، فسألت أمها التي طلبت منها رأس يوحنا، فاقتيد الى السجن وقطعت رأسه، وقدِّمت الى سالومي.

[←67]
السيريانية Syriac: هي إحدى لهجات اللغة الآرامية Aramian في مرحلتها الوسطى، والآرامية هي من عائلة اللغات السامية، مثل العربية والعبرية، والآرامية هي اللغة التي استعملتها شعوب المنطقة التي كانت تسمّى الهلال الخصيب، في الشام والعراق، وحتى شمال الجزيرة العربية، في فترة ممتدّة لعدة قرون قبل وبعد المسيح. يعتقد أن السيريانية قد استعملت كلغة منطوقة فقط، من القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد، الا أنها لم تظهر مكتوبة، الا منذ القرن الأول الميلادي. أصبحت السيريانية هي اللغة الأولى للأدب والعلم، في كل هذه المناطق المذكورة أعلاه، بالاضافة الى آسيا الصغرى، وحتى سواحل البحر الأسود، ويقال إنها قد وصلت حتى الى شمال الهند والى حدود الصين، وإنها قد استعملت كوسيط دولي في التجارة والمفاوضات، في الفترة بين القرنين الرابع والثامن الميلاديين، وهي في نفس الوقت فترة ازدهار المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية الشرقية، وبالتالي هي اللغة التي كتبت بها أعمال مفكري المسيحية الشرقية.

والسيريانية هي اللغة التي ترجمت اليها أعمال الفلاسفة اليونانيين، وأعمال علماء ومفكّري جامعة الاسكندرية. والسيريانية هي اللغة التي درسها العرب في بداية حضارتهم، ليتمكنوا من أن يترجموا منها الى اللغة العربية، أهم الأعمال الفكرية السابقة على العرب في تراث الحضارة الانسانية. حلّت اللغة العربية محلّ السيريانية، في كل تلك المساحة الشاسعة من العالم، بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلاديين. السيريانية هي الآن لغة ميّتة لا يعرفها الا الأكاديميون في جامعاتهم، وبعض كهنة الكنائس ورهبان الأديرة في سوريا.

[←68]

الامبراطور قسطنطين: هو امبراطور الدولة البيزنطية (أي الرومانية الشرقية) في أوائل القرن الرابع الميلادي، وعاصمتها مدينة بيزنطة، وهي نفس المدينة التي ستعرف أيضا باسم القسطنطينية، على اسمه هو مؤسسها، ثم لاحقا باسم الآستانة تحت حكم العثمانيين، ثم حاليا باسم استانبول. كان قد حدث في نهاية القرن الثالث الميلادي الانقسام في الدولة الرومانية الى دولتين، وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية عاصمتها روما. من المعروف أن التاريخ يروي لنا أن المسيحيين كانوا مضطهدين حتى أوائل القرن الرابع الميلادي في الدولتين الرومانيتين، حتى حدث أن ظهر الصليب لقسطنطين في إحدى معاركه حوالي سنة 313 ميلادية وقاده الى النصر، فآمن بالمسيحية. ثم جاءت والدته هيلانة سنة 326 الى أورشليم على رأس بعثة استكشافية للبحث عن الصليب الحقيقي للمسيح.

[←69]

ثلاثة صلبان منفصلة: اتفقت الأناجيل الأربعة على أنه عند صلب المسيح على موقع الجلجثة، كان هناك صليبان آخران مع صليبه، خصص أحدهما للص اليمين، والآخر للص اليسار، وكان يسوع في المنتصف. وقد تمّ العثور على البقايا الخشبية لمئات الصلبان، في عشرات المواقع الممتدّة بطول سواحل شرق حوض البحر المتوسّط، حيث اعتاد جنود الامبراطورية الرومانية خلال قرون عديدة، بين الثالث قبل الميلاد والثالث الميلادي، على صلب المجرمين والمتمرّدين في أسواق المدن الكبيرة أو على بوّابات أسوارها، حتى يكونوا عبرة لغيرهم من أفراد تلك الشعوب المغلوبة على أمرها.

[←70]

التقدّم العلمي: في العصر الحديث، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، وبفضل مخترعات واكتشافات علمية محدّدة أصبح من الممكن تحديد عمر الأخشاب والمعادن مثلا باستعمال عنصر الكربون 14 المشع، وبالتالي أصبح من الممكن التأكد من إن كانت البقايا الشخصية relics، مثل قطع من أخشاب الصليب، حقيقية وتعود الى نفس الفترة الزمنية أم لا. وكذلك أمكن تحديد أعمار الجثث الحيوانية والبشرية، باستعمال تحليل الحمض النووي D.N.A.، فكانت المعجزات أما في الزمن القديم هي التي تحدّد مثلا مدى قداسة وأصالة authenticity القطع المعثور عليها.

[←71]

هو كأس التناول من دمّ المسيح، الذي :the holy grail قصة فرسان الكأس المقدّس ارتبط في الأساطير الانجليزية، خلال فترة القرون الوسطى، بأسطورة الملك أرثر وفرسان المائدة المستديرة. تحوّل الكأس الى طبق من الذهب، أوالى حجر كريم نزل من السماء، في النسخ الأوروبية المختلفة لنفس الأسطورة. مع ذلك فإن أغلب النسخ تحاول أن تجد صلة ما بين هذا الكأس، وبين طقس العشاء الأخير، ليسوع المسيح مع حوارييه وتلاميذه، ثم محاولة تهريب الكأس الى أوروبا بعد صلب المسيح. قد تكون هناك تأثيرات فولكلورية قادمة من أسطورة سلتية celtic، تحكي عن كأس آخر ذي مزايا وانجازات معجزية. أنظر كذلك رقم (34).

[←72]

هذه القصة هي :the dream of the rood قصة حلم الصليب أحد أقدم الأعمال الأدبية المسيحية في اللغة الانجليزية، المكتوبة في شكل أبيات شعرية. تم العثور على هذه القصة الشعرية، داخل كتاب فيرتشيلي Vercelli Book، الذي يعود الى القرن العاشر الميلادي، ولكن هذه القصة هي في الغالب أقدم من ذلك التاريخ ببضعة قرون، وذلك لأن جزءً من هذه القصة الشعرية، تمّ العثور عليه لاحقا محفورا بالنحت الغائر، فوق صليب روثويل Ruthwell Cross، وهو من القرن الثامن الميلادي. الكلمة المستخدمة في النص Rood هي الكلمة الحالية التي تعني العصا rod ولكنها في الانجليزية القديمة كانت تعني الصليب. القصة تبدأ بحوار يدور في الحلم بين الراوي وصليب المسيح، الذي تغطيه الأحجار الكريمة رغم كونه ملطّخا بالدماء، ثم يقوم الصليب برواية قصة الصلب من وجهة نظره هو (أي الصليب)، بداية من اللحظة التي يقطع فيها جذع الشجرة التي ستتحوّل الى صليب، الى اللحظة التي تدقّ فيها المسامير في جسد المسيح وفي جسم الصليب.

[←73]

الاسم في اللغات الاسكنديناقية يعني (الغاضب)، وهو أحد أهم آلهة الأساطير :Odin الربّ أودين الجرمانية، والمقصود بهذه الكلمة شعوب وسط وشمال أوروبا في العصور الوسطى، وفي بعض النسخ هو الأب الأول لكل الآلهة. ونظرا لطباعه الغاضبة فقد أصبح الها للحرب والقتال والعداء، والنصر أو الموت في سبيله، ولكنه كان كذلك الها للصيد والسحر والشعر، كما هو الحال مع كل الآلهة الجرمانيين الذين يجمعون بين وظائف عديدة.

[←74]

أليعازر Lazarus: تروي الأناجيل عنه أنه شاب من نفس سن يسوع المسيح، وكان صديقا له، ثم مات فجأة فجاءت مارتا وماري أختا أليعازر الى يسوع، طالبتين منه أن يتدخّل، فذهب معهما الى المقبرة حيث كان أليعازر قد دُفِن قبل ليلتين، وناداه قائلا (أليعازر هلمّ خارجا) فخرج. وكان جسمه ملفوفا بنسيج التكفين.

[←75]

بطريارك Patriarch وجمعها بطاركة: ومعناها السُلطة الأبوية، واللفظ يطلق على الآباء الدينيين أصحاب السلطة الزمنية. وهي كلمة مركّبة تتكون من كلمتين، الأولى هي باطري patri ومعناها باللاتينية أب، ومنها جاءت كلمات في لغات عديدة، مثل فاتر الألمانية وفاذر الانجليزية وبادره الايطالية، وكلها تعني أب، والكلمة الثانية هي آرك arch ومعناها رتبة في سلم السلطة، يمكنك أن تجدها كذلك في كلمات مثل موناركي monarchy أي المَلَكِيّة أو السلطة الواحدة، وكذلك في كلمة آناركي anarchy أي الفوضوية أو انعدام السلطة.

[←76]

الغنوصية Gnosticism: نظرية حول جوهر المعرفة، موجودة في الفلسفة اليونانية وفي ديانات مختلفة منذ ما قبل المسيحية، مثل الزرادشتية، والكلمة مشتقة من كلمة يونانية تعني المعرفة (جنوسيس gnosis)، ويعطي جذر هذه الكلمة اليونانية، الكلمات التي تحمل نفس المعنى في لغات أوروبية عديدة، ففي الفرنسية ك (أو ج) + ن + س تعطي connaissance، وفي الانجليزية تعطي الكاف النون فقط (رغم أن الكاف لا تنطق) في كلمة knowledge، وقد ترجمت هذه الكلمة في لغات وديانات مختلفة بمعان مختلفة مثل الحرية والتحرّر من الجسد ومن خطايا الجسد، والتنوير والاستنارة، والاتحاد مع الرب، وحب البشر، وافقار الذات وحرمان النفس من المتع الحسّية، بل حتى الامتناع عن أيّة ممارسة جنسية. وقد وجد هذا المذهب انتشارا الى حد ما بين رهبان أديرة الصحراوات المصرية. الفكرة الرئيسية في هذا المذهب هي أن العالم الأرضي المادي تافه وزائل، في مقابل العالم السماوي العلوي الأزلي. بعد ظهور نصوص نجع حمّادي في مصر ساد الاعتقاد بأن هذا المذهب لم يظهر الا بعد المسيحية، في حوالي القرن الثاني الميلادي. والأسئلة الرئيسية التي يطرحها هذا المذهب هي: ما هو موضوع المعرفة؟

وما هو مصدرها؟ وما هي الحقيقة؟ وما هي معايير قياسها؟

[←77]

التجليّ Transfiguration: موقف في الأناجيل يحدث فوق قمة أحد جبال منطقة فلسطين، يظهر فيه يسوع المسيح مع إثنين من أنبياء العهد القديم أحدهما هو النبي إيليا، وبسبب شدة حرارة الجوّ، وقوّة ضوء الشمس الساقط عليهم، عرض ثلاثة من تلاميذ المسيح الذين كانوا معه وشهدوا الواقعة، أن يقوموا بعمل مظلة يقفون تحتها لتحميهم من الشمس، فجاءت على الفور سحابة ظللتهم، ووقفت في مكانها لم تتحرك حتى انتهى اللقاء.

[←78]

المدن الهيلينستية Hellinistic: في البداية سمّيت المدن اليونانية القديمة والحضارة اليونانية القديمة بالمدن الهيلينية والحضارة الهيلينية، نسبة الى هيلينا بطلة أسطورة طروادة، أما المدن التي أنشأها اليونانيون (الاغريق) خارج اليونان، منذ زحف الاسكندر من مقدونيا الى الهند مرورا بالشام ومصر والعراق، فقد سميت المدن الهيلينستية، وهو دليل انتسابها الى الحضارة الهيلينية. أشهر المدن الهيلينستية التي أنشأها الاغريق خارج اليونان هي مدينة الاسكندرية.

[←79]

الفيلسوف إفلوطين: فيلسوف يوناني مصري مولود في أسيوط بمصر (وكانت تسمى ليكوبوليس أي مدينة الذئب)، حوالي 205 ومتوفى في 270 ميلادية. انتقل في بداية شبابه الى جامعة الاسكندرية للدراسة بها على يد أمّونيوس ساكّاس، وأصبح تلميذا مخلصا لتعاليمه. بعد رحلة طويلة في حوالي سن الأربعين، الى فارس لدراسة دياناتها وفلاسفتها، استقر حتى نهاية حياته في روما. ورغم أنه لم يعتنق المسيحية بل ظل على وثنيته، الا أن أفكاره قريبة من الأفكار المسيحية، خاصة فيما يتعلق بالزهد في المتع الدنيوية، وفي قدرة كل انسان على الوصول الى ملكوت الله بتنمية ذاته، وفي أن مصادر سعادة الانسان كلها موجودة داخله.

[←80]

أوريجانوس: فيلسوف مسيحي مولود في الاسكندرية لأبوين مصريين مسيحيين، سنة 185 ميلادية، وعاصر اضطهادات عدّة على يد الدولة الرومانية الوثنية حتى وفاته 254 ميلادية. شغل مبكرا جدا في حياته منصب مدير المدرسة المسيحية بالاسكندرية، وانشغل سنوات طويلة بكتابة تفسير للكتاب المقدّس. لم يكن يطمع في أي منصب كهنوتي، لذلك قام بإخصاء نفسه، حتى لا يتمّ تعيينه قسّا، إذ وفقا لمفاهيم ذلك العصر كان على القسّ أن يكون شخصا كاملا جسمانيا.

مات شهيدا بعد تعذيب شديد على يد رجال الامبراطور الروماني ديقيوس.

[←81]

الأصولية الدينية Fundamentalism: هو المذهب الديني المعروف كذلك باسم مذهب العِصمة الحرفية للنصوص الدينية، وهي حركة عرفتها الكنيسة البروتستانتية، في أوائل القرن العشرين، لتؤكد بها هذه الكنيسة، على أن الكتاب المقدّس معصوم من الخطأ، ليس في قضايا العقيدة والأخلاق فحسب، بل كذلك في كل ما يتعلق بالمسائل التاريخية، ومسائل الغيبيّات، كقصص خلق الكون في ستة أيام، ومولد المسيح من سيدة ظلت عذراء بعد ولادته، ومجيء المسيح الثاني الى الأرض قبل نهاية العالم، ومسألة حشر أجساد البشر في يوم الدينونة.

[←82]
قصة صراع المسيح مع إبليس: تقول الأناجيل، إن المسيح في سن الثلاثين، قبل أن يبدأ التبشير بمبادئه الأخلاقية الجديدة، مثل التضحية بالذات والتسامح والمحبّة، كان قد ترك المناطق الريفية التي سكنها طوال عمره القصير، مع أبيه النجّار وأمه، وذهب الى بريّة صحراوية، لا تقول لنا الكتب أين تقع جغرافيا، وظلّ هناك أربعين يوما دون طعام، وإنما انقطاع تام للصلاة، حتى لفت انتباه إبليس، الذي جاء اليه ليجرّبه، عارضا عليه مملكة أورشليم، ثم كل الممالك الأرضية، التي يسيطر عليها إبليس تماما، مقابل أن يتراجع المسيح عن تنفيذ مهمّته، الا أن المسيح رفض كل تلك العروض، ووبّـخ إبليس، الذي ترك المسيح يائسا من محاولة الإيقاع به.

[←83]

بيرز بلومان Piers Plowman: قصة شعبية انجليزية، دخلت فيها عناصر أسطورية، كتبت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، مؤلفها هو ويليام لانج لاند William Langland، ويعتبرها الكثير من نقّاد الأدب الانجليزي واحدة من أهم الأعمال الأدبية في نهايات العصور الوسطى في أوروبا. والقصة تجمع في نصوصها بين الرموز الدينية والسخرية الاجتماعية، وذلك في أثناء بحث المؤلف عن الحياة المسيحية الحقيقية، من وجهة نظر كاثوليكية العصور الوسطى، وتدور أحداثها في شكل رؤى لرجل انجليزي يتنقل بين الأقاليم، مع ثلاث شخصيات خيالية ذات أسماء دالة الأول هو (إفعل الخير/ دوويل Do well) والثاني هو (إفعل أفضل/ دوبتر Do better) والثالث هو (إفعل الأفضل/ دوبست Do best).

[←84]

ألواح رأس شمرا: وجدت تلك الألواح في تل رأس شمرا، وهو موقع أثري على ساحل البحر المتوسط، يقع على بعد 12 كيلومتر، الى الشمال من الموقع الحالي لمدينة اللاذقية السورية، ويعتقد أنه بقايا موقع مملكة قديمة عرفت باسم أوجاريت Ugarit، وقد تقع تاريخيا بين 1450 و1200 قبل الميلاد، وهو ما يتفق مع تاريخ الأسرتين الفرعونيتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وكانت أوغاريت على علاقة من ناحية بالحيثيين الى شمالها، ومن ناحية أخرى بالمملكة المصرية الى جنوبها، وكذلك على علاقات تجارية عبر البحر مع جزيرة قبرص. استمرت حفريات شيفر من جامعة ستراسبورج في الموقع عشرات السنوات، بين عشرينات وسبعينات القرن العشرين، وتم اكتشاف قصر ملكي ومعبد للاله الكنعاني (بعل). أهم اكتشاف هو طبقات متتالية من ألواح من طين الصلصال عليها كتابة بالخط المسماري، للغات السومرية والأكّادية، كلها تعود الى حوالي 1200 ق. م.، ويعتقد أنها قد تكون مكتبة القصر الملكي. بفك شفرة اللغة ثبت أن النصوص تتنوّع بين السياسة والتاريخ والأدب والدين.

[←85]

لم تتطور فكرة حقوق الانسان الا في القرن الثامن عشر، أما منذ ما قبل الميلاد فكل الغزوات التي قامت بها مجموعات من البشر، على ممتلكات مجموعات أخرى من البشر، كان من ضمن أهم أهدافها، الحصول على بشر من الرجال والنساء والأطفال، لبيعهم في أسواق العبيد. وقد سقطت في كثير من الأحيان عائلات ملكية ببيع أفرادها في أسواق العبيد. ومن المعروف أن دولة مثل أمريكا لم تتوقف فيها تجارة العبيد الأفارقة الا بعد منتصف القرن التاسع عشر. وفي مصر ظل هناك عبيد في خدمة بعض العائلات، حتى عشرينات القرن العشرين.

[←86]
المدن الليفانتانية Levantine: الكلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية (التي دخلت أيضا الى الانجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية) Levant، وتعني مشرق الشمس، وهي لوصف المدن التي تقع جغرافيا في شرق حوض البحر المتوسط، مدن الشام في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وتسمّى بالعربية إجمالا مدن المشرق العربي، تمييزا لها عن مدن المغرب العربي، في العقلية الأوروبية القرون أوسطية، وحتى منتصف القرن العشرين، حين حلّ بدلا منها أولا مصطلح الشرق الأدنى، ثم حاليا مصطلح الشرق الأوسط. ويُعتقد كذلك أن Levant قد تكون الأصل اللغوي لاسم دولة (لبنان Levanon)، التي تقع في قلب هذه المنطقة. أما الكلمة الانجليزية (والأوروبية كذلك) Orient، فلا تستعمل حاليا للمنطقة العربية، بقدر ما تستعمل لوصف دول الشرق الأقصى، مثل اليابان والصين.

[←87]

من المعروف أن الكتب، حتى زمن اختراع الطباعة سنة 1453، كانت عبارة عن مخطوطات تنقل باليد، وأن النسّاخين لم يكونوا يهتمّون كثيرا بالدقة العلمية، فغالبا لم يكن هناك من يراجع وراءهم، خاصة لو أنهم أثناء الاستنساخ، كانوا يترجمون النص من لغة الى أخرى، بالاضافة الى عنصر آخر مهم، وهو أنهم كانوا يقبضون أجورهم على أساس إما عدد الصفحات، أو عدد الكلمات.

[←88]

دراسة شقفات الفخّار أصبح في القرن العشرين علما يعرف باسم الأوستراكا Ostraca، وهي كلمة يونانية تعني شقفة، وذلك بسبب الحجم الضخم لأكوام شقافات وكسور فخار القلل والأواني، الذي أمكن العثور عليها في مواقع المدن المصرية والآرامية والكنعانية واليونانية القديمة البائدة، والمكتوب عليها النصوص المتباينة، فمن رسائل غرامية، الى حسابات تجارية، الى نصوص دينية. كان السبب في استعمال كسور الفخّار كمادة للكتابة، هو الفقر المدقع الذي عاش فيه سكان هذه المدن القديمة، وعدم قدرتهم على شراء أوراق البردي أو غيرها من مواد الكتابة لتسجيل أفكارهم عليها. المعلومات المتحصّل عليها عن طريق دراسة نصوص الشقافات لا تقدّر بثمن.

[←89]
مذبحة الأطفال: كان الملوك المجوس الذين قدموا الى بيت لحم لزيارة الطفل يسوع بعد مولده، وقد استدلوا على موقعه بحركة النجوم، قد ذهبوا بعد ذلك الى هيرودس، الوالي الروماني على منطقة فلسطين، لإبلاغه بمولد ملك الملوك، فقام هيرودس - خوفا على منصبه - باتخاذ هذا الاجراء الاحتياطي، بقتل كل الأطفال دون الثانية من العمر، وكان هذا هو السبب الذي أدّى بالعائلة المقدّسة الى الهروب الى مصر.

[←90]

هروب العائلة المقدّسة الى مصر: يلقي المؤلف بظلال الشك حول امكانية اختراق صحراء سيناء الجرداء، لمسافة مئات الكيلومترات، بواسطة رجل عجوز وامرأة شابة ضعيفة البنية، وطفل رضيع، على ظهر دابة قد لا تكون الا جحشا صغيرا. ولكن هذه القصة بالذات بالنسبة للمؤمنين المسيحيين، هي في حد ذاتها، إحدى المعجزات المبكرة ليسوع المسيح.

[←91]

العشاء الأخير: في الليلة المعروفة حاليا باسم خميس العهد، وهي الليلة السابقة على الجمعة الحزينة، جمعة صلب المسيح، التقى يسوع بتلاميذه كلهم للمرة الأخيرة، حول مائدة عشاء، ثم خرج بعد ذلك لقضاء الليل في الصلاة في بستان جسثيماني، حيث ألقى جنود الوالي الروماني القبض عليه قرب الفجر، بوشاية من يهوذا، التلميذ الخائن. خلال هذا العشاء الأخير، اقتسم يسوع رغيف خبز مع حوارييه الاثني عشر، واقتسم كأس نبيذ، وطلب منهم أن يصنعوا هذا لذكره، كلما اجتمعوا اقتسموا الخبز والنبيذ، وهو ما تحرص عليه كل الكنائس حتى الآن، ويعرف باسم سر التناول، حيث يصبح الخبز هو جسد المسيح، والنبيذ هو دمه.

[←92]

المعمودية بالماء والنار: هي اعتماد الانسان مؤمنا مسيحيا، وهو طقس يمارس في الكنيسة على الأطفال قبل سن الثالثة، إشارة الى معمودية المسيح على يد يوحنا المعمدان، في مياه نهر الأردن، وكان قد أتمّ الثلاثين من عمره، في بداية سنوات تبشيره، عندما نزل الروح القدس في شكل حمامة، وقفت على رأس يسوع المسيح، وجاء صوت من السماء. تسمّي الكنيسة هذا الطقس (الميلاد الثاني بالروح القدس والماء). أمّا شهداء المسيحية الأوائل الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي لمعمودية الماء والروح القدس، كان يتمّ قبول (معموديتهم بالدم والنار)، وفقا لطريقة قتلهم، إما ذبحا بالسكين، أو حرقا بالنار.

[←93]
الدوسيتية docetic: الكلمة من أصل يوناني وتعني

المظهر أو الظهور، وفي العقائد المسيحية يمكن تعريفها وفقا للمؤلف نوربرت بروكس بالتالي (هي فكرة انتشرت في القرون الأولى للمسيحية، آمنت بأن يسوع المسيح لم يكن وجوده جسديا في أية مرحلة من حياته، وإنما هو كان روحا فقط لا غير، وأن الناس المحيطين به كانوا يتوهّمون رؤيته، أو أن الله كان يجعلهم يتوهّمون رؤيته، وبالتالي فإن وجوده المادي والجسدي لم يكن الا مجموعة من المناظر الوهمية). وقد ظهر اسم المؤمنين بهذا الاعتقاد كطائفة سمّيت (المعتقدون في الأوهام the illusion) في كتابات ورسائل متعددة، منها مثلا رسالة سيرابيون أسقف أنطاكيا سنة 203 ميلادية، التي أشارت الى أن هذا المعنى يمكن أن يكون صحيحا وفقا للانجيل طبقا للقديس بطرس (الذي أصبح فيما بعد غير معترف به من قبل الكنيسة). أقرّ مجمع نيقيا ببطلان هذا الاعتقاد في سنة 325.

[←94]
قائمة الفاتيكان للقدّيسين والقدّيسات: تضم مئات الأسماء لبشر كانوا قد بدأوا حياتهم كبشر عاديين، ولكنهم أثناء حياتهم كانت لهم معجزات وكرامات وظهورات أدّت الى اعتبارهم لاحقا من قبل الكنيسة، أشخاصا أكرمتهم الإرادة الالهية بإمكانيات خاصة. هذه المسألة قريبة الشبه جدا، من قصص أولياء الله الصالحين، في التراث الديني للشعب المصري.

[←95]
الرومانسية romantic: الكلمة قديمة جدا، ولكنها كانت تعني أشياء مختلفة عبر العصور، وهي في البداية مشتقة من اسم مدينة روما عاصمة امبراطورية الرومان، ثم أُطلقت الكلمة على اللهجة العامية القديمة للغة اللاتينية، لهجة أهل شوارع مدينة روما، عندما كانت اللاتينية هي لهجة أهل العلم، وذلك قبل أن تنتصر على كليهما، اللغة الايطالية الحديثة مع بداية عصر النهضة.

هي على الاطلاق من أكثر الكلمات غموضا في تاريخ الفكر البشري الحديث. فمنذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن الواحد والعشرين وهي تغير معانيها. سأنقل اليكم هنا ببعض التصرّف، من صفحات 92- 95، في كتاب (علم النفس في الفن والحياة) للدكتور يوسف مراد، الصادر في سلسلة كتاب الهلال، العدد 187 في أكتوبر 1966.

(بالبحث عن أصل كلمة رومانسية أو رومانتيكية، نجد أنها - وردت لأول مرة في الأدب الانجليزي في منتصف القرن 18، يعني حوالي سنة 1750، وأنها كانت تطلق على فن تنسيق الحدائق، في ذلك الوقت كان معنى الكلمة هو «ماهو جدير بأن يصوّر»، بحيث يسمح للنفس بأن تستسلم لأحلام اليقظة، وأن تتمتع بما تثيره الذكريات من عواطف فيّاضة، - اذا عدنا الى اشتقاق الكلمة، فإننا نجد Ror وromantique لهما أصل واحد في اللغات اللاتينية في كلمة romanus، التي جاءت منها في اللغة الفرنسية القديمة، كلمة romans، وكان معناها لغة الشعب، أي اللغة التي تستعملها الطبقات الفقيرة غير المتعلّمة، مقابل اللغة اللاتينية التي كان يستعملها الفلاسفة والعلماء، والطبقات الثرية.

- أصبح المقصود بها بعد ذلك في فرنسا كتابة شعر باللغة العامية، لغة أهل الشوارع، ومنها جاءت فيما بعد المعاني الأدبية الأخرى، حتى أصبحت هذه الكلمة تعني في اللغة الفرنسية الحديثة كلمة «رواية» roman، وكلمة «روائي» romancier. وفي الانجليزية romance أي «قصة حب جارف».

- بذلك يتبيّن لنا أن الحركة الرومانتيكية أنشأها رجال من الشعب، في مقابل المتعلمين والعلماء وأتباع الكلاسيكية. فالشعبي يطلق العنان لغرائزه وعواطفه، محاولا تحطيم القيود التي يفرضها العقل الجامد.

- في الفنون بشكل عام هذه الكلمة تعني أن تضع في المقام الأول، الحساسية والخيال والتعبير الشخصي، وإثبات الذات وتمجيد الغريزة، وأن الحركة الرومانسية هي حركة تميل الى المبالغة والتضخيم.

- يمكن تلخيص مميزات الحركة الرومانتيكية في الأدب في: روح الثورة على القيود - انتصار النزعات الفردية - سيطرة الحساسية والعواطف على العقل. أما في علم النفس مثلا فالكلمة تستعمل غالبا في وصف الشخص الواهم كثير الرثاء للذات.

[←96]
المجوسي Magus: المجوس هم عبدة النار والأفلاك السماوية من أهل فارس القديمة، وقد اشتهروا كذلك بممارسة أنواع مختلفة من الأفعال السحرية، حتى أن كلمة السحر Magic في اللغات الأوروبية، مأخوذة من الكلمة التي كانت تدلّ عليهم.

[←97]

السمعانيون the Simonians: هم طائفة غنوصية من القرن الثاني الميلادي، ويعتبر سمعان المجوسي هو مؤسسها، وقد انتشرت هذه الطائفة في سوريا وفي آسيا الصغرى، حتى وصلت الى روما. ظلت هذه الطائفة ذات تأثير قوي على كتابات المؤلفين والفلاسفة حتى القرن الرابع الميلادي.

[←98]

(كان يسوع المسيح قد قال (إن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني الى ملكوت الله.

[←99]

الرواقية: هي فلسفة أنشأها الفيلسوف زينون، حوالي سنة 300 قبل الميلاد، قال فيها بأن الرجل الحكيم، يجب أن يتحرّر من الانفعال، ولا يتأثر لا بالفرح ولا بالترح، وعليه أن يخضع دون تذمّر لحكم الضرورة القاهرة.

[←100]

القديس (جورج/ مار جرجس) يدهس التنين: من بين أعجب الأشياء في تاريخ الفنون، هو وجود عناصر فنيّة وموضوعات تتكرّر بشكل واضح، في الحضارات التي قد تبدو متباعدة، ولا صلة بينها، والمثل الأوضح على هذا الكلام هو جدران الممر الخارجي deambulatory، لمعبد إدفو البطلمي (اغريقي مصري) في صعيد مصر، من القرن الثالث قبل الميلاد، أو واجهة الصرح الخاص بصالة الأعمدة في معبد كلابشة (روماني مصري) في النوبة المصرية، من القرن الأول قبل الميلاد، والذي نجد عليهما مناظر لمعركة بين الاله حورس في شكل شاب شجاع برأس صقر، يجلس على ظهر جواد أو يقف على قدميه، لكنه في كل الأحوال يمسك بين يديه بحربة أو رمح طويل، يطعن به حيوانا قد يكون تنينا أو أفعى أو حيوان فرس النهر، في مواضع مختلفة من جسمه حتى يقتله.

[←101]

الامبراطور دقلديانوس Diocletian: حكم الامبراطورية الرومانية في نهايات القرن الثالث الميلادي، في الفترة التي سبقت انقسامها الى امبراطوريتين رومانيتين، الشرقية وعاصمتها بيزنطة، والغربية وعاصمتها روما، وتميّز عصره بكثرة اضطهاداته للمسيحيين، التي كان أكثرها دموية هو اضطهاده لمسيحيي مصر سنة 284، العام الذي قتل فيه حوالي 600 ألف رجل وامرأة، أي حوالي 20 ٪ من السكان، وسمي بعام الشهداء، واتخذ بداية لتقويم الأقباط المصريين، تقويم الشهداء.

[←102]
الافخارستيا eucharist: هو طقس ديني تمارسه أغلب الكنائس، تخليدا لذكرى يسوع المسيح، ولذكرى عشائه الأخير مع تلاميذه، وهو طقس التناول المقدّس Holly Communion، حيث يتمّ تناول المؤمنين في نهاية القدّاس، من خبز ونبيذ غير مختمر، وفقا لطلب المسيح الأخير أن (افعلوا هذا لذكري). ويعتقد المؤمنون أن الخبز هو رمز لجسد المسيح المصلوب، وأن النبيذ هو رمز لدم المسيح المسفوك على الصليب.

[←103]

الملك أرثر: شخصية بريطانية من نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين، دخلت مجال الأساطير. حسب مصادر تاريخ العصور الوسطى، كان قد قاد الدفاع عن بريطانيا ضد هجوم الساكسون، لكن أغلب التفاصيل اللاحقة لنفس الأسطورة هي من الاضافات الشعبية الفولكلورية، حتى أن مجرّد حقيقة وجوده أصبح مشكوكا فيها من قبل المؤرّخين المعاصرين. في كتاب من القرن 12 الميلادي، بعنوان (تاريخ ملوك بريطانيا)، للمؤلف جيفري موناوث، يظهر أرثر كمحارب عظيم يدافع عن بريطانيا، ضد الأعداء الأشرار وضد قوى ما وراء الطبيعة، حتى إنه ارتبط في ذهن سكان اقليم ويلز في غرب بريطانيا، بشخصية أنّون Annwn من العالم الآخر. ثم أضيفت عناصر أخرى الى الأسطورة، مثل سيفه العملاق، وقصة البحث عن الكأس المقدّس، وقصة الفارس السير لانسلوت، مع غيره من فرسان المائدة المستديرة.

[←104]

طبعا هذا هو ما يشيعه يهود العالم حتى الآن، حتى بعد أن تأكّدت بكل الأساليب العلمية الحديثة، مسألة تأريخ بناء الأهرامات في مصر، التي يعود أقدمها الى نهاية الأسرة الثالثة حوالي 2800 قبل الميلاد، ويعود أحدثها الى نهاية الأسرة الثالثة عشرة حوالي 1900 قبل الميلاد، في حين أن سيدنا يوسف لم يأت الى مصر الا حوالي سنة 1800 قبل الميلاد، بعد أن كانت مصر قد انتهت تماما من بناء كل أهراماتها.

[←105]
عاش القديس فرنسيس خلال القرن الثالث عشر، وعاني من انحرافات الكنيسة البابوية، التي ستؤدّي في بداية القرن السادس عشر الى حركات الاصلاح البروتستانتية اللوثرية والكالفينية.

[←106]

كتاب الصلوات: بالانجليزية Breviary، وباليونانية القديمة والقبطية Aghapos، وقد استعمل أقباط مصر كلمة (آجابوس) في شكلها المعرّب، ويقولون كتاب (الأجبية). والكلمة باليونانية تعني (محبّة)، وذلك لارتباط هذه الصلوات بتجمّع الأخوة، داخل كنيسة أو دير، للصلاة أولا، ثم لتناول وجبة خفيفة كلقمة خبز، أو شربة ماء. والصلوات السبع في الكنيسة القبطية تتفق مع ساعات النهار التالية: 6 صباحا/ 9 ص/ 12 ظهرا/ 3 بعد الظهر/ 6 مساء/ 9 م/ 12 منتصف الليل.

وتدوم كل صلاة حوالي ربع ساعة، يقرأ فيها جزء من الكتاب المقدّس، وتتلى فيها بعض أجزاء من المزامير. وهو تقليد بدأ في عهد تلاميذ المسيح بعد صعوده الى السماء، وانتشر في أديرة مصر القبطية منذ نهاية القرن الثالث الميلادي، ومنها انتشر الى بقية العالم المسيحي. من المعروف أن نظام الأديرة بدأ في مصر ومنها انتقل الى بقية دول العالم.

[←107]
ذكر بولس الرسول هذه العبارات في خمسينات القرن الأول للميلاد، في الرسالة الثانية التي كتبها الى أهل كورنثوس.

[←108]

العصر البيزنطي: هو العصر الذي بدأ بإتخاذ مدينة بيزنطة عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية، بعد انقسام الامبراطورية الى شرقية وغربية. حدث هذا في أوائل القرن الرابع الميلادي، عندما كان الامبراطور قسطنطين على رأس السلطة في بيزنطة، وتحوّل من الوثنية الى المسيحية، حوالي 313 ميلادية، وتغيّر اسم عاصمته من بيزنطة الى قسطنطينية Constantinople، وهو الاسم الذي احتفظت به لأكثر من أحد عشر قرنا، حتى سقطت في يد الأتراك العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر، وتحوّل اسمها الى الآستانة، ثم الى استانبول أو اسطمبول. وبالتالي فقد استمر العصر البيزنطي قرونا طويلة من الرابع الميلادي الى بدايات عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي.

[←109]

عملية وزن الأرواح: عملية معروفة في حضارات وديانات قديمة مختلفة الجذور والعصور، ولكن أشهرها هي عملية وزن الأرواح في مصر القديمة، التي يظهر فيها بوضوح الميزان الذي كانت توضع على إحدى كفّتيه روح المتوفّى، وتوضع على كفّته الأخرى ريشة ماعت الهة العدالة وقوى الحق والخير، وحتى يتمّ إعلان المتوفى بريئا من ارتكاب الذنوب والمعاصي، ينبغي أن تكون روحه أخف وزنا من ريشة العدالة، فتذهب روحه الى جنّات النعيم. أما الأرواح المذنبة فيكون وزنها ثقيلا، ويكون مصيرها النهائي هو أن تلقى في عذابات الجحيم. من كان يقوم في مصر القديمة غالبا بهذه العملية هما الأخوان غير الشقيقين، حورس وأنوبيس، ولدا إيزيس من أوزوريس وشقيقه ست على التوالي.

[←110]

عند صلب المسيح في صباح يوم الجمعة الأخير من شهر أبريل سنة 33 ميلادية، عند موقع تل صغير يسمى جلجثة، يقع خارج مدينة أورشليم، وجد نفسه محاطا عن يمينه وعن يساره باثنين من اللصوص اللذين سيتم صلبهما معه، حسب عادة الرومان في نهاية كل أسبوع، سخر أحدهما منه قائلا له لو أنك فعلا صانع معجزات، خلصنا وخلص نفسك من هذه الورطة، أما الآخر فقال له سلام عليك أيها المعلم لا تنس أن تأخذني معك عند ذهابك الى الفردوس، فقال له يسوع هذا المساء ستكون معي فيه.

[←111]
حسب الديانة المصرية القديمة، تتحوّل الروح عند بدء رحلتها الى السماء، الى طائر برأس بشري يسمّى ال (با). أما القرين الانساني أو الظل أو الملاك الحارس فيبقى الى جوار الجسد يحميه، ويسمّى في مصر القديمة ال (كا).

[←112]
الحجرات التي يمر بها المتوفّى في طريقه، منذ لحظة موته الى اللحظة التي سيعرف فيها مصيره، إن كان خيّرا ذاهبا الى الجنة، أو إن كان شريرا ذاهبا الى النار، هي كذلك فكرة مصرية قديمة، وكان في الأثاث الجنائزي لكل الموتى، كتابا معروفا باسم كتاب البوّابات، به كلمات السر التي تسمح للمتوّفى بالمرور أمام حرّاس البوّابات، من بوّابة الى أخرى.

[←113]

مرة أخرى فكرة مصرية قديمة، فالاعتراف بالخطايا أمام 42 من القضاة، هو أحد مراسم وطقوس الطريق الذي يسلكه المتوفى قبل أن يصل إلى تبرئته النهائية. يقف المتوفى أمام القضاة واحدا واحدا، ليكرر نفس أسلوب النفي، ولكن مع تغيير الشيء المنفي في كل مرة، فهو يقول مثلا (لم أنظر الى امرأة أخي لأشتهيها) ثم يقول (لم أوجّه عبارات اساءة الى والديّ) حتى يصل الى (لم أتبوّل في مياه النيل). وقد ظهر طقس الاعتراف لاحقا في الكنائس، حين أصبح الكهنة رمزا لحراس البوّابات، وأصبح أفراد شعب الكنيسة مضطرين الى الاعتراف بخطاياهم أمام الكهنة، حتى يسمحوا لهم بالمشاركة في طقس التناول من جسد ودمّ يسوع المسيح.

[←114]

جوستينيان 565 /482) Justinian): كان امبراطورا للدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها بيزنطة من 527 الى وفاته. كان أكبر مشروع في عصره هو محاولة استرداد الامبراطورية الرومانية الغربية وعاصمته روما، وقد نجحت حملاته الحربية في استرداد الجزء الأكبر، من سواحل غرب حوض البحر المتوسط، في اسبانيا وشمال أفريقيا. انعكس الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي على ازدهار الفنون والعمارة. أعاد صياغة القانون الروماني المدني. ربّما كان آخر امبراطور بيزنطي، يتحدّث اللاتينية (لغة روما) كلغة أولى.

[←115]

شارلمان 814 /742) Charlemagne): يعرف كذلك باسم شارل الأكبر، وكان ملكا لفرنسا منذ 768، ثم كذلك لايطاليا منذ 774، ثم أصبح امبراطورا لأوروبا الغربية كلها، منذ سنة 800 حتى وفاته، وكان قد تمّ تنصيبه في روما على يد البابا ليو الثالث. يعتبر أول موحِّد لأوروبا، منذ سقوط الامبراطورية الرومانية قبل ثلاثة قرون، وكان قد ورث ملك فرنسا عن أبيه، واستمر في سياسة حماية البابوية التي اتّبعها أبوه. قاد هجوما ضد الدولة الاسلامية في جنوب اسبانيا.

[←116]

لوج ديرج Lough Derg: هو اسم بحيرة داخلية هادئة في أيرلندا الشمالية، وهو كذلك اسم جزيرة صغيرة في هذه البحيرة، وهو موقع مقدّس حسب التقاليد المسيحية الأيرلندية، لأن هذه الجزيرة كانت قد بُنِيَت عليها كنيسة القديس سانت باتريك منذ أكثر من ألف عام، وهي الكنيسة المعروفة باسم المطهر Purgatory، ويزورها سنويا آلاف الزوّار كل عام، منذ قرون عديدة، حيث يمكنهم قضاء يوم أو بضعة أيام في صلوات وتأملات، وفي عزلة تامة عن العالم.

[←117]

عندما ظهر المسيح بعد موته ودفنه وقيامته، تشكك فيه أحد حوارييه الاثني عشر هو توما، فتقدّم نحوه المسيح، وطلب منه أن يضع أصابعه بنفسه على موضع دقّ مسامير الصلب في كفّي وقدمي المسيح. لذلك أطلق على توما بعد ذلك لقب الشكّاك.

[←118]
هذا المعنى كذلك كان موجودا في ديانة مصر القديمة، إذ توجد نصوص مصرية تذكر، أن على كل من يموت أن يتبع خطى أوزوريس، عبر طرق العالم السفلي، حتى يعود معه في لحظة بعثه الى الحياة من جديد.